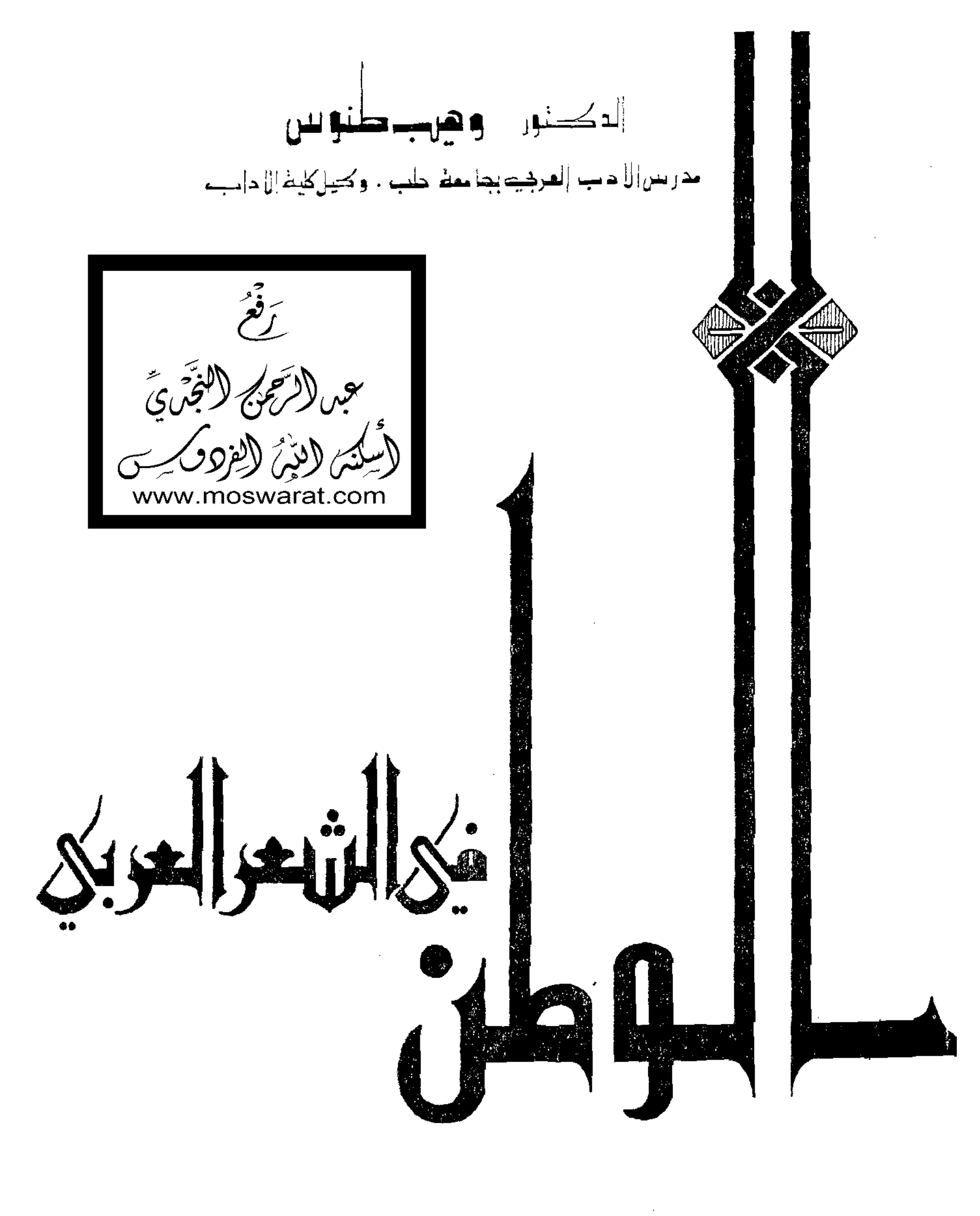
الدكتور وهيب طنوس

مدرس الأدب العربي بجامعة حلب . وكيل كلية الآداب



الوطن في الشعر العربي

من الجاهلية الى نهاية القرن الثاني عشر الميلادي

الطبعة الأولى

١٩٧٥ - ١٩٧٦


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

إني مدين للكثير في اخراج انتاجي العلمي الى المكتبة العربية ، ولا يسعني بهذه المناسبة الا أن أشكر معهد الدراسات الشرقية بلينينغراد التابع لأكاديمية العلوم السوفياتية الذي أتاح لي فرصة تحضيرنواةعملي ، وجميع المستشرقين ، والاختصاصيين ، والباحثين بقسم اللغة العربية في المعهد المذكور الذين قدموا لي العون ، وفتحوا لي جميع المجالات التي يمكن أن تساعدني ، وهيئوا لي جو الصداقة الانساني والتوجيه العلمي المسؤول فكانوا - بما فيهم الدكتور أنس خالدوف - خير معينا وأفضل رديفاً .

أتقدم بشكري الجزيل الى البروفيسور ف . إ . بيلايف رئيس قسم اللغة العربية في جامعة لينينغراد الحكومية ولجميع اعضاء القسم الذين استرشدت بملاحظاتهم وبتعليماتهم الايجابية ، كما أشكر دكتورة العلوم في علوم فقه اللغة ب . يا . شدفار ، ودكتورة علوم فقه اللغة أ . أ . دولينينا لتقيمها الموضوعي العلمي لعملي هذا .

شكري الخالص أتقدم به الى وطني الذي هيأ لي امكانية متابعة الدراسة ، آملاً أن أكون قد وفقت في خدمة تراث أمتي العربية العريقة ، بتبيان جانب من جوانبه الا وهو « حب الوطن » .

رَفَعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

« تقديم »

ان الظروف العصيبة التي تمر بها الأمة العربيـــة ، والتـــكالب الاستعماري الصهيوني على نهب خيراتها ومقدراتها ، كل هذا يدفع بنا ـ نحن العرب ـ الى الوقوف ، وبعزيمة وصدق ، حيال كل التحـــديات التي تواجهنا ، جاهدين للاستفادة من نتاج العلم الحديث ، آخذين العـــبرة والعظة من ماضي نضال أمتنا العريق ، لنعمل سوية ، وبوعي وصـدق ، على بناء المجتمع العربي الجديد . مجتمع الوحدة والحرية والاشتراكية .

من أهم مقومات النضال في عصرنا تربية النشيء العربي تربيـــة قومية ثورية ، وغرس الروح الوطنية ، ومنذ الصغر في نفوس النـاشئة . من هذه الزاوية بالذات كان اختيارنا لموضوعنا (الوطن في الشعر العربي) يرضي آمالنـا في خدمة الأمة ، ساعين جهدنا أن ندرس تطور هـــذا هذا المفهوم منذ الجاهلية ولنهاية القرن الثاني عشر ، آملين أن يكون بحثنا هذا أولى الحلقات في أبحاث لنا مقبلة ، نستمر في دراسة تطـــور مفهوم « الوطن ، الوطنية » حتى أيامنا هذه ، راجين أن تساهم دراستنا هذه ، وبتواضع ، في كشف جانب من جوانب ثقافتنـا ، ومضـامـين شعرنا العربي .

ان موضوع « حب الوطن » قد نال تجسيداً شعرياً في الانتـاج

الفني الادبي لـكافة الشعوب في كافة الأزمنة ، وبالرغم من أن هـــذا الموضوع قد وجد في الشعر العربي القديم ، وظهر بصور تعبيرية مختلفـة متنوعة ، فانه لم يحظ حتى الآن باهتمام الباحثين الخاص . من اسباب ذلك غزارة المادة العلمية ، وتوزعها وصعوبة جمعها . أما الآن فبـــين ايدينـا اصدار المرجع الأدبي الاول « المختارات الشعرية » للشاعر العربيالسوري، الذي عاش في القرن الثاني عشر (لأسامة بن منقذ) « كتـاب المنـازل والديار » . ان المخطوطة الفريدة الوحيدة لهذا الكتاب محفوظة في معهـد الدراسات الشرقية في لينينغراد ، التابـع لأكاديمية العلوم السوفيـاتية ، تحت رقم (C35) .

لقد وصف المستشرق السوفياتي الشهـــير الأكاديميك إ.ي . كراتشكوفسكي هذه المخطوطة ، وكتب عنها مقالات قيمـة ، وفي عـام ١٩٦١ قام المستشرق السوفياتي أنس بكييفيتش خالدوف بتصـويرهـا ، ونشرها مع مقدمة باللغة الروسية ، وفهارس الأعلام والقوافي والأمكنـة وغيرها .

أما إصدار المخطوطة في كتاب مطبوع فقد ظهر فيما بعد في دمشق وبيروت والقاهرة .

لقد قام أسامه بن منقذ في كتابه هذا بجمع مقتطفات من أشعار المعاصرين له والسابقين ، وكذلك أشعاره الخاصة ، حيث تتردد فيها ألحان فقدان الأقرباء والأهل ، الحنين الى الوطن المهجور ، حزن الفراق مـع الأحبه ، تذكر السعادة القديمة على أرض الوطن في مجتمـع الأهـــل

والأصدقاء ، مواعيد اللقاء السعيدة الخ ...

هدف بحثنا العلمي ـ دراسة « كتاب المنازل والديار » كأثر أدبي للقرن الثاني عشر : محتواه ، تركيبه ، وانعكاس شخصية أسامة وعصره فيه ، ودراسة أسامة ممثل الشعر والنثر في النصف الثاني من العصر العباسي . أما الهدف الثاني الرئيسي من البحث فهو دراسة ظهور وتطور الاحساسات والمشاعر الوطنية في الشعر العربي ، وتحليل صورة الوطن والتعبير عنها شعرياً في مخطط جغرافي اجتماعي تاريخي (مسقط الرأس ، أماكن وقوف القبيلة ، الحي ، القرية ، المدينة ، الوطن ، العائلة ، الأهل ، القبيلة ، تفهم وإدراك التبعية الاجتماعية الوراثية ، الدينية ، الحكومية) ، ملاحظة ظلال العلاقات العاطفية مع الوطن وصور تعبيرها الشعرية . ستكون هذه الدراسة قاعدة وأساساً لمتابعة تطور هذا الموضوع في العصور الادبية اللاحقة حتى غاية أيامنا الحالية .

ان دراستنا معتمدة على « كتاب والمنازل والديار » لأسامة بن منقذ بالاضافة الى مجموعة ضخمة من الدواوين الشعرية والمصادر الأدبية والتاريخية ، مستخدمين ـ اضافة إلى هذا كله ـ الدراسات العربية ، الروسية ، الأوربية ، المتعلقة بالشعر العربي .

ان دراسة الموضوعات والمضامين الشعرية تعتبر ـ بشكل نسبي ـ الاتجاه الحديث في دراسة التراث الشعري العربي ، حيث إنها حتى الآن لم تنل الاعتراف والاهتمام الكاملين في طرق البحث الأدبي في

الوطن العربي . لهذا فقد حرصنـا كل الحرص على دراسة طرائق البحث للباحثين السوفييت ، واستعملنـا ـ بقدر ما كان ذلك ممكناً لنا ـ الخبرة الفنية للدراسات الأدبية السوفياتية .



رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com



المدخل

سورية وفلسطين منذ نهاية القرن الحادي عشر إلى نهاية الثاني عشر XI – XII .

« مميزات العصر الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية »

لقد كان القرنان الحادي عشر والثاني عشر بالنسبة لسورية وفلسطين فترة حروب غير منقطعة ، وهزات سياسية عنيفة ، ففي الستينـــات من القرن الحادي عشر زحفت جيوش البداة الاتراك برئاسة السلاطين السلاجقه إلى سورية وفلسطين الموزعتـــين بين سلطة الفاطميين ، والبيزنطيـــين ، والسلالات الصغيرة ، كالاقليديين والمرداسيين . لقد كان على السلاجقه أن يمروا بمرحلة نضال طويلة ، بصورة خاصة مع الفاطميين ، لأجل الاستيلاء على المدن الغنية في المنطقة . ففي عام ١٠٧٠م استولى السلاجقه على بيت المقدس[١] وبعد خمس سنوات على دمشق[٢] . ثم إن مجموعة أخـرى من المناطق والمدن قد أصبحت تحت سيطرتهم وضمن مناطق نفوذهم . ومن أجل الحفاظ على هذه الممتلكات ، وتوطيـــد السيطرة عليها كان على السلاجقه وعلى قوادهم العسكريين التحارب فيما بينهم ، بعضهم مع بعض ، وضد الحكام المجاورين . أما فاطميو مصر فقد سعوا جاهـدين ايضاً لاسترجاع قواعدهم المفقودة ؛ وهكذا في عام ١٠٩٨ م تمكنوا من استرجاع بيت المقدس ، وذلك قبل استيلاء الصليبيين عليه بعام ، وكذلك استرجعوا عدداً من المدن الساحلية الاخرى في سورية .

ونظراً لعدم تمكن السلاجقه من امتلاك نظام مركزي قوي في جمع الضرائب وتأمين حاجات الجيش ، فقد كانوا مضطرين أن يقيموا في سورية

---

١ ـ ابن الاثير . ج I ، ص ٤٧

٢ ـ ابن الاثير . ج I ، ص ٦٨

ذلك النظام الذي كانوا قد استخدموه في ايران ، والذي ينطوي على إعطاء « البيكوات » الاتراك (وقواد الجيش الآخرين) الحق في جمع الضرائب من مقاطعه ما ، لتأمين حاجات الجيش ومتطلباته ، وهؤلاء بدورهم قاموا بتقسيم وتوزيع المقاطعه بين الأتباع ، فقاد هذا النظام من جهة أولى إلى الاستغلال الظالم بدون رحمة لسكان المقاطعة ، وإلى تقسيم وتجزئة المقاطعات المعطاة بشكل (إقطاع) ، ومن جهة أخرى فقد أضعف من تبعية « البيكوات » والأمراء للسلطان ، وكان سبباً في الحروب المستمرة على حدود المملكية .

أما في بعض المدن فقد استطاع بعض الاقطاعيين العرب أن يحتفظوا بسلطتهم ويوطدوها معترفين بذات الوقت بتبعيتهم للسلاطين السلاجقه .

لقد أصبحت سورية مقسمة مبعثرة ، لم تعد فقط كل مدينة كبيرة أو صغيرة مع الأراضي التابعة لها ملكية وراثية لأمير عربي أو تركي مستقل ، بل إن كثيراً من المناطق السكنية الصغيرة كانت مناطق نفوذ للاقطاعيين ، حيث سعى كل منهم ،وبجهد، لتأسيس سلاله محليهمستقله . ولقد كان بنو منقذ ـ أهل أسامه في عداد هؤلاء الاقطاعيين المتنفذين السوريين الذين يملكون كفاية متوسطة ، وتأثيراً سياسياً كبيراً .

أما سلطة الخلفاء في هذا الوقت ـ حتى في مجال ممتلكاتهم الشخصية في العراق ـ فقد كانت محدودة بشكل واضح : الخليفة

[لا يتعدى كلامه بابه ولا يتجاوز جنابه][1] .

إضافة الى الحكومات الاسلامية الكثيرة ، والسلالات الصغيره فقد زاحمت بيزنطة على السيطرة والسلطة في سورية وفلسطين ، بيزنطة التي لم تقوَ بأي شكل من الأشكال على الصبر لفقد ممتلكاتها (أماكن سيطرتها) في آسيا وشمال افريقيا . وفي نهاية القرن الحادي عشر ظهرت قوة سياسية عسكرية جديدة ساهمت وشاركت في حوادث سورية وفلسطين العاصفة في ذلك الوقت ، إنها اتحاد فرسان أقطار غرب أوربا ، ذلك الاتحاد الذي كانت من نتيجته الحملات الصليبية لأجل تحرير (الأرض المقدسة) و (قبر السيد) من (عديمي التقوى) المسلمين[2] . على امتداد قرنين من الزمن تقريباً (لقد امتدت الحروب الصليبية مع فترات سلمية متقطعة من ١٠٩٦ حتى ١٢٧٠) سعت مجموعات هائلة من سكان أوروبا الغربية بتحريض وأوامر البابا إلى غزو الشرق .

لقد تركزت أسباب هذه الحملات الصليبية أول ما تركزت في التغييرات التي حدثت حتى نهاية القرن الحادي عشر في أوضاع الطبقات الاجتماعية في الغرب ، هذه التغييرات التي كانت نتيجة للازمات والتطورات الاقتصادية . إذ في القرن الحادى عشر قاد القحط والجوع إلى : « أن عدداً كبيراً من القرى بقيت بدون عمال في الارض (بدون فلاحين) »[3].

١ ـ ابن دحية . النبراس . ص ٤٤ ؛ انظر أيضاً ابن جبير . الرحلة. ص ٢٢٧ ؛ ألطاهر ، أ . ج . الشعر . ص ٤٦ .
٢ ـ الكلمات بين قوسين من خطاب البابا أوربان الثاني .
٣ ـ زبوروف ، م . أ . الحملات الصليبية . ص ١٤

الفلاح الاوربي المستبَدّ به الذي يقاسي من الفقر والعوز ، والتابع بشكل أعمى إجباري للاقطاعي كان في ذلك الوقت مذلاً مهاناً يعيش تحت وطأة الظلام الفكري[1] .

على امتداد عشرات السنوات التي سبقت بداية الحملات الصليبية الى الشرق أخذ بعض متنفذي الكنيسة الكاثوليكية « أصحاب المركز العالمي الكبير للنظام الاقطاعي[2]، » بتعبير حرفي، يحسون نبض طرق حل المسألة الأساسية التي وضعت أمامهم : إبعاد صدامات الاقطاعيين الكبار والتجمعات الاقطاعية فيما بينهم ، ولهذا ليس من العجيب أن نرى فرسان البلدان الأوربية ، الجاهدين لاستغلال الشعوب والأراضي الجديدة ، والطبقة المظلومة التي وعدت بحياة غنية هادئة في الشرق بعد احتلال الاراضي الخصبة الرائعة في سوريه وفلسطين[3] وتحرير الفلاحين المحليين[4] ، قد

---

١ - لينين ، ف . إ . مؤلفات مختارة . ج III ، ص ١٨٥ .

٢ - ماركس ، ك . وانجلز ، ف . مؤلفات مختارة . ج II ، ص ٩٣ .

٣ - حسب كلام البابا أوربان الثاني : « فان الأرض في الشرق تقطر عسلاً ولبناً [خيرات]؛ « مدينة بيت المقدس - إنها سيدة الدنيا ، الأرض [فيها] ، حرفياً ، جنة ثانيه » . انظر :

بيلي . م . حياة صلاح الدين . ص ، ٥٢ ؛ وزبورون ، م . أ . الحملات الصليبية . ص ٥٢ - ٥٣ .

٤ - في الحقيقة ، إن مسيحيي الشرق ، وبشكل خاص في فلسطين ، قد عاشوا في ظروف معاشية متساوية مع المسلمين ، على أقل تقدير ، في العلاقات الدينية . انظر :

Michoud, Histoire, vol. I, p. 41, والدهان. س. الناصر صلاح الدين.

ساروا كلهم نحو الشرق مجتمعين تحت راية الكنيسة .

أما في سورية في تلك الأثناء فقد كانت صراعات الأمراء مستمرة دون انقطاع تقريباً ، حيث لم تتوقف حتى بظهور الصليبيين . وانتقلت المدن والمناطق عدداً من المرات من يد الى أخرى . كل حصار حربي كان معناه نهب السكان وإفقارهم ودب البؤس فيهم ، وبالنسبة لعامة الشعب البسيطة ، فلاحين كانوا أم مدنيين ، لم تكن أسماء الأسياد ذات معنى - أكانوا سلاجقه ،أمأتراكاً ، أمعرباً ، أم صليبيين . تبدلالأسياد الاقطاعيين ليس بذي معنى بالنسبة لهم ، ذلك لأن هذا التبدل لم يجر وراءه أيـة تغييرات البته في أوضاعهم المعقدة القاسية .

لهذا نال الصليبيون في الحملة الأولى نجاحاً باهراً ساعدهم في ذلك الانقسام والتشتت والنزاع الداخلي بين الامراء ، الذين لا يملكون آمالاً ومطامح موحدة . إذ سعى كل امير جاهداً - وسلاحه بيده - لتحطيم جاره ، ودافع فقط عن مطامحه ورغباته غير مهتم بمصير الوطن .

ولذا حتى ١١٠٩ شكل الصليبيـــون في الشرق ولاية الرهـا ، وإمارة انطاكيه ،ومملكة بيت المقدس ، وولاية طرابلس .

إن نضال الشرق ضد الصليبيين تزعمته سلالتـان ملكتا السلطـــة الواحدة تلو الأخرى : الزنكيونالذينكان أشهرهم عماد الدين ونورالدين ، والأيوبيون الذين خرج من بينهم صلاح الدين الشهير . ولقد لعب هؤلاء السلاطين الثلاثة دوراً هاماً كبيراً في تاريـخ الشرق في تلك الاثنـاء ، وشارك معهم اسامة بن منقذ ، بنشاط وجرأة في النضال ضد الصليبيين .

لقد تميزت الحالة السياسية في الشرق في بداية القرن الثاني عشر بعدم الاستقرار المدهش ، وبالسرعة الفائقة في تغيير «الخارطة» السياسية . فعلى أرض غير كبيرة - نسبياً - في اتصال وثيق مستمر ، سلماً وحرباً، عاش أهل سورية ، والبداة الذين غادروا هضاب آسيا الوسطى منذ وقت قريب . المسيحيون والمسلمون كانوا في كلا المعسكرين المتحاربين ، لكن الرغبات والمصالح الطبقية فوقت كلا المعسكرين اكثر مما فرقها المعتقد الديني .

في هذه الظروف كان من الضروري على الزنكيين ، مترئسي النضال ضد الصليبيين ، أن يؤسسوا وحدة فكرية في معسكرهم ، فالسلجوقيون من قبل قد بدؤوا باضطهاد الشيعة ، لكن النضال من أجل توحيد المعتقد ؛ توحيد المسلمين فكرياً ، لا يمكن اطلاقاً كسبه فقط بالقوة (وبالمناسبة فان نظام الملك - وزير السلاجقه ، وهو ساعٍ لرفع مكانة الثقافة السنية ، بنى المساجد والمدارس من أجل تعليم أبناء المسلمين القرآن والحديث وعلوم الثقافة العامة)[1] . لقد سميت هذه المدارس « بالنظامية » . ولهذا فقد بنى نور الدين ، ومن بعده صلاح الدين المدارس التي تنهج النهج السني ، وتدعم هذه الطائفة وثقافتها وفكرها. ولقد سميت هذه المدارس بـ « النورية ، والصلاحية » . ولا بد من الاشارة إلى أن الأثر الأكبر والقيمة العظيمة في توسيع المعارف والثقافة في هذا الوقت يعودان إلى « دار الحكمة » في بغداد ، و « دار العلم » في القاهرة ، و « دار المعرفة » في طرابلس .

---

١ - حمدي ، ح . الشعر . ص ٢٦

لقد ازداد الحب للكتب وجمعها حتى إن الخلفاء،السلاطين، والأمراء قد بنوا في بيوتهم المكتبات التي كان لها أهمية ليست بالقليلة في تنمية مدارك ومعارف الأجيال اللاحقة ، مثلاً : مكتبة القصر الفاطمي في القاهرة (بلغ تعداد كتبها كما يقال ، مليوني كتاب)[1] . و « مكتبة نظامية بغداد » و « مكتبة آمد » . ولقد ملك أسامه ابن منقذ أيضاً مكتبة خاصة ، تحتوي على مايقارب /٤٠٠٠/ كتاب .

يرى فيليب حتي « أن جمع الكتب والاهتمام بها كان عند المسلمين التسليه الوحيدة لأن حياتهم لم تكن تألف المحافل السياسية ومسارح التمثيل المعروفة منذ القدم في بلاد اليونان وروما مما اقتضى ان تكون الكتب وحدها تقريباً السبيل إلى تحصيل المعرفة وهي المتنفس الذي يضمنونه آراءهم وكوامن أفكارهم »[2] .

في القرن الثاني عشر ، في الشرق الأدني لم تتصادم فقط قوتان سياسيتان، بل وثقافتان أيضاً ، وبالمناسبة ففي اكثر الملاقات كانت الثقافة المحلية أقوى وأرفع ، وأثرت تأثيراً بليغاً على الصليبيين . طبعاً ، إن تقدم الفلسفة والفلك قليلاً مالاقى اهتمام الفرسان الاوربيين ، لكنهم بشكل واضح لمسوا تفوق مستوى الحياة في الشرق ، حتى إنهم في الجيل الثاني قد تقاربوا بمظاهر الحياة مع الاقطاعيين المسلمين .

---

١ ـ أبو شامه حـ ـ ا ، ص ٢٠٠. عن هذه المكتبه كتب أسامه في كتاب العصا . أنظر :

Derenbourg H., Le Vie d'Ousama, p,563

٢ ـ Hitty, ph., History of the Arabs. p. 563

هذا كان بالضبط ذلك الوقت الذي بدأفيه أسامة بن منقذ حياة نشيطة في الأمور السياسية . في مؤلفاته - كما سنرى فيما بعد - سنعثر على الكثير من المعلومات المثيرة التي تحدد وتصف العلاقة بين المسلمين والصليبيين، وتلك الروح الصبورة نسبياً ، التي وجدت فيما بينهم بغض النظر عن الحرب المستمرة . عن هذه الروح الصبورة قد كتب مؤلف اسلامي آخر، معاصر لأسامة وهو (ابن جبير٥٣٩-٦١٤/١١٤٤-١٢١٧) :

(« وكل من وفقه الله بهذه الجهات من الغرباء للانفراد يلتزم، إن أحب،ضيعة من الضياع فيكون فيها طيب العيش ناعم البال ، وينثال الخبز عليه من أهل الضيعة ويلتزم الامامه أو التعليم أو ما شاء ، ومتى سئم المقام خرج إلى ضيعة أخرى أو يصعد إلى جبل لبنان أو الى جبل الجودي فيلقى بها المريدين المنقطعين إلى الله ، عزّ وجلّ ، فيقيم معهم ما شاء ، وينصرف إلى حيث شاء . »،« ومن العجب أن النصارى المجاورين لجبل لبنان إذا رأوا به بعض المنقطعين من المسلمين جلبوا لهم القوت وأحسنوا إليهم ، ويقولون : هؤلاء ممن انقطع إلى الله عزّ وجلّ فتجب مشاركتهم ... وإذا كانت معاملة النصارى لضد ملتهم هذه المعاملة فما ظنك بالمسلمين بعضهم مع بعض »،« واختلاف القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الافرنج غير منقطع ، واختلاف المسلمين من دمشق إلى عكة كذلك . وتجار النصارى لا يمنع أحد منهم ولا يعترض . وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها في بلادهم من الأمنة على غاية . وتجار النصارى يؤدون في بلاد المسلمين على سلعهم ، والاتفاق بينهم والاعتدال في جميع الاحوال ، وأهل الحرب مشتغلون بحربهم والناس في عافية ، والدنيا لمن غلب »،« وخرجنا نحن الى بلاد الافرنج وسببهم يدخل بلاد المسلمين ونأهيك عن هذا الاعتدال في السياسة »،« ورحلنا من

[تبنين] ، دمرها الله ، سحر يوم الاثنين ، وطريقنا كله على ضياع متصلة وعمائر منتظمة ، سكانها كلهم مسلمون . وهم مع الافرنـــج على حـالة ترفيه ...»[1] .

وبهذا فان العصر الذي عاش فيه أسامه إنما هـو عصر الظـــلم الاقطاعي ، والاستغلال الوحشي للطبقة الـكادحــــة ، عصر المنازعات الاقطاعية والحملات الصليبية . لقد لعب هذا كله دوراً ليس بالقليـل في تكوين المجتمع الثقافيوالسياسي والشعور الوطني والقومي ، ومفاهيم عدة كمفهوم «الوطن» ، «نحن» و «هم» ، «جيشنا» و «جيش أجنبي» و «أرضنا» و «أرض غريبة» ،و«شرق» و «غرب» . في هذه الظروف وفي هذا الجو والوسط نشأ أسامة وترعرع في هذا الواقع العاصف الذي أعطاه إمكانية التعرف على أنواع مختلفة من البشر ، وحدد أفقه الواسع ، وتفهمه وشمول نظرته التي لا تعتمد على معطيات مسبقة وأحكام ذاتية غير مستنـــدة الى الواقع . بهذا الشمول وبهذه النظرة الواقعية الصحيحة تميزتجميع مؤلفاته.

أدب هذا العصر ـ عصر الحروب الصليبية ـ لم يدرس بالشـكل الـكافي وبصورة خاصة في سورية ومصر لأن اهتمامات البحاثة المعاصرين ، بما فيهم العرب ، كانت موجهة بشـكل رئيسي للعصرين الاموي والعباسي ، [العصر الذهبي للادب العربي] .

---

١ ـ ابن جبير ، الرحلة ، ص : ٢٣٧ ، ٢٨٨ ، ٣٠١ ، ٣٠٢

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الجزء الأول

حياة أسامة وآثاره الأدبية

٤٨٨ - ٥٨٤ / ١٠٩٥ - ١١٨٨

الفصل الأول

حياة أسامة بن منقذ :

أسامة بن منقذ فارس وقائد حربي ، رجل سياسة وحكم ، شاعر وعالم عاش حياة طويلة مملوءة بالاحداث المثيرة ، وكان الممثل للطبقة الاقطاعية الحاكمة في سورية . أثر في الوضع السياسي المعقد للشرق الأدنى في القرن الثاني عشر ، هذا الوضع الذي حاولنا تحديد مميزاته في«المدخل».

عادة ، في حالات دراسة الحياة الخاصة للناس الذين عاشوا في عصور قديمة تواجه الباحث صعوبة عدم كفاية مادة الدراسة ، لكننا مع أسامة نقع على حالة جداً موفقة وسعيدة ، ذلك ان اسامة على مدار حياته كان قد شغل بالمؤلفات الأدبية ، وأخرج للوجود فكرتين موفقتين: جمع في مؤلف واحد « في ديوانه » تقريباً جميع أشعاره ، وكتب -من أجل إعطاء العظه للاحقين - كتاباً من تجربته الحياتية الخاصة . لقد حفظ كلا الكتابين الى وقتنا الحالي واصدرا ، كما أنه يمكننا العثور في

مؤلفاته الأخرى على نبذ من حياته الخاصة ، إضافة إلى هذا فان نشاطه السياسي والعسكري والحربي ، انعكس في السجلات التاريخية لذلك الوقت كما ان آثاره الادبية لم تغفل من قبل الناقدين وواضعي المجموعات « المختارات » .

ولذا ، وبصورة أساسية ، بفضل هذه الاوضاع - (شهرة شخصيته ، وغزارة المادة) - كانت قد غدت سيرة حياة أسامة في أيامنا مادة لمجموعة من الدراسات والابحاث .

لقد كان المستشرق الفرنسي الكبير (أواخر القرن التاسع عشر) هرتوينغ درنبورغ الباحث الاساسي الاول لأسامة وآثاره الادبية إذ قد طبع عدة أبحاث ومقالات ونبذ عن حياته . والاعمال اللاحقة عن أسامة - ترجمات بعض مؤلفاته الى اللغات الاوربية ، ومقالات ودراسات عنه قد اعتمدت كلها على اعمال درنبورغ . أما في الاتحاد السوفياتي فقد طبع المستشرق الكبير الاكاديميك كراتشكوفسكي إ . ي . أعمالاً قيمة جداً عن أسامة : مقدمة وخاتمة للترجمة الروسية ، لسيرة حياة أسامة « الاعتبار » ومقالة عن كتاب « المنازل والديار » وغيرها .

ولقد صدرت في البلاد العربية مجموعة من النبذ والمقالات عن أسامه إذ كان أول عمل عن شيزر وآل منقذ مقالة ط . النعساني ، التي قرئت في المجمع العلمي العربي بدمشق وطبعت في عام ١٩٢٩ حيث اعتمد النعساني على مصادر العصور الوسطى العربية فقط . ويفهم من هذا أنه لم يكن مطلعاً على اعمال درنبورغ (هذا ما يدل عليه فقدان الاقتباس والاستشهاد من مؤلفاته) .

ثم إن ف . حتي ـ العالم ذا المنشأ العربي قد اشتغل مع مذكرات أسامه : ففي عام ١٩٢٩ ترجم كتاب « الاعتبار » إلى الانكليزية، وبعد عام ، في ١٩٣٠ ، وبالاعتماد على مخطوطة كتاب « الاعتبار » الموجودة في الاوسكريال في اسبانيا أصدر مجدداً النص العربي المخطوط . لقد تعرض فيليب حتى في المقدمة لعمليه الملميين هذين للحياة العامة لأسامة ، ولأهم الحوادث في حياته (المقدمتان بالمضمون متشابهتان) . وبعد عدة سنوات بدىء في الوطن العربي باصدار مؤلفات أسامة .

كان أ . شاكر أول من اصدر كتابه « لباب الآداب » في القاهرة عام ١٩٣٥ . وفي عام ١٩٤٦ ، وفي القاهرة ظهرت دراسة لـ : م . أ . حسين عن حياة أسامه هذه الدراسة التي تحتوي على استشهادات من أعمال درنبورغ ، لكن بالمقارنة معها تعطي شيئاً جديداً قليلاً . فيما بعد ، عام ١٩٥٣ أيضاً في القاهرة أصدر أ . بدوي و ح . عبدالمجيد « ديوان اسامة » ، وبعد سبعة أعوام من هذا ، في ١٩٦٠ أصدر « كتاب البديع » ، وفي المقدمة لهذه الاصدارات كان قد أعطي من قبل المؤلفين مختصر عن حياة أسامة . واضافة إلى هذا فان . أ . بدوي في عام ١٩٥٤ في عمله « الحياة الادبية .. » و ع . م . باشا في أطروحته للدكتوراه « أدب الدول المتتابعة) كانا قد خصصا مقالين منفصلين مختصرين لاعطاء الصفات العامة لحياة أسامة كشاعر من شعراء القرن الثاني عشر. أما آخر الاعمال العلمية العربية عن أسامة فتعود إلى عام ١٩٦٨ . هذه الاعمال تعيد المعلومات العامة المعروفة عن سير حياة أسامة في الدراسات السابقة حتى انها لا تورد حقائق جديدة عن حياته ـ وكمثال على هذه

الاعمال يمكن الاشارة إلى عمل أ . زكي في « سلسلة أعلام العرب » وأ م . حجازي في مقدمته لكتاب « المنازل والديار » الذي قام بتحقيقه . إن معظم هذه الاعمال مرتبطة باصدارات مؤلفات أسامة ولهذا فانه يشار اليها حكماً في نهاية هذا الفصل . ومن الطبيعي أنها جميعها قد دخلت عندنا في الفهرست التابع لهذا العمل .

ان الاهتمام الاساسي في دراستنا موجه إلى نشوء وتطور المشاعر الوطنية في الشعر العربي بالاعتماد على كتاب « المنازل والديار » لأسامة بن منقذ ، وتبيان مستوى مفهوم الوطن عنده ، كما أننا نهتم بدراسة أسامة الممثل للشعر والنثر [من خلال شعره ونثره] في أواخر النصف الثاني من العصر العباسي .

سيرة حياة أسامة في عملنا ليست هدفاً وحيداً ، أو بحثاً مستقلا لكن تجاوزها ـ في رأينا ـ غير ممكن ولا وارد . ولهذا سنحاول بشكل عام دراسة وتحليل حياة وآثار أسامة بجدة وحداثة معتمدين من أجل تحقيق هذا الهدف ـ لأول مرة بهذا الحجم ـ ديوانه ، وعدداً من المصادر القديمة التي لم تستعمل بشكل كافٍ . وفي طريقنا ، وفي طريقنا وبعد تعرفنا على جميع الاعمال الادبية عن أسامة ، قد استطعنا ، وبشكل دقيق مجدد أن نجيب على عدد من الاسئلة التي بقيت طيلة المدة السابقة بدون جواب ، وان نشير الى عدد من اخطاء الدارسين في أحكامهم ونتائجهم ، وإلى العدد من المعلومات الخاطئة التي أوردوها ،وأن نكتشف حقائق جديدة عن حياة أسامة . كما حاولنا جاهدين في دراستنا أن نوضح علاقة أسامة بالوطن ، وتصوره عنه ، ومستوى مفهومه عنده .

أسامة ونسبه :

لقد سموا أب أسامة ، مرشداً ، وجده ، علياً أما جده البعيد فمنقذاً ، ولهذا فقد دعوا أسامة غالباً : أسامة بن منقذ ، وللتسهيل : ابن منقذ . وكل عشيرته : بني منقذ ، أو المنقذيين . أما تسميته الكاملة فهي أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الى انتهاء نسبه الى كنانه [الكناني] ، وفيما بعد الى الجد الاساسي لجميع القبائل العربية الجنوبية - الى قحطان ومنه الى الاب الاول - آدم[1] . نسب آل منقذ وبني كنانه (شجرة العائلة) توجد في المصادر المختلفة مع اختلافات غير اساسية[2] لا نرى ضرورة للتطرق لها في دراستنا .

أشهر كنية لاسامة - أبو المظفر (ابن بهذا الاسم - على ما يبدو - لم يكن عنده)، هذه الكنية موجود عند ياقوت وفي مصادر أخرى. ويوردون أيضاً - أبا الحارث[3]،

---

١ - عماد الدين الاصفهاني ، الجريده ، طبعة درنبورغ حـ XIX ص٢

٢ - انظر مثلاً ياقوت . معجم الادباء . حـ II ص ١٧٣ - ١٧٤ ؛ ابن خلكان ، وفيات الاعيان . حـ III ص ٨٨ - ٨٩ ؛ ابن الصابوني . تكملة . ص - ١٧٧ ، ٢٩٢ ، ٣٠٢ ؛ الذهبي ، سير أعلام النبلاء . ص ٩٠٢ . العاملي ، اعيان الشيعة حـ XI ص ٧ - ٢٦ .

٣ - النعيمي ، الدارس في تاريخ المدارس .

وأبا الفوارس[1] ، وأبا أسامة[2] ، ومن ألقابه يذكر الذهبي وأبن الـ ابوني: « مؤيد الدولة » وياقوت : «مجد الدولة» وابن الجوزي[5]: «مؤيد الدين» . ف . حتى في «تاريخ بيروت» وجد لقب لأسامة « عز الدين » ، والذهبي يدعوه « مجد الدين » أما ابن خلكان فيورد نسب أسامة ـ الكناني ، الكلبي والشيزرى ، ولا بد من الاشارة الى ان هذه الانساب منفردة أو مجتمعة يعثر عليها في مصادر أخرى .

---

١ ـ احمد محمد شاكر ، مصدر كتاب « لباب الآداب » ، وجد هذه الكنية على صفحة العنوان لكتاب أسامة « البديع في نقد الشعر» ، الذى سنتكلم عنه فيما بعد ، من الممكن انهم قد نسبوا له كنية أبيه (انظر فيما بعد) .

٢ ـ هذه الكنية واردة عند ياقوت ، ربما خطأ ، حيث ليس من عادات العرب الآن إعادة الكنية باسم ذات الشخص .

٣ ـ مرآة الزمان ص ٢٤١ .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

- شيزر وبنو منقذ -

لقد ظهر بنو منقذ على الساحة التاريخية ، وسما مجدهم في فترة وجودهم القصيرة ، حتى إنهم تمكنوا أن يؤسسوا سلالة حاكمة مستقلة لم تدم طويلا ، وذلك بسبب (تراجيديا) وفاتهم وفنائهم جميعاً في الكارثة المؤلمة التي ألمت بشيزر ودمرتها ولم تبق منها إلا آثارها وأطلالها ، التي لا تزال شامخة تذكر بمجدها الغابر . ولقد كانت فترة سيادة بني منقذ في شيزر أشهر مرحلة من مراحل حياتها وتاريخها ، ولا عجب بعد ذلك أن تقرن شيزر ببني منقذ وأن يقرنوا هم بها ، حيث كان لشيزر وبني منقذ الدور البارز في تاريخ البلد ومواطنيه في هذه الحقبة العصيبة من حقب صراع الغرب والشرق .

وبحق ، يعدون شيزر من مدن سورية القديمة . إنها تذكر في النصوص المصرية القديمة باسم «سنزار» و « سنزارا » وسماها الاغريق « سدزارا » أما البيزنطيون « فسيزار » . ويصادفنا اسم المدينة في صيغة « شيزر » في أشعار الشعراء العرب الجاهليين مثلا في أشعار امرىء القيس ، وعبيد الله بن قيس

الرفيات[1] ، أما المؤلفون اللاتينيون فقد خلطوا بين «شيزر» و «تسيزريا» وسماها مؤرخو الحملات الصليبية « تسيزاريا » أو « قيصرية » حيث من هذه التسمية الاخيرة تشتق التسمية العربية الثانية « قيصرية »[2] .

---

١ ـ ياقوت ، معجم البلدان . جIII ص ٣٥٣ (ليبزيغ) (١٩٦٨) .

قال امرؤ القيس :

تقطع أسباب اللبانه والهوى — عشية جاورنا حماة وشيزرا
بكى صاحبي لمارأى الدرب دونه — وأيقن أنا لاحقان بقيصرا
فقلت له لا تبك عينك إنما — تحاول ملكاً أو تموت فتعذرا

وقال ابن قيس الرقيات :

قفوا انظروا بي نحو قومي نظرة — فلم يقف الحادي بنا وتغشمرا
فوا حزنا إذ فارقونا وجاوروا — سوى قومهم أعلى حماةوشيزرا
بلاد تعول الناس لم يولدوا بها — وقد غنيت منها معاناً ومحضراً

٢ ـ درنبورغ وزكي أحمد ومصطفى حجازي يرون أن الآثار الباقية من حصن شيزر مشهورة تحت تسمية « سيجر » ، لكن في عام ١٩٧١ بزيارتي المدينة وبقايا الحصن تأكدت من أنها تسمى «شيزر» وقد عاودت الزيارة فى عامي ١٩٧٣ ، ١٩٧٥ .

تعد شيزر بين الحصون المبنية على ضفاف نهر (أورنت) ، (الأرند) أي العاصي ذلك النهر الذي ينبع من جبال بعلبك في لبنان ويتابع مسيره شرقاً ثم شمالاً في الاراضي السورية ماراً ببعلبك وحمص وحماه وشيزر والمضيق وأفاميا[1] . تقع شيزر إلى الشمال الغربي من حماه على بعد ٢٨ كم على تلة مطلة على الشاطىء الجنوبي الغربي لنهر العاصي حيث يسير النهر هنا من الشرق الى الغرب . التلة الصخرية مع القلعة (الحصن) المحيطتان بالنهر من ثلاث جهات يذكران بشبه جزيرة متصلة من الجهة الشمالية - حيث تقع الطريق المؤدية من حماه إلى أفاميا - بجسر حجري متين وطيد . الحصن على أعلى التله يشبة « عرف الديك » وعند عدد من المؤرخين العرب هذا التشبيه استعمل مكان التسمية[2] .

لقد كان حصن شيزر فى تلك الاثناء صعب المنال . حسب قول أحد آل منقذ :« نظرت الى هذا الحصن فرأيت أنه يتسع لثلاثة آلاف رجل بالاهل والمال ويمكن ان تمسكه خمس نسو » .

لقد تألفت شيزر في القرنين الحادي عشر والثاني عشر من الحصن الخاص أو « القلعة » يتصل به « البلد » ومن مدينة « الجسر » على ضفة النهر .

كان للقلعة ثلاث بوابات : شمالية ، تقود إلى الجسر ، وغربية كان

---

١ - مصطفى حجازي (ص٣٢) خطأ عد أفاميا والمضيق حصناًواحداً.

٢ - محمد الدمشقي ، النص العربي ، ص (٢٠٥) ، الترجمة الفرنسية ، ص (٢٧٩) .

استعمالها اكثر وذلك لانها تتوجه الى المدينة ، وبوابة متصلة بالدهليز تحت الارض الذي يقود إلى النهر حيث بواسطتها كان السكان يجلبون ماء الشرب، وفي بعض الاحيان استعملت في الاوقات الحربية والصدام كما يخبر عن ذلك أسامه[1] .

الارض المجاورة لشيزر ، والمتصلة بها ، خصبة ، صالحة للاعمال الزراعية ، ولعمل السكان ، وقد أعطت انتاجاً من الحبوب والفواكه أمن للمدينة حياة اقتصادية مستقلة ، وانتشر عليها عدد من المناطق السكنية والقرى ، من بينها : كفر نبوذا ، وبندرقنين في الشمال ، ومعرزف في الجنوب .

لقد كان دور شيزر في القرون الثلاثة الاولى - على ما يبدو - قليل الاهمية لانها تذكر في المصادر العربية بشكل نادر جداً . أما في

---

١ - أسامة ، الاعتبار ، اصدار درنبورغ . ص ٦٨ - ٦٩ ؛ الترجمة الروسيه ص ١٦١ ؛ اصدار حتي ص ٩١ . قال اسامة: «وشاهدت من لطف الله تعالى وحسن دفاعه أن الافرنج ، لعنهم الله ، نزلوا علينا بالفارس والراجل ، وبيننا وبينهم العاصي وهو زائد زيادة عظيمة لا يمكنهم ان يجوزوا الينا ولا نقدر نحن نجوز اليهم ، فنزلوا على الجبل بخيامهم ونزل منهم قوم إلى البساتين ، وهي من جانبهم فتجرد شباب من رجالة شيزر وخلعوا ثيابهم وأخذوا سيوفهم وسبحوا إلى أولئك النيام فقتلوا بعضهم ، وتكاثروا على أصحابنا فرموا نفوسهم الى الماء وجازوا ..» .

الرابع الهجري / العاشر الميلادي فقد كانت منطقة شيزر مسرحاً للصدامات المستمرة بين الحمدانيين والبيزنطيين ، وأيضاً الفاطميين ، وذلك بسبب أهمية موقعها الجغرافي الاستراتيجي ، اذ كانت شيزر مفتاحاً الى قلب سورية ، وكان حكمها سجالاً بين العرب والبيزنطيين إلى أن استولى عليها الامبراطور فاسيلي الثاني في ٣٩٠ / ٩٩٩ ، فبقيت تحت سلطة بيزنطة إلى عام ٤٧٤ / ١٠٨١ .

لقد استولى بنو منقذ على شيزر في عام ٤٧٤ / ١٠٨١ وأسسوا فيها إمارة مستقلة امتد نفوذها لعام ٥٥٢ / ١١٥٧ ، وتمكنوا من المحافظة على امتلاك المدينة بغض النظر عن أن جيرانهم الاقوياء : الحكام المسلمين، والفرنجة كانوا يحاولون باستمرار الاستيلاء عليها وضمها الى ملكيتهم . وقام بنو منقذ في مدة حكمهم بمجموعة من التحصينات الدفاعية حول شيزر . وهكذا ـ حتى قبل استيلائهم على المدينة ـ كانوا قد بنوا بوابة حصينة على الضفة الغربية للعاصي مقابل جسر شيزر ، وسميت « بحصن شيزر » . والجسر بذاته دعي فيما بعد « جسر بني منقذ » رغم أنه ـ ربما ـ كان فقط مدعماً ومصلحاً في ايامهم . كما أقيمت التدعيمات ايضاً من جهة المدينة وعلى موازاة الجسر ؛ ومن الخلف ، من جهة القلعة ، في الجنوب الغربي كان قد حفر خندق في الصخر للدفاع عن شيزر . وعلى ما يبدو فان « مدينة الجسر » كانت قد بنيت بشكل كامل في ايام بني منقذ(١).

١ ـ أسامة ، الاعتبار . إصدار درنبورغ ، ص ١٠٩ ، إصدار حتي ، ص ١٢٩ :
« ومن إقدام النساء أن جماعة من الافرنج الحجاج حجوا وعادوا الى رفنية وكانت ذلك الوقت لهم . وخرجوا منها يريدون أفامية . فتاهوا في الليل وجاءوا إلى شيزر وهي إذ ذاك بغير سور » .

المصادر تصمت ولاتعطي شيئاً من المعلومات عن البناء ضمن البلد والحصن ، لكن ماكس برشم ـ فقط ـ كتب عن الآثار الاسلامية (الارخيتكتورا) في شيزر[1] . ولذا يمكن الافتراض بان هذه الآثار عائدة الى أيام بني منقذ .

في عام ٥٥٢/١١٥٧ كانت شيزر قد تهدمت من الزلازل التي اصابت القسم الشمالي من سورية . ورغم ان نور الدين الزنكي حاول اعادة بنائها في نفس العام لكن المدينة لم تنهض ثانية . إذ إننا لا نجد الآن منها إلا خراباتها الباقية فقط . وفي عام ١٩٢٩ وجد طاهر النعساني نقوداً وكتابات عربية على أحد جدران القلعة[2] ، ووصفها هكذا :

« كانت في عهد بني منقذ عامرة بقطانها ومحصولاتها الزراعية وفواكهها الطيبة ، يخرج منها خمسة آلاف مقاتل ، وهي اليوم لا يكاد يوجد فيها خمسون مزارعاً ، موبوءة ، أمراضها فتاكه يضرب بها المثل لهوائها الفاسد فيقال : « أوخم من شيزر » ، ويقال : « تفعل كذا ، وتنال كذا ، وتقول شيزر وخمة»[3] .

أما في عام ١٩٧١ فقد بدت لنا شيزر هكذا : الحصن القديم (القلعة) حيث لايعيش هناك احد (يمكن رؤية مشهده في الصورة رقم ١) ، في القسم السفلي الغربي من القلعة ، وعلى الطريق السائرة من حماه الى أفاميا تقع قرية حديثة متصلة بسهل فسيح أصبح من أخصب

---

١ ـ N. Elisseeff , Nur ad — Din , P. 223 — 224 .

٢ ـ في عام ١٩٧١ لم أتمكن من العثور على هذه الكتابات .

٣ ـ النعساني ، أسامة ، ص ٧ .

المناطق الزراعية المنتجة في سورية ، وذلك بعد تجفيف مستنقع الغاب الذي كان بؤرة الامراض والاوبئة ، وفي هذه القرية مدرسة ابتدائية ببنائها الحديث .

بعد عام ١٩٥٨ طبق هناك الاصلاح الزراعي فأممت الاراضي التابعة لآل الكيلاني ووزعت على الفلاحين . أما وراء القلعة ، وعلى بعد قليل ، على نهر العاصي ، فيقع سد محردة الذي يمتلك أهمية اقتصادية كبيرة ، حيث يروي معظم سهل الغاب المجفف .



رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

امتلاك آل منقذ لشيزر

إن المصادر تعطينا روايتين عن امتلاك آل منقذ لشيزر ، وللنظرة الأولى تبدوان متناقضتين . الرواية الاولى اساسها ابن الاثير ثم اعتمد عليه فيها مؤرخون آخرون [١] وتفيد ان القائد العربي صالح ابن مرداس[٢] الذين استولى على المنطقة بين حلب وعانة قام باقطاع شيزر إلى آل منقذ .

أما الرواية الثانية فترجع في الاصل الى ابن خلكان الذي يخبر بان شيزر كانت مأخوذة بالقوة في عام ١٠٨١ وذلك بفضل الرجال الجبليين الاقوياء من بني منقذ الذي حاصروها لمدة طويلة .

والواقع نرى بان الروايتين متفقتان ، إذ ربما استلم آل منقذ إقطاعهم من ابن مرداس اسمياً ، أما بشكل فعلي فقد كان مع البيزنطيين ، أو منطقة مختلفاً عليها ، ولا بد من الحرب لامتلاكها .

---

١ ـ أبو شامة ، حـ I ، ص ١١١

٢ ـ مؤسس السلالة المرداسية التي انتقلت في بداية القرن الحادي عشر من منطقة الحلة في العراق إلى حلب وشمال سورية ، وتمركزت هناك من ٤١٤/١٠٢٣ إلى ٤٧٢/١٠٧٩ .

عن المنقذي الاول المشهور تاريخياً - جد جد أسامة- مقلدبن نصر ابن منقذ يكتب ابن خلكان ما يلي : « كان رجلا نبيل القدر ، سائر الذكر ، رزق السعادة في بنيه وحفدته وكان ينزل في جماعة كبيرة من من أهل بيته مقيمين بالقرب من قلعة شيزر ، عند جسر بني منقذ المنسوب اليهم ، وكانوا يترددون الى حماه وحلب وتلك النواحي ، ولهم بها الدور النفيسة والاملاك الثمنة . وذلك كله قبل ان يملكوا قلعة شيزر. وكان ملوك الشام يكرمونهم ويجلون أقدارهم ، وشعراء عصرهم يقصدونهم، ويمدحونهم وكان فيهم جماعة اعيان رؤساء اجلاء(1) .

لقد كان مقلد زعيم بني منقذ عندما استلموا الاقطاع من المرداسي الحلبي ، ذلك الاقطاع الذي لم تمكن مساحته محددة وحدوده معروفة - على ما يبدو - منذ البداية . وفي نهاية عام ١٠٤١ نجد ان مقلدا قد وسع سلطته حتى على كفر طاب (القرية الجميلة) الى الشمال من شيزر - وربما في عهده قد بني حصن الجسر - رغم ان خلفه أكد بانه هو الذي بناه (٢) . ويصف اسامة جد جده هذا بانه تمتع بنفوذ كبير في حلب ، وخدم عنده الطبيب الشهير ابن بطلان ورجف امامه خوفاً

---

١ - ابن خلكان ، وفيات الاعيان . جـ II ، ص ١٧٣ - ١٧٦ ؛ و جـ I ، ص ٥٢٣- ٥٢٤ .

٢ - انظر فيما بعد .

منه[1] .

لقد ملك مقلد المنطقة الواقعة على طرفي العاصي من كفر طـاب إلى شيزر ، لكنه لم يتمكن حتى نهاية حياته (مات في عام ٤٥٠/١٠٥٨) من التمركز في شيزر ذاتها . كما لم يتمكن من ذلك أيضاً ابنه ووريثـه علي إلا في أواخر أيام حكمه وحياته . وكان مقلد هذا مخلصاً قـوياً سعى جاهداً للاستقلال السياسي ، وناور بدهاء مع المرداسيين والفاطميين[2]

---

١ ـ اسامة ، الاعتبار . إصدار درنبورغ ، النص العربي ، ص١٣٦ ؛ إصدار حتي ، ص ١٨٤ ؛ الترجمة الروسية ، ص ٢٧٧ .

قال أسامة : « وكان ابن بطلان ملازماً لخدمة جدي الأكبر أبي المتوج مقلد بن نصر بن منقذ فظهر في جدي أبي الحسن علي بن مقلد بن منقذ ـ رحمه الله ـ ، وضح وهو صبي . فأقلـق ذلك أباه وأشفق عليه من البرص . فأحضر ابن بطــلان وقال له : « ابصر ما قد ظهر في جسم علي » فنظره وقال : « اريد خمسمائة دينار حتى أداويه وأذهب هذا عنه » فقال له جدي : « لو كنت داويت علياً ما كنت رضيت لك بخمسمائة دينار » . فلما رأى الغضب من جدي قال : « يامولاي ! أنا خادمك وعبدك وفي فضلك . ما قلت ما قلته إلا على مبيل المزح وهذا الذي بعلي بهق الشباب وإذا أدرك زال عنه » .

٢ ـ لقب « مخلص الدوله » تلقاه من الخليفة الفاطمي كتقدير لمواقفـه إلى جانب الجيش الفاطمي في سورية .

في نضالهم لامتلاك سورية . فيه قال الشعراء شعرهم . فابن خلكان يورد مرثية ابن أبي حصين التي ألفها في موت مخلص الدولة ـ مقلد . ثم لا بد من ذكر اسم الشاعر ابن سنان الخفاجي في عداد الشعراء الذين مدحوه، كما أنه قال مرثية في موته وموت أخيه أبي المغيث منقذ بن نصر (مات عام ٤٣٩/١٠٤٧) .

أما خلفه علي بن مقلد والذي لقب « سديد الملك » فقد تابع سياسة أبيه إلى أن تمكن في النهاية من امتلاك شيزر والسيطرة عليها . ولهذا يجب الاعتراف بأنه المؤسس الأساسي لامارة شيزر المستقلة ، ولحكم سلالة بني منقذ . هذا هو حديثه الشخصي عن حوادث عام ١٠٨١ كما أورده ابن خلكان :

« شيزر حماها الله تعالى وقد رزقني عزّ وجلّ من الاستيلاء على هذا المعقل العظيم ما لم يأت لمخلوق في هذا الزمان . نظرت الى هذا الحصن فرأيت أنه يتسع لثلاثة آلاف رجل بالأهل والمال ويمسكه خمس نسوة ، فعمدت الى تل بينه وبين حصن الروم ويعرف بالخراص وأخذته بالسيف من الروم ومع ذلك فلما أخذت من به من الروم أحسنت اليهم وأكرمتهم ولم أكلفهم الى مايعجزون عنه وخلطت خنازيرهم بغنمي ، ونواقيسهم بأصوات الآذان . فرأى أهل شيزر فعلي فأنسوا بي ووصل إلي قريب نصفهم فبالغت في إكرامهم ووصل اليهم مسلم بن قريش فقتل من أهل شيزر ، نحو عشرين رجلاً فلما انصرف مسلم عنه سلموا الحصن إلي » .

أما ابن القلانيسي فيكرر إيراد هذا الحديث ذاته مع بعض العبارات

المغايرة ويضيف في النهاية كلام سديد الملك : «وحضرت فيه ومعي سبعمائة رجل من بني عمي ورجالي وأعطيتهم مالاً له قدره وقمت باعيادهم ونواقيسهم وصلواتهم وخنازيرهم وسمع بذلك أهل برزية وعين تاب فجاءني رسلهم ورغب كلهم في الضم إلي »[1] .

بهذا الشكل ، في نضال مرير حاد مع البيزنطيين وقواد حلب العسكريين أخذ سديد الملك شيزر مستعملاً الحرب والسياسة ، وتصالح مع أهلها ، وحصل بفضل هداياه المرسلة إلى حلب على اعتراف حكام حلب بامارته في شيزر بعد أن فكوا حصارهم عنها في ٢٨ صفر ١٠٨٢/٥٧٥ .وانشغل طيلة فترة حكمه في نهاية ذلك العام بتنظيم أمور الامارة التي ضمت وقتها أفاميا ، كفر طاب واللاذقية .

لقد كان سديد الملك داهية فطناً ، حاد الذكاء ، كما كان أيضاً شاعراً حتى ان ابن خلكان قد أورد في كتابه أحسن بيتين شعريين له[2]، وكذلك فانه يمكن العثور على سيرة حياته ومختارات من شعره في خريدة القصر[3].

---

١ ـ ابن القلانيسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣ .

٢ ـ ابن خلكان ، ج I ، ص ٥٢٤ .

٣ ـ الخريدة ، ج I ، ص ٥٥٢ ـ ٥٥٧

ان اشعاره الخاصة[1] وبعض المصادر [2] تصف سديد الملك بانه شخص هادىء صبور ، مترو ، حازم ، ثابت ، وطيد عندما تتطلب الظروف ذلك ، ورجل سياسي ، ذكي ، لطيف ، مقدر للظروف عندمايجبذلك[3]. وبلغ تلك المرتبة من المجد والعزة بفضل معرفته وذكائه الحي ؛ وبهذا كان موصوفاً من قبل العديد من الشعراء ، كأبن الخياط[4] وابن الخفاجي[5] .

---

١ ـ المنازل . ص ٢٣٩ . قال جدي سديد الملك ذو المناقب :

ولست بحيارالعزيمة إن جرت عليه رياح الخطب وهي زعازع
يكر على الاوطان طرفاًموزعاً يلين لها طوراً وطوراً يمانع

٢ ـ انظر مثلا ، ياقوت ، معجم الأدباء . حـ II ، ص ١٨٧ ؛ وابن خلكان . حـ I ، ص ٥٢٣ ـ ٥٢٤

٣ ـ انظر رقم (٢)

٤ ـ أبو عبدالله بن محمد بن علي بن يحيى الثعالبي ، المشهور بابن الخياط الدمشقي الكاتب ، شاعر مشهور توفي في دمشق ، عام ٥١٧ هـ .

٥ ـ الأمير أبو محمد عبدالله بن محمد بن سعيد بن يحيى الخفاجي ، الذي عينه محمود بن مرداس حاكماً على حصن اعزاز وسمه بقطعة خبز بدون ذنب (٤٦٦هـ) لقد تبادل المراسلات الشعرية مع علي بن منقذ .

« لم يعرف أسامة جده علي بن مقلد في حياته ، لكنه شعر بانه مرتبط معه برباط روحي داخلي . لقد كانت عند الحفيد تماماً تلك الروح الحية المضطربة ، بآمال ، وتطامات متنوعة ، وبحب كبير للشعر والأدب[1] .

خلف سديد الملك في حكم شيزر كان ابنه عز الدولة أبو المرهف نصر ، الذي استطاع باخلاص وحب للسلام أن يحفظ استقلالها في حمأة الهزات العنيفة ، والاحداث العاصفة ، والنزاعات الاقطاعية المتتالية التي اجتاحت سورية وقتها . وبسبب الاوضاع العصيبة التي وقعت بها سورية كان مضطراً ان يتنازل عن اللاذقية وأفامية وكفر طاب « الى ملك شاه» السلجوقي ، مبتاعاً بذلك سلاماً مؤقتاً . ولما لم يكن عنده وريث من صلبه (ابن) ، كان لا بد من أن يخلفه أخوه مجد الدين أبو سلامة مرشد ـ أب أسامة (٤٦٠ - ٥٣١ / ١٠٦٨ - ١١٣٧) ، لكنه امتنع عن تسلم السلطة ، وخلفها إلى أخيه الاصغر ـ « « سلطان » قائلا : « والله لاوليتها ، ولأخرجن من الدنيا كما دخلتها »[2] .

لقد كان والد أسامة ، كما تروي ذلك المصادر ، [3] تقياً ورعاً ،

---

1) Derenbourg, H. Le vie de Ousama, p. 16. ـ ١

٢ ـ أبو شامة . جـ I ، ص ١١١

٣ ـ أسامة ، الاعتبار ، إصدار درنبورغ ، ص ١٣٩ وغيرها ، وياقوت معجم الأدباء ، جـ II ، ص ١٩٠ .

لم يرد ان يغير طريقة حياته وعاداته ، فابتعد عن تبعات الرئاسة وأعباء الحكم . خير وصف لحياته قول أسامة : « فأما ماكان بشيزر [من أخبار الصيد . و . ط] فكان مع الوالد ، رحمه الله . وكان مشغوفاً بالصيد لهجاً به وبجميع الجوارح ، وما يستكثر ما يغرمه عليه لفرحته . فانه كان نزهته . فليس له شغل سوى الحرب وجهاد الافرنج ونسخ كتاب الله عز وجل عند فراغه من أشغال أصحابه . وهو ، رحمه الله ، صائم الدهر مواظب على تلاوة القرآن . فكان الصيد كما جاء في الخبر « روحوا القلوب تعي الذكر » . فما رأيت قط مثل صيده وتربيته »[1] ويذكر السمعاني أنه رأى مصحفاً بخط والد أسامة كتبه بماء الذهب على الطاق الصوري[2] ، ويقول عنه ما يلي : « مارأيت ولا أظن أن الرائين رأوا مثله ، فقد جمع إلى فضائله حسن خطه ، وتقدم بحسن تدبيره على رهطه »[3] . فليس من العجب ، والحال هذه مع والد أسامة بصفاته وطبيعته ، أن يمتنع عن الامارة ، ويسلمها الى أخيه الاصغر « سلطان » . ويشير أسامة في مذكراته الى شجاعة والده وصلابته وهدوء أعصابه

---

١ ـ أسامة ، الاعتبار . إصدار درنبورغ ، النص العربي ، ص ١٣٩ ؛ إصدارحتي ، ص ١٩٢ ؛ الترجمه الروسية ص . ٢٨٤ .

٢ ـ بمعنى أنه محضر بصور .

٣ ـ نقل ياقوت عن السمعاني هذه العبارة في معجم الأدباء : حـ I ، ص ٢٢٦ ـ ٢٢٧ ، في تعريفه بوالد أسامة . [طبعة دار المأمون ، ١٩٣٦] . أو معجم الأدباء . حـ II ، ص ١٩٠ (الطبعة المعتمدة من قبلنا) .

وصبره في المعارك حيث يقول : « وكان الوالد رحمه الله كثير المباشرة للحرب وفي بدنه جراح هائلة . ومات على فراشه» [1] .

« وكانا [عمه ووالده ، و . ط] ، رحمهما الله من أشجع قومهما»[2] .

لقد كان قوي الجسم ، عتيداً ، يتحمل الألم تحمل الفارس المقاتل: « فطعن ، رحمه الله ، في ذلك اليوم فارساً وأحرف حصانه وثنى يده برمحه وجذبه من المطعون . فحدثني قال : « حسست شيئاً قد لدغ زندي، فظننته من حرارة الجوشن . إلا أن رمحي سقط من يدي ، فرددتها فاذا قد طعنت في يدي ، وقد استرخت لقطع شيء من الاعصاب » ... « فحضرته ، رحمه الله ، وزيد الجرائحي يداوي جرحه ، وعلى رأسه غلام واقف : فقال : « يا زيدا اخرج هذه الحصاة من الجراح » . فما كلمه الجرائحي . فعاد فقال : « يا زيد اما تبصر هذه الحصاة ؟ وماتزيلها من الجرح !؟ » فلما أضجره قال : « أين الحصاة ؟ هذا رأس عصب قد انقطع » وكان بالحقيقة أبيض كأنه حصاة من حصا الفرات»[3].

---

١ ـ أسامة ، الاعتبار . إصدار درنبورغ ، النص العربي ، ص ٣٨ ؛ إصدار حتي : ص ٥١ ؛ الترجمة الروسية ، ص ١٠٤ .

١ ـ أسامة ، الاعتبار ، إصدار درنبورغ ، النص العربي . ص ٤١ ؛ إصدار حتي ، ص ٥٥ ؛ الترجمة الروسية ، ص ١٠٨ .

٣ ـ أسامة ، الاعتبار ، إصدار درنبورغ ، النص العري ، ص ٣٩ ؛ حتي ، ص ٥٢ ؛ الترجمة الروسية ، ص ١٠٥ .

ورغم أن مرشد قد امتنع عن الامارة ، إلا أنه طوال حياته كان الساعد الأيمن لأخيه سلطان ، آزره في تسيير أمورها في ذلك الوقت العصيب ، حيث توالت على شيزر الهجات الدورية لقبيلة « كلاب » بحلب ، والحشاشين ، والبيزنطيين ، والافرنج . وإضافة الى حذقه ومهارته كان طيب القلب[1] ، وعلاوة على كل هذا كان عرافاً بالتنجيم والفلك[2]. قدم اليه الشعراء من انحاء عدة ليقولوا الشعر في عزه وكرامته، مفتخرين به ومادحينه . وكان نفسه شاعراً[3] ، عبر في شعره عن عاطفته الأبوية

---

١ ـ مثلا : رعى أسرة أحد من قتلهم في لحظة غضب (الاعتبار ، إصدار درنبورغ ، ص ٨٦) .

٢ ـ انظر : الاعتبار ، إصدار درنبورغ ، النص العربي ، ص ٤١ ؛ إصدار حتي ، ص ٥٦ ؛ الترجمة الروسية ، ص ١٠٩ .
« وكان ، [أب أسامة . و . ط] ، رحمه الله ، له اليدالطولى في النجوم مع ورعه ودينه وصومه الدهر وتلاوة القرآن . وكان يحرضني على معرفة علم النجوم فآبي وامتنع . فيقول : « فاعرف اسماء النجوم : ما يطلع منها ويغرب » . فكان يريني النجوم ويعرفني أسماءها » .

٣ ـ معجم الادباء ، ج I ، ص ٢٢٨ ـ ٢٣٠ ؛ المنازل ، ص ٣٦ . انظر نموذجاً من شعره . يقول أسامة : قال والدي مرشد :

←

تجاه أبنائه ، وبخاصة تجاه أسامة . توفي يوم السبت، رمضان ٥٣١هـ [1] وبعد وفاته غادر أبناؤه شيزر حسب مشيئة عمهم أبي المساكر سلطان ، ولم يعد معظهم بعد ذلك اليها .

لقد استلم عز الدين أبو المساكر سلطان إمارة شيزر من عام ١٠٩٨/٥٤٢ الى عام ١١٥٤/٥٤٩ ، وكان رجلا شجاعاً ، سياسياً ومحارباً عنيفاً ، إذ إن شيزر قد تعرضت في عهده للهجمات الحربية العنيفة كما من جانب البيزنطيين ، كذلك من جانب الصليبيين ، لكن شجاعته ، ودعم جميع بني منقذ له من جهة ، وحذاقته وسياسته من جهة ثانية ، كل هذا ساعده على الدفاع عن شيزر ، وحفظها كامارة مستقلة . لقد كانت علاقاته مع أخيه مرشد وأولاده ، وبصوره خاصة مع أسامة، جيدة ، حيث كان يرى في أسامة أمير شيزر المقبل . لكن ما أن رزق ولد ذكر حتى تغيرت جميع علاقاته مع أخيه وأولاده ومع اسامة خاصة ، الذي جلبت له نجاحاته وانتصاراته الشهرة والمجد ، وجعلت منه المنافس الاول

←

ظلوم أبت في الظلم إلا التماديا	وفي الصد والهجران إلا تناهيا
وقلت: أخي يرعى بني وأسرتي	ويحفظ فيهم عهدتي وزماني
فمالك لما أن حنا الدهر صعدتي	وثلم مني صارماً كان ماضياً
تنكرت حتى صار برك قسوة	وقربك منهم جفوة وتناسيا

١ - أسامة ، الاعتبار . إصدار درنبورغ ، النص العربي ، ص ٣٩ .

والجدي لأولاد عمه ، والمهدد الوحيد لمستقبلهم .

وكان عز الدين محارباً خبيراً ، تمتع بالمعرفة والهدوء والروية في حل الامور . يحدثنا أسامة في اعتباره عن حادثة اكتشف فيها عزالدين خبث العدو الحربي ، ونجا من الكمين المدبر له[1] .

أما أيام حكمه في شيزر فتعتبر الفترة الذهبية في تاريخها . ونفسه افتحر بأنه لم يوفر شيئاً من اجل شيزر والدفاع عنها ضد الروم ، والافرنج ، والترك ، والبداة . ودافع عنها بكلمته ، وبكل شجاعة بسيفه . أما في الفترة الاخيرة من حياته فأخذ يهتم بمصير أبنائه الذين

---

١ ـ أسامة ، الاعتبار . إصدار درنبورغ ، النص العربي ، ص ٤٢ ؛ حتي ، ص ٥٧،٥٦ ؛ الترجمة الروسية ، ص ١١٠

قال أسامة : « رأينا سرية من الافرنج ... جاءوا الى باب المدينة قبل أن يفتح . فقالوا للبواب « أي شيء اسم هذا البلد ؟ » ... قال : « شيزر » . فرموه بنشاب من خلل الباب ورجعوا وخيلهم تخب بهم . فركبنا فكان عمي ، رحمه الله ، أول راكب وأنا معه ... فقلت لعمي : « على أمرك آخذ أصحابنا وأتبعهم وأقلعهم وهم غير بعيدين » . قال : «لا» ، (وكان أخبر مني بالحرب) في الشام افرنجي لا يعرف شيزر ؟! هذه مكيدة « ... ودعا فارسين من الجند على فرسين سوابق وقال : امضيا اكشفا تل ملح » وكان مكمناً للافرنج . فلما شارفاه خرج عليهما عسكر انطاكيه جميعه !!.

قلق على مستقبلهم ، وخاف عليهم من تجارب الحياة . وكل هذه الصعاب التي قاساها وعاناها في سبيل حفظ السلطة في الامارة ظهرت عنه بتعبيرات شعرية ، حيث قال القصائد في هذا ، وهذا ما يثبت قدرته الشعرية ، وعبقريته الادبيه كفرد من آل منقذ[1] .

توفي أبو العساكر عام ٥٤٩ / ١١٥٤ ، فخلفه ابنه تاج الدولة ناصر الدين محمد ـ آخر حكام شيزر من بني منقذ ، حيث في أيام

---

١ ـ ابن الأثير ، الكامل . حـ XI ؛ ص ١٤٥،٢٧ ، هذا ماتؤكده قصيدته التي اخترنا منها ما يلي :

قال عز الدين أبو العساكر سلطان :

أبنيّ لست بعالم ما أصنع ... بكم أأجمع شملكم أم أصدع

ماقطع الارحام جاهلكم بما ... أبداه بل كبدي بذاك تقطع

أصبحت أعمى بل أصم بكل ما ... أمسيت أنظر منكم أو أسمع

وأبو كم من ليس ينكر أنه الندب الكمي الألمعي الأروع

ذاد الجيوش برأيه وبسيفه ... عن شيزر فتمزقوا وتصدعوا

قد رد عنها الروم والافرنج والـ ... أتراك والأعراب حين تجمعوا

ولايته حدثت الزلازل المدمرة التي دمرت فيما دمرته شيزر فخليت وأوحشت وأقفرت بعدها .

نعثر في المصادر الادبية والتاريخية على ذكر عدد آخر من رجالات بني منقذ ، الذين عاشوا في بعد عن شيزر ، لكنهم كانوا - أينما وجدوا - من القواد والحكام ، وتركوا آثاراً جيدة وذكراً حسناً [1] .

فعضد الدولة أبو الفوارس مرهف أحد ابناء أسامة ، بقي على قيد الحياة لفترة متأخرة ، وعاش في مصر أميراً « في أيام حكم الأيوبيين ، وكان مقرباً من صلاح الدين وساعده الايمن حتى « صار جليسه ، ونديمه ، وأنيسه »[2] . التقى به ياقوت عام ٦١٢ / ١٢١٥ حيث كان له من العمر ما يقارب ٩٠ عاماً ، وكان مقعداً لا يقوى على المشي . يصفه ياقوت بأنه شيخ هرم صبوزلحدكبير ، جمّاعة للكتب .

---

١ - انظر زامباور ، معجم الانساب . ح I ، ص ١٠٥ . (القاهرة - ١٩٥١) ؛ وابن خلكان . ح I ص ٥٢٣ - ٥٢٤ ؛ ح II ، ص ١٧٣ - ١٧٤ ؛ معجم الادباء، ح II ، ص ١٩٣ - ١٩٤ .

٢ - ياقوت ، معجم الادباء . ح II ، ص ١٧٥ .

ولد أبو الفوارس في عام ٥٢٠ / ١١٢٦ وتوفي ٦١٣/١٢١٦ .

يمكننا القول بشكل عام : أن بني منقذ جميعاً كانوا من السادة الاجواد ، والفرسان الشجعان والشعراء العباقرة . كان الشعر فيهم سليقة عند الرجال كما عند النساء .



رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

أسامة بن منقذ

أيام طفولته وصباه

ولد أسامة يوم الاحد في ٢٧ جمادى الآخرة لسنة ٤٨٨ / ٣ تموز عام ١٠٩٥ في شيزر . ساعة ميلاده تبقى على الدوام بالنسبة له الامــل البارق ، والضوء السعيد في حياته ، رغم أنه منذ ميلاده بدأ يقاسي ، ويتعذب ، فكانت صفحة حياته ـ حسب تعبيره ـ قناعاً قاتماً من الهموم والمتاعب تسطع في وسطها ساعة ميلاده براقة مضيئة(١) . ومن الواضح بمكان أن ولادته كانت مرغوبة ، تلقاها أهله بالفرحة والبهجة ، وعــاش طفولته بسعادة وفرح . ترعرع وربي في أسرة يسيطر عليها نظام الابوه بشكل زائد ، محاطاً برعاية وعناية الاهل والاقرباء والخدم . مربيتـه كانت « لؤلؤة » ، التي خدمت عند جده ، وربت كذلك أباه . « كان لجدي سديد الملك أبي الحسن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ ، رحمـه الله ، جارية يقـال لها لؤلؤة ربت والدي مجد الدين أبا سلامـة مرشد بن علي ، رحمه الله ، فلما كبر وانتقل عن دار والده انتقلـت معه . فرزقني فربتني تلك العجوز الى ان كبرت وتزوجت وانتقلت من

---

١ ـ أسامة الديوان ، ص ٣٤٧ ، الخريدة ، ص ١٢٤ . قال أسامة وهو في سن الاربعين :

قالوا نهته الاربعون عن الصبا	وأخو المشيب يجور ثمت يهتدي
كم ضل في ليل الشباب فدله	وضح المشيب على الطريق الاقصد
وإذا عددت سنيّ ثم نقصتها	زمن الهموم فتلك ساعة مولدي

دار والدي ، رحمه الله ، فانتقلت معي . ورزقت الاولاد فربتهم . وكانت من النساء الصالحات صوّامة قوّامة ... وعاشت حتى قاربت المائة سنة(1) .

العائلة الاقطاعية ، بأجيالها الثلاثة ، والتي ملكت بيدها السلطة ، وحافظت على استقلال المقاطعة غير الكبيرة ـ شيزر ، اهتمت على الدوام بتربية وتنشئة ورثتها الذكور بشكل رجولي كي يكون الواحد منهم قادراً على السلطة والحكم والدفاع عن الامارة . ومن المحتمل ـ في عداد هذا ـ أن أسامة قد ربي كوريث للعرش والسلطة في بني منقذ ، وربي كأمير . ولهذا فان كلاً من أبيه وعمه قد حاول أن يربي فيه صفات الفروسية : القوة البدنية ، القدرة على ركوب الخيل بمهارة ، المهارة الفائقة باستعمال كافة أنواع الاسلحة [وقتها] ، وبشكل رئيسي ، الرجولة ، البطولة الصبر ، الحزم ، هدوء الاعصاب ، التروي والتفكير ، وضبط النفس .

في تربية أسامة كرجل وكأمير ساعد والده وعمه مثلهم الشخصي في البطولة والرجولة ، والشجاعة ، التي كانت حتى من صفات نساء شيزر. وإضافة إلى هذا فقد ساهم كل من التجربة الحياتية ، والظرف التاريخي في تربيته تربية الفروسية هذه ، ولقد هيأت له والدته وجدته وأخته جواً خصباً من المحبة والاخلاص والتضحية .

---

١ ـ أسامة ، الاعتبار . إصدار درنبورغ ، ص ١٣٧ ؛ إصدار حتي ، ص ١٨٦ .

لقد كان لأيام طفولة أسامة وفتوته ـ كما يرى هذا من مذكراته وشعره ـ الاثر الحاسم في تكون شخصيته ، وصفاته وطباعه ، حتى إنه دخل الحياة ـ حياة ذلك العصر ـ كفارس للاسلام ، أديب، وشاعر، وسياسي مجرب خبير ماهر .

المثل العربي يقول : « الرجال يشبهون عصرهم أكثر مما يشبهون آباءهم » . والمفارقة بين صفات أسامة وصفات أبيه كانت أقوى من الحوادث الكبيرة التي تميزت بها بداية القرن الثاني عشر في سورية . مع الاحترام الكامل للأب ، والاعجاب الشديد به ، قد كسب منه أسامة التبعية للاعمال الحربية أكثر من التبعية للزهد ؛ لقد كان عدواً للافرنج أكثر من كونه خطاطاً ؛ رجل حرب وعمل وتأثير وحزم وثبات ، أكثر من زاهد وناسخ للقرآن . رباه أبوه تربية حربية قتالية ، وأشبعه بروح البطولة والرجولة :

« وما رأيت الوالد ، رحمه الله ، نهاني عن قتال ولا ركوب خطر مهما كان يرى في وأرى من اشفاقه وإيثاره لي» . فركب عمي وأبي ، رحمها الله ، ووقفا ، وكل من يصل اليها قد سيراه من خلفهم [خلف الافرنج ، و . ط] ، وجئت أنا ، فقال لي أبي : « اتبعهم بمن معك، وارموا أنفسكم عليهم ، واستخلصوا رهائنكم » . فتبعتهم وأدركتهم بعد ركض أكثر النهار ، واستخلصت من كان معهم وأخذت بعض خيل حمص . وعجبت من قوله : « ارموا نفوسكم

عليهم »[1] .

نعم ! ان الاب لم يمنعه ويوقفه أيضاً عندما أراد قتل أفعى ، رغم أن أسامة كان وقتها صغيراً جداً : « ومرة كنت معه [مع والده.و.ط].. وهو واقف في قاعه داره وإذا حية عظيمة قد أخرجت رأسها على افريز رواق القناطر التي في الدار . فوقف يبصرها . فحملت سلماً كان في جانب الدار أسندته تحت الحية وصعدت اليها ، وهو يراني فـلا ينهاني ، وأخرجت سكيناً صغيرة من وسطي وطرحتها على رقبة الحية وهي نائمة ، وبين وجهي وبينها دون الذراع ، وجعلت أحز رأسها ـ وخرجت التفت على يدي ـ إلى أن قطعت رأسها وألقيتها الى الدار وهي ميتة »[2] .

والوالد وهو يربي فيه الشجاعة والاقدام ، طلب منه الحذروتماسك الاعصاب ، وهكذا فقد لام أسامة مرة عندما هجم على الاسد في لحظة حرجة : « فمارأيته نهاني عن قتال غير ذلك اليوم »[3] .

لقد ملك الامير الفتي قلباً لطيفاً طيباً ، ورأساً حامية عاصفة . وهو طفل قد آزر ضد الظلم والاحتقار . لكن وجدت حوادث ، انتهت

---

١ ـ أسامة ، الاعتبار . إصدار درنبورغ ، النص العربي ، ص ٧٦ ؛ إصدار حتي ، ص ١٠٣ ، الترجمة الروسية ، ص ١٧٤ .
٢ ـ أسامة ، الاعتبار . إصدار دنبورغ ، النص العربي ، ص ٧٩ ؛ حتي ، ص ١٣ ؛ الترجمة الروسية ، ص ١٧٤ .
٣ ـ انظر . هناك أيضاً .

به فيها هذه الثورة العاصفة إلى القساوة والظلم ، حتى إنــه مرة ، لـكي يدافع عن غلامٍ مهان ، يخدم في البيت ، قتل خادماً (١) .

لقد كان حيوياً فعالاً منذ الطفولة ، يدرس برغبة فائقة وحماس منقطع النظير ، وكان محباً للمعرفة والاطلاع بشـكل مدهش عجيب . أخـــذه أبوه ذات مرة مع أخوته الثلاثة للصيد وطالبهم في الطريـق بقـراءة القرآن : « فيوم خروجه [خروج أبيه . و . ط] الى الجبل لصيد الحجل وهو بعيد من الجبل يقول لنا إذا خرج الى طريـق الجبـل : « تفرقوا . كل من عليه قراءة يقرأها » . ونحن أولاده حفاظ القرآن . فنفترق ونقرأ حتى يصير الى مكان الصيد يأمر من يستدعينا فيسألنـا كم قرأ كل واحد منـا . فاذا أخبرناه يقول : « أنا قـرأت مائة آية أو نحوها» (٢) .

لقد حفظ أسامة عن ظهر قلب ما يقارب (٢٠/٠٠٠) بيت من الشعر لشعراء مختلفين .

لا يمكن للاهل أن يكونوا معلمين قساة مع أولادهم ، ولقـــد وعى والد أسامة هذه الحقيقة ، ولذا حاول ، وبسرعة ، أن يجد لابنه معلمين آخرين . فاستقدم من أجل تربيته الادبيه العالمين الشيخين : أبـا

---

١ ـ أسامة ، الاعتبـار . إصدار درنبورغ ، النص العربي ، ص١٧ .

٢ ـ أسامة ، الاعتبار . إصدار درنبورغ ، النص العربي ، ص ١٤٦؛ الترجمة الروسية ، ص ٢٩٦ .

عبدالله [ابن المنير] ، وأبا عبدالله [الطليطلي] ـ عالم القواعد . لقد درس أسامة مع الأخير القواعد لمدة عشر سنوات ، وكتب عنه : « وكان في النحو سيبويه[1] زمانه . قرأت عليه النحو نحواً من عشر سنين وكان متولي دار العلم بطرابلس فلما أخذ الافرنج[2] طرابلس نفذ الوالد والعم ، رحمهما الله ، استخلصا الشيخ أبا عبدالله هذا » ويانس » الناسخ . وكان قريب الطبعة في الخط من طريقة ابن البواب »[3] . قدر أسامة واحترم معلمه الطليطلي ، الذي عرف وقتها ، حفظاً عن ظهر قلب ، عدداً من كتب القواعد الشهيرة آنئذٍ . لكن الطليطلي ـ كما يصفه أسامة في كتابه الاعتبار ـ كان مشغولاً بنفسه وعلمه أكثر مما كان مشغولاً بطالبه ، في حين أن ابن منير نمى في أسامة حب الأدب ، والبلاغة ، والبديع ، والشعر ، وعلاوة على هؤلاء فقد كان بيت آل منقذ مكان التقاء الأدباء والشعراء ، الذين جاؤوا إلى هنا مادحين بيت الأمراء ، طالبين منهم الرعاية والعناية والمؤازرة ، واجدين عندهم ، وعلى الدوام ، كرم الضيافة والهدايا .

---

١ ـ سيبويه : رجل القواعد العربي الشهير [توفي حوالي ٧٩٦] .

٢ ـ حدث هذا في عام ١٩٠٩م

٣ ـ أسامة ، الاعتبار . إصدار درنبورغ ، النص العربي ، ص ١٥٣؛ حتي ، ص ٢٠٨ لقد أخطأ I. sehen عندما أكد أن أسامة أمضى عشر سنوات في طرابلس دارساً القواعد العربية عند الطليطلي . انظر :

Journal of Semitic studies, Vol. XVII, No 2, 1972, p. 221.

لم يتمكن «سلطان» من إعطاء تربية أسامة ـ ابن أخيه الكثير من وقته وانتباهه ، ذلك لأنه كان مشغولاً بأعماله الحربية الدفاعيـــة ، لكنه رغم هذا ـ لم يكن مرتاحاً لتضييـع أسامة وقتـه في تمرينـات القواعد ـ قواعد اللغة ، وفي الشعر [وبالمناسبة فان الشعر بالنسبة لسلطان كان مقبـــولاً كتسليـــة بعد المعارك الحربية] ، إن وجود القلم مكان السيف في يدي أي شاب صحيـح الجسم معافى من بني منقذ كان بالنسبة للأمير سلطان علامة سقوط الامارة . وبالاضافة إلى هذا فان طبيعة أسامة الحارة الحركية لم تقتنع وترتوي فقط بتلك «الضربات» التي يضربها زيد لعمر : [المثل القواعدي الكلاسيكي المشهور : ضرب زيد عمراً وغيره] ، وكذلك فان الصيد ، واهتمام أسامة به ، لم يكن المتنفس الكافي لجميـع نشاطه وحيويته .

لقد قرر العم ، وهو عالم بقدرة أسامة وإمكانياته وطبيعته ، أن يوجهه الوجهة الحربية ويدب في نفسه تعشق هذا الاتجاه . كان أسامة ـ البطل الفتى محتاجاً وبصورة أساسية إلى النصيحة الهادئة الصبورة . لكنه افتقر إلى إمكانية ضبط نفسه وحماسته ، إلى إمكانيـــة وعي واستيعاب تكتيك انعكاسات هجوم الأعداء . « قلت : كان عمي عز الديـن ... يتفقد مني حضور فكري في القتال ، ويمتحنني بالمسألة . فنحـن يوماً في بعض الحرب ... فقال لي عمي : وأي شي « نفذت تقول لي ؟ » قلت : « نفذت أقول لك تقدم بالرجالة فقد كسرناهم » فقال : « مع من نفذت إلي ؟ ؟ قلت : « مع رجب العبد . » قال : « صـدقت . ما أراك إلا

كنت حاضر القلب ، ما أدهشك القتال » .[1]

كان عم أسامة سعيداً جدا عندما يتمكن أسامة من ضبط نفسه ، ومن الهدوء في وقت المعركة والقتال ، قانعاً بالنصائح الحكيمة للكبار . واستطاع أسامة أن يلين طباعه ، مما كان حكماً في صالحه هو أكثر من غيره .

إن النسوة المحيطات بأسامة ، ومنذ الصغر ، قد ربين فيه الرجولة والبطولة ، حيث إن أوضاع النساء في شيزر وقتها أعطتهم سلطة كبيرة في تربية أبنائهن .

أما الزواج فكان يستقبل في شيزر باحتفال كبير ؛ ولادة الأطفال، وبخاصة الذكور كانت بالنسبة لآل منقذ وكأنها هبة من الله ودلالة على رضائه ورحمته . عن أمه وجدته كتب أسامة ما يلي : « ولعمري إنهن أمهات الرجال » . وكانت الزوجة مثال الفروسية والبطولة والاحترام والتقدير ، ومحاطة بكل مظاهر الاهتمام والانتباه . أما أسباب الطلاق في شيزر فقد اقتصرت على السلوك الشاذ وعدم الخصب والانجاب .

وكان الحدث الهام في شيزر عندما تلد الزوجة ولداً ذكراً ، أكثر من مرة ـ في أصعب الأوقات وأحرجها ـ جدة أسامة لأبيه ،

---

١ ـ أسامه ، الاعتبار ، إصدار درنبورغ ، النص العربي ، ص ٧٥ ؛ الترجمة الروسية ، ص ١٧٤ .

البالغة من العمر مئة عام أبعدت عنه الخطورة ، ونجته من الضلال وأعطته الحكمة والعظة . وبعين المحبة الزائدة ، وبحذق ومهارة فتحت عينيه على نوايا عمه تجاهه ، وعلى الأخطار المحيقة به[1] . ولقد فضلته ، وعلى الدوام، على ابنها ، من صلبها - سلطان . أما أمه وأخته فقد شاركتا في الحرب ، كي يرفعا من همة المحاربين ، ويحثاهم ، ويدبا في نفوسهم الشجاعة والاقدام .

بعد واحد من هجوم الاسماعيليين على شيزر عام ١١٠٨ ، عاد

---

١ - أسامة ، الاعتبار . إصدار درنبورغ ، النص العربي ، ص ٩٣ ؛ إصدار حتي ، ص ١٢٦ .

قال أسامة : « وحملنا الأسد ودخلنا البلد العشاء ، وإذا جدتي لأبي ، رحمها الله ، قد جاءتني في الليل وبين يديها شمعة - وهي عجوز كبيرة قد قاربت من العمر مائه سنة . فما شككت أنها قد جاءت تهنئني بالسلامة وتعرفني مسرتها بما فعلت . فلقيتها وقبلت يدها فقالت بغيظ وغضب : « يا بني ، ايش يحملك على هذه المصائب التي تخاطر فيها بنفسك وحصانك وتكسر سلاحك ويزداد قلب عمك منك وحشة ونفوراً ؟» . قلت : « ياستي ، إنما أخاطر بنفسي في هذا ومثله لأتقرب إلى قلب عمي » . قالت : « لا ، والله ، ما يقربك هذا منه وإنه يزيدك منه بعداً ويزيده منك وحشة ونفوراً » . فعلمت أنها ، رحمها الله ، نصحتني في قولها وصدقتني . ولعمري إنهن أمهات الرجال » .

أسامه إلى البيت ، وهو يبحث عن محاربيه والأسلحة ، ليرى أخته وأمه يرقبان المعركة من الشرفة . لقد كانت أمه قد صممت أن تلقي ابنتها من أعلى الشرفة لتموت ، كي لاتراها أسيرة في يد العدو :

« في ذلك اليوم فرقت والدتي ، رحمها الله ، سيوفي وكزاغنداني. وجاءت إلى أخت لي كبيرة السن وقالت : « البسي خفك وإزارك » . فلبست وأخذتها إلى روشن في داري يشرف على الوادي من الشرق أجلستها عليه وجلست إلى باب الروشن . ونصرنا الله سبحانه عليهم . وجئت إلى داري أطلب شيئاً من سلاحي ماوجدت إلا جهازات السيوف وعيب الكزاغندات . قلت « يا أمي ، أين سلاحي ؟ » . قالت « يا بني ، أعطيت السلاح لمن يقاتل عنا . وما ظننتك سالماً » . قلت : « فأختي أي شيء تعمل هاهنا ؟ » قالت « يابني ، أجلستها على الروشن وجلست برا منها . وإذا رأيت الباطنية قد وصلوا الينا دفعتها رميتها إلى الوادي فأراها قد ماتت ولا أراها مع الفلاحين والحلاجين مأسورة » . فشكرتها على ذلك وشكرتها الأخت وجزتها خيراً . فهذه النخوة أشد من نخوات الرجال »[1] . « وتلثمت في ذلك اليوم عجوز من جواري جدي الأمير أبي الحسن علي ، رحمه الله ، يقال لها فنون . فاخذت سيفاً وخرجت الى القتال ومازالت كذلك حتى صعدنا وتكاثرنا عليهم . وما ينكر

---

١ ـ أسامة ، الاعتبار . إصدار دنبورغ ، النص العربي ، ص ٩٢ ؛ حتي ، ص ١٢٤ ، ١٢٥ .

للنساء الكرام الأنفة والنخوة والاصابة في الرأي »[1] .

حياة النساء هذه ، الموصوفة باعجاب مدهش من قبل أسامة ، كانت وكأنها انطباعاته منذ الطفولة عن الحياة ، مما ترك في ذاته أثراً كبيراً ، ونمى في نفسه التعلق بالأهل ، وبمسقط الرأس (وطنه) في جميع مراحل حياته .

إذا كان نشاط أسامة وحيويته ، طباعه وصفاته ، مستوى تفكيره وإتساعه ، إذا كان كل هذا ـ في الغالب ـ قد تطور بتأثير الأب والعم ، فان قلبه ومنذ الطفولة تنعم بلطافة أشعة حب نساء شيزر له ، وبخاصة لطافة ورقة الأمومة . لقد كانت لأسامة طبيعة حية وثابة ؛ كان يقفز في أيام الطفولة على الجدران ، يتسلقها ، والكل تشابه في الاعتقاد بانه أكثر الأطفال حيوية ونشاطاً . وكان ـ غالباً ـ شاهد عيان للمؤتمرات العائلية التي جلبت له تصورات كبيرة تفوق عمره الزمني .

في عام ١٠٩٩ ، عندما عاد الخيالة من الصيد ، وأخبروا بقرب قدوم الافرنج ، وجلس الجميع من آل منقذ يفكرون بروية في الامر ، فجأة ، في قلب هذا الصمت المفكر صدح صوت أسامة قائلاً ما معناه : دعوا التفكير بهذا ، دعوهم يأتوا فاننا سنقتلهم » .

---

٢ ـ أسامة ، الاعتبار . إصدار درنبورغ ، النص العربي ، ص ٩٢ ؛ إصدار حتي ، ص ١٥٢ .

لقد سئم أسامة البقاء مدة طويلة في مكان واحـــد ، وحاول الرحيل إلى جهة ما ، لكن شيئاً ما غير معروف كان يشده إلى شـيزر رغم أحلامه بالعيش في أرض جديدة ، وبالتعرف على أناس جدد . نقطة البداية في عذابه ومشاكله الحياتية كانت تتمثـل في امتناع أبيـه عن الامارة ورئاسة شيزر ، وانتقال هذه الامارة إلى عمـه وأبنـاء عمـه . ولذا غدا تابعاً لعمه ، وكثيراً ما عانى من هذه التبعية . تعشقه المجـد وكبرياؤه لم يقتنعا بتلك النجاحات التي كان يحرزها في الصدامات الحربية. رغم إن هذه الصدامات في الواقـع قد أوجدت متنفساً لبعض حيويته ، التي كانـت متجـددة على الدوام ، ودفعتـه ، وباستمـرار للطمـوح والتوثب .

حاول أسامة أن يملأ الحياة الفارغة في شيزر والوحدة ، بالأعمال والأبحاث الأدبية ، فلقـد وصلت إلينا بعض محاولاته الشعرية الأولى ، التي، وباهتمام بالغ قد اصطفاها واختارها . لكن الفضل في مجده الأدبي الخالد إنما يعود لأعماله ومؤلفاته وهو شاب ناضج .

لقد حافظ أسامة على نشاطه وحبه للحياه في كل شـيء : في الصلوات في الحملات الحربية والمعارك ، في التغلب على المصاعب والعقبات ، على الآلام والمتاعب . وكان قوي النفس والجسم ، نادراً ما مرض (هكذا فى إنتقاله إلى شيزر أصيب بالزكام ومرض)[1] ، وبسرعة يشفى بعدمرضه.

---

١ ـ أسـامـة ، الاعتبار . إصـدار دونبورغ ، النـص العـربي ، ص ١٣٧ .

والروح الأبية الشامخة لم تغادره لآخر حياته الطويلة (عاش ٩٣ سنة شمسية) .

أسامة ـ فارس شيزر الشجاع ، « شمس زمانه الساطعة »[١] ، كان طويل القامة[٢] فارعها ، مستقيم الجسم ، جميل المشية ، رائع القوام. بشرته بيضاء ، رغم وجود ما يشير إلى أن بعض أبناء كنانة كان أسود البشرة[٣] . وبالاضافة إلى هذا لا توجد أدلة على أن أحداً من بني منقذ المنحدرين من كنانة كان أسود البشرة . إن ب . لا جارد يشير في عمله العلمي إلى أن أسامة كان رجل نكتة وفكاهة ، كثيراً ما تحضره البديهة ، ويسرع إلى التشبيهات المضحكة ، والنكته الذكية .[٤] .

هذا هو الجو التربوي الذي أحيط به أسامة ،وترعرع ، وتربى:

---

١ ـ من شعر ابن القيسراني عن أسامة .

٢ ـ ابن القيسراني يرى أنه كان معتدل القامة .

٣ ـ أسامة ، الاعتبار . إصدار درنبورغ ، النص العربي ، ص ١٠٧

٤ ـ درنبورغ يقتبس من .... Cottingische

« من صفات أسامة استقباله اللطيف الرقيق للشيء المضحك » . و « شعور الفكاهة الذي يظهر في الالفاظ المفردة والتراكيب ، وفي الصورة الكاملة » قد لاحظه إ . ي . كراتشكوفسكي . انظر . المقدمة لكتاب الاعتبار ، الترجمة الروسية ، الاصدار الثاني ، ص ٣٨ .

من رعاية الأب والعم ، وتربية الأساتذة الذين استقدموا خصيصاً لتنشئته على عادة الأمراء آنئذٍ ، ومن جو نسائي شجاع كريم بذر فيه بـذور الشجاعة والاقدام ، وخوض المخاطر ، والتفكير بالعواقب ، والعزةوالاباء. أضف إلى كل هذا الجو الأدبي والحربي في شيزر ـ الذي كان المدرسـة الكبرى والأعم والأشمل التي تخرج منها أسامة ، مدرسة الحياة التي ربت فيه ، وطورت ، ومنذ الصغر ، الحب إلى الوطن ـ إلى شيزر .



رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

حياة أسامة في شيزر

(٤٨٨ - ٥٣٣ / ١٠٩٥ - ١١٣٨)



التحضير والتمرن على الأعمال الحربية ، الصيد مع الأب على الحيوانات الوحشية المفترسة ، والتعلم ، بكل هذا كانت مفعمة حياة أسامة - « فارس الاسلام »[1] - في شيزر . شارك في المعارك وهو فتى يافع ، ولم يخش مرة الصعاب والمخاطرة . نفسه يتذكر هذا ويسجله قائلاً : « فلا يظن ظان أن الموت يقدمه ركوب الخطر ، ولا يؤخره شدة الحذر ، ففي بقائي أوضح معتبر . فكم لقيت من الأهوال ، وتقحمت المخاوف والأخطار ، ولاقيت الفرسان ، وقتلت الأسود ،وضربت بالسيوف ، وطعنت بالرماح ، وجرحت بالسهام والجروح - وأنا من الأجل في حصن حصين - إلى أن بلغت سن التسعين . لقد حاربت من سن الخمسة عشر إلى سن التسعين ».[2]

إننا لا ندري التاريخ الأكيد لمشاركة أسامة في المعارك ضد الصليبيين . ففي مكان من كتابه الاعتبار يكتب : « ومثل ذلك ماجرى لي على أفامية. فان نجم الدين بن إيلغازي بن أرتق ، رحمه الله ، كسر الافرنج على البلاط ، وذلك يوم الجمعة خامس جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة وخمسمائة [١٤ ب ١١١٩ . و . ط] وأفناهم وقتل صاحب

١ - أمين . أ . ، فارس كنانة ، ص ١٢ .
٢ - مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، ح X ، ص ٢٣٠ ؛ الاعتبار، إصدار حتي ، ص ١٦٣ .

انطاكيه روجار وجميع فرسانه . فسار اليه عمي عز الدين أبو العساكر سلطان ، رحمه الله ، وتخلف والدي ، رحمه الله ، في حصن شيزر ، وقد أوصاه أن يسيرني الى أفامية بمن معي بشيزر من الناس ... وسرت في نفر قليل ما يلحق عشرين فارساً ... ثم استقبلت خيلهم المتتابعة فولوا وأنا غر في القتال ما حضرت قتالاً قبل ذلك ...»[1]

وفي مكان آخر يقول : « وجاءنا دنكري[2] (تانكرد) في عسكر انطاكية ، فقاتلنا عند سور المدينة ، وأنا صبي[3] ، وهو أول يوم رأيت فيه القتال »[4] .

وربما كان من المحتمل هنا أن أسامة يريد أن يقول بأنه منذ عام ١١١٠ شارك في المعارك ، وفي عام ١١١٩ ولأول مرة ترأس

١ ـ أسامة ، الاعتبار . إصدار درنبورغ ، النص العربي ، ص ٢٩ ـ ٣٠ ؛ إصدار حتي ، ص ٤٠ ـ ٤١ ؛ الترجمة الروسية ، ص ٨٨ ـ ٨٩ .
٢ ـ تانكرد ـ ابن أخت بيموند ـ حكم انطاكية من ١١٠٤-١١١٢ . وبيموند أمير نورماندي شارك في الحملة الصليبية الأولى . توفي عام ١١١١ .
٣ ـ في ربيع ١١١٠ كان عمر أسامة (١٥) عاماً .
٤ ـ اسامة ، الاعتبار . إصدار حتي ، ص ٦٦ ؛ الترجمة الروسية ، ص ١٢٥ .

معركة مستقلة (١) .

في عام ٥٠٥/١١١١ وأسامة عمره ١٦ سنة كان في عداد(٥٠٠٠) جندي ، التي خرجت من شيزر ضد تانكرد . لكن درنبورغ يبدي شكوكه في صحة هذا الرقم : « هذه المبالغة العادية للرجل الشرقي لا توافق الواقع . إنني أعتقد بأن هذا الرقم لا يتوافق وعدد السكان في شيزر ، لكنه عدد السكان في أسفل الجبل وعلى شواطىء العاصي (أورونت)(٢) .

إن رأي درنبورغ هنا لا يمكن قبوله دون نقد ، ذلك لأن أسامة مشهور كمؤلف واقعي صادق موثوق ، يقول الحقيقة حتى في تلك الحالات ، عندما لا تكون الحقائق في مصلحته(٣) وزيادة على هذا فقد

---

١ ـ هذا ما يؤكده شعره ، حيث يقول أنه ركب حصان الحرب وعمره (١٥) سنة (انظر . الديوان . ص ٢٠٩) :

لخمس عشرة نازلت الكماة إلى أن شبت فيها ، وخير الخيل ما قرحا

٢ ـ Derenbourg. H., Le Vie d'Ousama, p. 9

٣ ـ هذا ما يشير إليه مثلاً في الاعتبار ، إصدار حتي ، ص ١٥٣ ، خسر رفاقه لقلة خبرته إذ يقول : « وقد جرى لي مرة أخرى مثل هذا . والسبب فيه نفاذ المشيئة ثم قلة الخبرة بالحرب ... ونزلوا [الأعداء . و. ط] من الجانب الآخر بالغنيمة . وعدنا نحن ←

أشرنا سابقاً إلى أن علي بن مقلد قالبان سكان شيزر ٣٠٠٠ رجل مع عائلاتهم ، ويدور الحديث عن هذه ثلاثة آلاف الرجل في كتابه إلى الخليفة المقتدي .

بعد عدة شهور من هذه الموقعة أرسل تانكرد إلى بني منقـــذ فارساً صليبياً كي يقضي بينهم بعض الوقت وهو في طريقه إلى وطنـه . وكان هذا الافرنجي معجباً بأسامة ، بفروسيته ورجولته ، وبمهارتـه في استعمال السيف والرمح .

عقد أسامة العزم على زيارة انطاكية بدعوة من تانكرد ، لكـن ظروفاً غير منتظرة قد حالت دون تحقيق هذا التصميم .

لقد انقضت فتوة أسامه بسرعة وكأنها سحاب خفيف قد تلاشى .

←

وقد قتل منا فارسان وأخذ منا فارسان وأخذ منا ثلثه حصن والقافلة . فهذة تغرير لقلة المخبرة بالحرب » . وفي ص ١٤٤ يورد قصة الضبعة التي آذته ... وها هو يروي قصة الافرنجي العدو الذي يهزم أربعة مسلمين : « وكان بأفاميـة فارس من كبـار فرسانهم [فرسان الافرنج . و . ط] يقال له بدرهوا ... فالتفت فرأى أربعة منا من ناحيته ... فحمل عليهم فهزمهم ... ودخل أولئك النفر إلى البلد فافتضحوا واستخفهم الناس ولاموهم وأزروا بهم وقالوا : أربعة فوارس يهزمهم فارس واحد ؟!! » انظر . الاعتبار ، إصدار حتي ، ص ٦٧ ، ٦٨ .

إنه يتذكر بألم مرير الأيام التي قضاها بدون متعة ، ويأسف لها لأنه شغل فيها سعياً وراء المعالي والأمجاد ، فلم يتمتع بها كأترابه :

وما كنت مغتبطاً بالشباب   وهل كان إلا رداء معارا
ولكنني ساءني فقده   فواهاً له ، أيّ همّ أثارا
ومازلت منذ تردّيته   كخابط ليل أعاني العثارا
أكابد دهراً يشيب الوليد   وهماً يشبّ بأحشائي نارا
فوجدي أني فارقته   ولم أبلُ مايزعمون اختبارا(١)

بعد تأزم الموقف الشديد في العلاقات بين أبي أسامة وعمه توصل بمساعدة الوسطاء عام ١١٢٠ إلى مصالحة فيما بينهما ؛ وعندئذ أسند العم « سلطان » إلى أسامة قيادة فرسان شيزر . غدا أسامة قائد الفرسان واتخذ النسر ذا الرأسين شعاراً له – وربما قلد في هذا البيزنطيين – ، وسافر إلى انطاكيه ليتعرف العدو عن قرب تعرفاً كاملا .

لكن تمر الايام لتوقعه في موقف حرج ، وحالة معقدة ، مع كثير من المصاعب والمتاعب . ويتلخص الموقف فيما يلي : حاكم حلب

---

١ – أسامة ، الديوان ، ص ٢٦٨.[أبلو:أختبر].

تيمور تاش [1] استعان بمساعدة عمه سلطان ، ليكون وسيطه في الاتفاقية، التي بموجبها كان على صاحب حلب أن يطلق سراح بلدوين[2] ، الذي كان في الأسر عنده ، وعلى الأخير ، بالمقابل أن يتخلى لصاحب حلب عن بعض ممتلكاته .

تركزت وساطة سلطان في أن يرسل أسامة وإخوته كرهائن إلى حلب حتى تنفيذ الاتفاقية والوساطة . لكن بلدوين لم ينفذ شروط الاتفاقية . ولهذا فقد بقي أسامة في الأسر مدة ثمانية أشهر إلى أن عمد حاكم حلب الآخر إلى إعطائه حريته وفك أسره[3] . كتب

---

١ ـ خليفه الأرتقي المرديني الغزي ، الذي استلم السلطة بعد وفاة بلق ، حيث كان هناك معتقل بلدوين ؛ لقد حكم منذ ٥١٦ ـ ٥٤٧ / ١١٢٢ ـ ١١٥٢ ، انظر : بوسفورت ، ص ١٦٦ .

٢ ـ بلدوين ـ حاكم (صاحب) عدد من الحصون في منطقة آسيا الصغرى ؛ واحد من جبابرة الصليبيين الأشداء ـ في عام ١١٢٣ كان قد أسر من قبل نور الدولة بلق ، وفي عام ١١٢٤ مات قتلاً .

٣ ـ زكي ، أ . ، في كلامه عن أسامة ، (ص٦٣) يؤكد خطأ أن أسامة بقي في الأسر إلى أن استولى أق سنقار على حلب ،وأطلق سراحه . بالمناسبة أق سنقار كان قد قتل عام٤٨٧/١٠٩٤ .(انظر. أبوشامة . جـ I ، ص ٢٦١) ؛وأسامة كان في الأسرفيعام١١٢٤.

أسامة بهذه المناسبة أشعاراً يفتخر فيها بذاته ، ويشير إلى أن أعـــداءه يهابونه ويخشونه وهو أسير ، وأن السجون لا تحقر الرجل الحقيقي الانسان ، القادر على أعمال البطوله والرجولة :

حبسوك والطير النواطق إنما حبست لميزتها على الأنداد
وتهيبوك وأنت مودع سجنهم وكذا السيوف تهاب في الأغماد
ما الحبس دار مهانة لذوي العلا لكنه كالغيل للأساد

ورغم أن عم أسامة قد امتعض من شعر الكبرياء والفخر هـذا لكنه سكت على مضض ، ذلك لحاجته إلى أسامة ، وإلى خبرته الحربية في قتاله مـــع أعدائه . وازداد فتور العلاقة والجفوة بينهما ، فبمقـدار ما يحرز أسامة انتصارات يخشاه عمه . وبرأينا ، قـــد لعـب الوشاة دوراً كبيراً في زيادة هذه الجفوه بينهما ، ومن المحتمل أن حسدهم وحقدهم قد ازدادا لسبب انتصارات أسامة الحربية ، وعلو شأنه ومكانته : « وانهزم الافرنج الذين جاؤوا من أفامية ، فقال له (لعمه . و . ط.) بعض غلمانه : يامولاي ترى ما فعل ؟ يعنيني . تخلف عنك ، وماســار معك للقاء جيش أفامية».[1] هذا ما يؤكده أبو شامة أيضاً الذي يقتبس قول ابن الأثير : « وسعى المفسدون بينهما فغيروا كلا منهما على الآخر»[2].

---

١ ـ أشامة ، الاعتبار . إصدار درنبورغ ، ص ١١٢ .
٢ ـ أبوشامة . ـ I ، ص ١١١ .

لقد نصحه أبوه بترك أمر الجفوة مع عمه ، ذلك لأنه لم يشأ أن تتكرر مأساة صراع عام ١١٢٠ ، وقالت له جدته : « ولداه أولى منك بقلبه يا أسامة » .

لقد تفجرت الأزمة عندما أعلن سلطان أن شيزر لا تستوعب جميع آل منقذ . ونتيجة لهذا الاعلان كان على أولاد مرشد ، ومن بينهم أسامة ، أن يتركوا شيزر ويعيشوا في ضياعهم ، على أن يلبوا دعوة العم للدفاع عن شيزر متى كان ذلك ضرورياً . حدث هذا عام ١١٢٨ . وبنتيجته عاش أسامة عدداً من الأشهر في قريته ، في منطقة شيزر الريفية، عيشة هادئة ، لا يتكلم عن القصر ، مشغولاً بنظم الشعر ، وبالتعليق على « كتاب البديع » لابن المعتز ، الذي قال عنه أسامة : « كان مؤلف هذا الكتاب عظيماً ولكن أهله ضيعوه » ، وكأنه وجد في ابن المعتز قريباً وندا له للتشابه في مصيبتهما .

وأخيراً ، كان أسامة مضطراً أن يفارق شيزر ـ وطنه الأم ، حيث أصبح بقاؤه فيها لا يطاق ، وقضى (٩) تسع سنوات تقريباً [١١٢٩ - ١١٣٨] في بلاط عماد الدين الزنكي المهدد الوحيد ، والند الأول لسلطة الصليبيين ، يعمل تحت رايته ، ويشاركه في معاركه ، التي قادته إلى أبواب بغداد . إن تصميم الزنكي بالهجوم على سورية لتوحيد كل المنطقة ضد الصليبيين وجد صدى جيداً عند أسامة ، بأفكاره النضالية ، قابلاً أن تقع شيزر تحت سلطة الزنكي بهدف النضال الاكبر ضد الاعداء .

قبل سفر اسامة إلى عماد الدين الزنكي طلب نصح أبيه بقصيدة شعرية مفعمة بالفخر بالاجداد ، والكبرياء ، وشكوى من الجفوة المميته ، ومن علاقته بأقربائه ، راجياً من الوالد السماح له بالسفر بعيداً عن الحساد والوشاة ، عن « وطنه » الذي لاقى فيه الازدراء والاحتقار :

دعني وقطع الأرض ، دون معاشر	كل علي ، لغير جرم ، محنق
تغلي علي صدورهم ، من غيظهم	فتكاد ، من غيظ علي، تحرق
أعيا علي رضاهم ، فيئست من	إدراكه ،ماالنجم شيء يلحق
قد أفسدوا عيشي علي ، وعيشهم	فأنا الشقي بهم، وبي أيضاً شقوا
فضل الاقارب برهم وحنوهم	فاذا جفوني فالا باعد أرفق(١)

١ ـ أسامة ، الديوان . ص ١٢٨ . لقد اخطأ مصطفى حجازي عندما أورد القصيدة في مقدمته لتحقيق « كتاب المنازل والديار » ، مؤكداً بأنها قد كتبت بعد أن توجه أسامة وأخوته من شيزر إلى دمشق . في الحقيقة أنها كتبت عندما توجه أسامة إلى عماد الدين الزنكي في عام ١١٢٩ ، وعلاوة على ذلك فقد توفي أبو اسامة عام ٥٣١/١١٣٧، ورحل أسامة إلى دمشق في عام ٥٣٣/١١٣٨ ، والواضح أنه لم يتمكن حينذاك من طلب السماح بالهجرة من أبيه . كذلك يرى حجازي أن أسامة قد وصل إلى عماد الدين في ←

لقد سمح له والده هجر شيزر ، تاركاً أسرته تحت رعاية أخيه ، طالباً من عمه أن يعطيه بعض الفرسان من شيزر ، لأنه أبى أن يقال إن ابا العساكر وبني منقذ لم يشتركوا في تكوين الجيش الذي عليه أن يكسر الافرنج تحت راية عماد الدين . ونظراً لأن العم قد شاء أن يبعد أسامة ، مهما كان ذلك ممكناً ، فقد أعطاه ما طلبه .

موقف عمه منه ، موافقة الأب على هجره شيزر ، التقاؤه وعمادالدين بوجهات النظر السياسية ، التي تقضي بالوحدة الاسلامية ضد الصليبيين - كل هذا قد قاد إلى أن يتوجه أسامة إلى الزنكي في الموصل، ويعمل تحت قيادته في عام ٥٢٣/١١٢٩ .

لقد كانت علاقة الزنكي مع أسامة جيدة ؛ استقبله استقبالاً حاراً، وأقطعه إقطاعاً بالموصل ، وغدا منزله فيها موطناً للشعراء والكتاب . عندما عين عماد الدين صلاح الدين الغسياني أميراً على كفر طاب ، بقصد إبعاده عنه ، حيث إن الاخير حسب قول أسامة :

←

الموصل عام ٥٢٩ هـ ، لكن أسامة في كتابه «الاعتبار» [ص١١١] يذكر أنه في هذا العام نفسه قد اشترك والزنكي والغسياني في حصار دمشق . ثم في عام ٥٢٥/١١٣٠ وهو موجود في الموصل ، قد شارك في التحضير لحملة أخرى ، وفي عام ٥٢٦ / ١١٣١ - ١١٣٢ شارك عماد الدين في الموقعة في تكريت .

« لا يخاف عماد الدين ولا يخاف الله »[1] ؛ الفسياني بدوره قد عين أسامة قائداً لجيشه ، رغم أنه شاركه في جميع المعارك ، كيلا يفوته شرف النصر . أراد أسامة أن يكون قريباً من شيزر ، وقضى حياته في هذه المرحلة بين الموصل وكفر طاب ، وشارك في حصار دمشق .

في كل مرة يمر فيها أسامة بالقرب من شيزر . يعرج يوماً أو يومين على وطنه شيزر ، وبخاصة على أبيه ، ثم يتابع طريقه ثانية . لقد أفسدت عليه حياته من قبل الوشاة الذين أوغروا صدر أبيه عليه[2]. ولقد كتب أسامة بهذا شعراً ، محاولاً أن يبرر موقفه أمام والده :

وبعد مالي ، فاشفاقي يهددني　　بشوب رأيك بالتكدير والرنق
وأن قلبك قد رانت عليه ، من الواشين بي ، جفوة بها كالغسق
أما كفاهم نوى داري، وبعدك عن　　عيني، وفرقة إخوان الصبا الصدق
وأنني كل يوم قطب معركة　　دريئة السمر والهندية الذلق
وموضعي منك لا تسمو الوشاة له　　ولا يغيره كيسي ولا حمقي[3]

أسامة ، وهو في الغربة ، تارة في سورية ، وأخرى في العراق ،

---

١ ـ أسامة ، الاعتبار . إصدار درنبورغ ، النص العربي ، ص ١١٦
٢ ـ في تاريخ حياة أسامة لا توجد إشارة إلى انزعاج والده منه .
٣ ـ أسامة ، الديوان . ص ١٢٩ .

يحن إلى أبيه ، ويرسل له التحيات والاحترام ، ويتبادل معه المراسلات الشعرية :

قال أسامة :

لا تفسدن نصيحتي بشقاق وأبيك ما السلوان من أخلاقي
وأبلغ تحية نارح قذفت به أيدي النوى في أسحقْ الآفاق
قد كان بالشامي يعرف برهة من دهره ، والآن فهو عراقي
ينزو لذكر أبي سلامة قلبه فيكاد عرق من حشاوصفاق(١)
واهتف به : ياخير من أرجوه للأواء(٢) أو أدعوه يوم تلاق
بي لوعتان عليك يضعف عنهما جلدي : من الاشواق والاشفاق
فالشوق أنت به العليم ، وغالب الا شفاق مما أنت في ملاق
وإذا أخطأتك الحادثات، فكل ما ألقاه محمول على الأحداق(٣)

فأجابه أبوه بقصيدة أولها :

---

١ ـ الصفاق (ككتاب) : الجلد الأسفل تحت الجلد الذي عليه الشعر ، أوما بين الجلد والمصران . أو جلد البطن كله .

٢ ـ اللأواء : الشدة .

٣ ـ أسامة ، الديوان . ص ١٣١ .

أتظن أني بعد بعدك باقي — أجزي عن الأشواق بالأشواق

يقول فيها :

أأبا المظفر دعوةً تشفي الظما — مني ، وإن أضحى بها إحراقي

لم أستكن أبدا لخطب نازل — إلا لبعدك ، فهو غير مطاق

فاذا أطعت الوجد فيك أطاعني — قلبي ،ويبدي،إن عصيت ،شقاقي

فاذا ذكرتك خلت أني شارب — ثمل، سقاه من المدامة ساق(١)

إن شعر الاب مملوء بكل مشاعر الشوق والحنين ، وألم الفـراق للابن .

لقد حارب أسامة تحت راية عماد الدين الزنـكي إلى أن كان مضطراً للعودة إلى شيزر ، ليدافع عنها ضد جيوش بيزنطة والصليبيـين المتحدة في عام ٥٢٣/١١٣٨ .

تابـع الامبراطور البيزنطي جاك كومنيوس (١١١٨-١١٤٣) سياسة سلفه ألكسيس كومنيوس الموجهة لتوسيـع رقعة سلطة بيزنطة في آسيا وسعى لأخذ كيليكيا من الارمن ، وانطاكية من الصليبيين . فبعـد انتصاره فى كيليكيا وجه اهتمامه إلى انطاكيه ، لكنه لما لم يتمكن من امتلاكها سلمياً ، قرر أخذها عنوة بالقوة . ولذلك هاجمها في آب١١٣٧،

---

١ ـ أسامة ، الديوان . ص ١٣٣

فتوجه حاكمها ريموند دي بواتيه لطلب المساعدة من « فولك » ، حاكم بيت المقدس . لكن فلك لم يتمكن من تقديم المساعدة له لأنه كان مشغولاً بالقتال ضد عماد الدين الزنكي . ولم يبق لريموند غير عقد هدنة مع الامبراطور البيزنطي . لقد نصت اتفاقية الهدنة بينهما على أن تهاجم بيزنطة سورية لمساعدة ريموند ، وبمساعدة الأمراء الأوروبيين الصليبيين الأخر ، لأخذ شيزر من بني منقذ ، وحمص - من صاحب دمشق ، وحلب - من عماد الدين ؛ ومقابل حكم ريموند لهذه المناطق بعد الاستيلاء عليها ، يجب أن يتنازل عن انطاكية لبيزنطة .

لم يقدر عماد الدين خطورة هذا الاتفاق ، وتابع قتاله مع دمشق، فاجتمع المتحدون قرب شيزر ، وهاجموها . واضطر سلطان بن منقذ أن يطلب مساعدة عماد الدين ، واندفع أسامة للدفاع عن وطنه - شيزر . لقد كانت قوى المتحدين كبيرة جداً ، لذا لجأ عماد الدين إلى الخدعة ، فقرر أن يوقع بين البيزنطيين ، والفرنج والصليبيين . وكان له النجاح في هذا فقرر امبراطور بيزنطة التراجع . هذا ما يصفه أسامة مفصلاً في كتابه «الاعتبار» .(١)

ترك عماد الدين شيزر تحت سلطة سلطان بن منقذ ، أما أسامة فقد حار في أمره : أيتابع النضال تحت لواء عماد الدين ضد الصليبيين!؟ أم يبقى مع أولاده وزوجته الذين حرموا من رعاية أبيه ، حيث كان قد توفي منذ قرابة عام [٥٣١/١١٣٧]؟ لكن القرار في مصلحة العائلةومسقط

١ - أسامة ، الاعتبار . إصدار درنبورغ ، النص العربي ، ص ٨٣.

الرأس قد غلب المشاعر الوطنية (القومية تجاوزاً) ، والنضال ضد الصليبيين. وقرر ترك عماد الدين والبقاء في شيزر ، شاغلاً وقته في صيد الاسود ، آملاً أن تمكنه بطولاته وانتصاراته من أخذ حب عمه ، متناسياً ما قالته جدته سراً عن عمه (انظر . أعلى ، ص ٧٠)[1] .

ورغم صعوبة فراق مسقط الرأس كان أسامة مضطراً فيما بعد أن يترك شيزر . لم يعلم في البدء إلى أين يتجه : أإلى الموصل ؟! إلى عماد الذي كان قد هجره منذ عام ؟! أم إلى أية جهة أخرى ؟! وأخيراً قرر السفر إلى دمشق ، وبوصوله دمشق تبدأ عنده مرحلة حياة جديدة .

١ ـ أسامة ، الاعتبار . إصدار درنبورغ ، النص العربي ، ص ٩٣ . أبو شامة . (حـ I ، ص ١١٢) يقول اعتماداً على كلام ابن الاثير : أن هذه الالفاظ قالتها والدته ؛ وأن انتصارات أسامة الصيدية كانت سبب خروجه من شيزر إلى الابد .

رَفْعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

أسامة في دمشق

(٥٣٣ - ٥٣٩ / ١١٣٨ - ١١٤٤)



يصف أسامة قدومه الاول إلى دمشق على الشكل التالي: «فاقتضت الحال مسيري إلى دمشق ، ورسل أتابك [عماد الدين . و . ط] تتردد بطلبي إلى صاحب دمشق . فأقمت فيها ثماني سنين(1) ، وشهدت فيها عدة حروب ، وأجزل لي صاحبها(2) ... العطية والاقطاع ، وميزني بالتقريب والاكرام ـ يضاف ذلك إلى اشتمال الامير معين الدين(3) ،رحمه الله عليّ، وملازمتي له ، ورعايته لأسبابي »(4) .

قدم أسامة إلى دمشق في أواخر عام ١١٣٨ حيث كان الحاكم الاسمي لها شهاب الدين محمود البوري ، الذي استلم السلطة بعد أن قتل الاسماعيليون أباه (وهو نفسه فيما بعد كان قد قتل من قبلهم في عام

---

١ ـ في عام ٥٣٢ هـ لما حاصر جان كومينيوس شيزر كان أسامة فيها ، وفي عام ٥٣٩ هـ نجده في مصر ؛ لذا علينا أن نفترض أن إقامته في دمشق لم تمتد أكثر من (٧) سبع سنوات قمرية .

٢ ـ شهاب الدين محمود ـ أتابك دمشق من سلالة البوريين ، حكم من ١١٣٧ ـ ١١٣٩ .

٣ ـ الامير معين الدين أنر (أُنُر . في ديوان أسامة) ـ أول وزير بدوي . مات عام ١١٤٩ .

٤ ـ أسامة ، الاعتبار . إصدار درنبورغ ، النص العربي ، ص ٣ ؛ الترجمة الروسية ، ص ٤٦ .

١١٣٩) . لكن الحاكم الفعلي كان الوزير معين الدين أنَر[1] . وبعد وفاة شهاب الدين انتقلت السلطة إلى أخيه جمال الدين ، وبسرعة إلى مجيد الدين . وفي هذه الاثناء كان عماد الدين قد استولى على بعلبك في في عام ١١٤٠ ، وهدد دمشق . لقد كان أنر سياسياً لامعاً . فبعدالمشاورة مع أسامة قرر أن الطريق الوحيد للدفاع عن دمشق ضد عماد الدين ـ هو الاتحاد والاتفاق مع الصليبيين وبنشاط وحماس دخل أسامة في النضال ضد عماد الدين ـ صديقه القديم . كان على أسامة مهمة عقد الاتفاق (الاتحاد) مع الفرنجة ، فسافر لاجل ذلك إلى فولك الخامس ـ ملك القدس ، الذي أصبح رئيس المملكة بعد وفاة حميه (أب زوجته) بلدوين الثاني[2] في ١١٣١ ، للنقاش في إمكانية إقامة اتحاد ضد الزنكي.

لم ينس فولك الخامس الخدمة التي أداها بنو منقذ لحميه ـسابقاًـ ، ولهذا بحرارة ، كان قد استقبل أسامة الذي استطاع بفضل هذا أن ينفذ المهمة التي كلف بها بنجاح . أعطى أسامة صورة عن الموقف في دمشق ، مؤكداً أن في يد الزنكي الموصل ، حلب ، حماة ، حمص ، وبعلبك ، وإذا استولى على دمشق فسيكون هذا تهديداً كبيراً للفرنجة ، ذلك لأن سلطة عماد الدين في سورية ستعظم . لقد عقدت الاتفاقية لصالح الطرفين، وجاء فيها ما يلي : الفرنجة يقدمون قوة حربية ، ودمشق تدفع لهم

---

١ ـ في الترجمة الروسية « لكتاب الاعتبار » ، وفي مقدمة ديوان أسامة يسمى (أُنُر) .

٢ ـ زوجة فولك الخامس كانت ابنة بلدوين الثاني .

مقابل ذلك (٢٠ الف بيزنت شهرياً) ، وبقوتها الذاتية تحتل بانياس[1]، وتأخذها من الزنكي . كان الاتفاق من وجهة نظر حكام دمشق مربحاً، أما أن يكون الاتفاق صحيحاً أو غير صحيح فهذا شيء آخر . وبعد البدء بتنفيذ الاتفاقية تمكن الدمشقيون من دحر جيش الزنكي ، المحاصر لدمشق في رمضان ٥٣٤/نيسان ١١٤٠ ، وأخذوا منه بانياس ، وأعطوها للفرنجة . أما أسامة ، فبفضل جهوده السياسية ، قد علا نجمه عند أهالي دمشق والفرنجة معاً . وتنقل أحياناً بحرية كاملة مع الوزير أنر[2] في مدن الافرنج كطبرية ، وعكا ، وبانياس ، متعرفاً على حياة وعادات الفرسان الفرنجة .

ثم أرسل أسامه أيضاً من قبل معين الدين أنر لعقد الاتفاق مع وزير مصر - رضوان الولخشي[3] ، الهارب من مصر ، والمفتش عن ملجأ في صلخد[4] ، والذي يرغب فيطلب النجدة من عماد الدين الزنكي .

---

١ - بانياس - مدينة في الاطراف الجنوبية من لبنان ، عند منبع نهر الاردن .

٢ - انظر . الاعتبار ، إصدار درنبورغ ، النص العربي ، ص ١٤٢.

٣ - رضوان السيد الأجل الملك الأفضل . كان وزيراً في عهد الخليفة الفاطمي الحافظ من ١١٣٧ - ١١٣٩ .

٤ - صلخد - مدينة في حوران الى الجنوب الشرقي من دمشق .

ان إتحاد رضوان وعماد الدين - فيما لوحدث - يهدد صديق أسامة معين الدين أنر . فكان على أسامة أن يقنع رضوان بعدم الدخول في هذا الاتفاق ، والامتناع عن تنفيذ الوعد بالسفر الى عماد الدين[1] ، وتم الاتفاق على أن يذهب رضوان إلى دمشق ، ويقبض هناك [٣٠٠٠٠ دينار][2] ؛ نصفها دراهم ، ونصفها الثاني منتجات زراعية ، ويعطوه دار العقيقي ، وإمكانية تأسيس ديوان لأصحابه . لكن رضوان خان ذلك ، وعاد إلى مصر ، آخذاً معه جنداً من صلخد .

---

١ - أسامة ، الاعتبار . إصدار درنبورغ ، النص العربي، ص ٢٢-٢٣؛ الترجمة الروسية ، ص ٧٦-٧٧ ويذكر أسامة في « الاعتبار » أن أمين الدولة تكتكين كان في صلخد وقتها . لكن الأتابك تكتكين - مؤسس السلالة البورية في دمشق كان قد توفي عام ١١٢٨ ، ولهذا فانه يوجد في حديث أسامة عدم دقة . من الممكن أن الذي وجد وقتها هناك جوموشتكين لاتكتين .

٢ - حسن ابراهيم حسن في كتابه « تاريخ الدولة الفاطمية » (القاهرة ، ١٩٥٨) يخطيء عندما يكتب « عزل رضوان ففر إلى الشام وطلب من زنكي أتابك الموصل مساعدته ، وكان رضوان ينوي غزو مصر ، ولم يثنه عن ذلك إلا أسامة الذي أوفد اليه من القاهرة ، واسترضاه بثلاثين الف دينار فعدل عن ذلك » . ذلك لأن لقاء أسامة مع رضوان كان قبل سفر أسامة إلى مصر .

وعندما بلغ مصر خانه الجند الأتراك ، فالقى به الحافظ[1] في السجن[2] .

لقد صادق أسامة في دمشق معين الدين أنز ، وآزره ونال على ذلك هدايا ثمينة ، حيث يكتب عنها في شعره :

معين الدين ، كم لك طوق من ... بجيدي مثل أطواق الحمام
يعبدني لك الاحسان طوعاً ... وفي الاحسان رق للكرام
فصار إلى مودتك انتسابي ... وإن كنت العظامي العصامي
ألم تعلم بأني لانتمائي ... إليك رمى سوادي كل رام
ولولا أنت لم يصحب شماسي ... لقسرٍ دون إعذار الحسام
ولكن خفت من نار الأعادي ... عليك فكنت إطفاء الضرام[3]

لكن الظروف فيما بعد قد تغيرت ، إذ ظهر منازعون ومنافسون لمعين الدين منهم أبو الفوارس المسيب بن علي بن الحسين المشهور بابن الصوفي ، الذي نازع معين الدين على سلطته ومكانته ، وبدأ يحوك ضده المؤامرات ، ويدبر الفتن والعصيان ، وسعى جاهداً ليصبح وزيراً مكانه . ولهذا فقد

---

١ ـ الحافظ لدين الله ـ لقب الخليفة الفاطمي أبو المجيد(١١٣٠-١١٤٩).
٢ ـ عندما توجه أسامة إلى مصر ، كان رضوان لا يزال في السجن.
٣ ـ أسامة ، الديوان . ص ٢١٩ ،

كان معين الدين بحاجة إلى رجل ، يعرف أكثر مما يعرف أسامة عما يحاك ضد الوزير في الخفاء . إضافة إلى هذا فان أسامة ذاته قد ملك حساداً ، وأمثاله لا يعدمون مثل هؤلاء الحساد ، الذين حاولوا الايقاع بينه وبين معين الدين . لقد سعى به الواشون عند معين الدين مما سبب انحراف قلبه عن أسامة ، وصبت على أسامة الحياة في دمشق ، ونبت به الشام « نبو الدار بالكريم » حسب كلام العماد الاصفهاني .

أضطر أسامة إلى الرحيل مع أهله إلى مصر ، فودع معين الدين بقصيدة مملوءة عتاباً وشكوى ، شبيهة ـ من حيث مضمونها ـ بقصيدة المتنبي ـ في أيامه ـ التي كتبها في سيف الدولة عندما قرر السفر عنه بعيداً إلى مصر ـ إلى كافور ، مع تشابه بين المناسبتين . حتى كأن قصيدة أسامة معارضة لقصيدة المتنبي ، مشيراً فيها إلى الوشاة الذين كان معين الدين قد اعتمد على آرائهم في حكمه على أسامة ، مادحاً معين الدين ، ومذكراً بتلك الحوادث ، التي كان فيها مخلصاً له ومؤيداًومدافعاً. ثم ينتقل بعد كل هذا ليصور الخطر المحدق به وبعائلته من وقوع في يد الافرنج ، ويشير إلى أنه لا يأسف على رحيله عن بلد لا تقدره ، لكنه يأسف بألم على فراقه معين الدين ، ويطلب له الصحة والسعادة ورفاهية الحياة :

ولوا ، فلما رجونا عدلهم ظلموا فليتهم حكموا فينا بما علموا

وبعدُ، لوقيل لي : ماذا تحب، وما منالك من زينة الدنيا، قلت: هم

بلّــغ أميري: معين الدين، مألكة من نازح الدار، لكن وده أمم

هل في القضية يا من فضل دولته وعدل سيرته بين الورى علم

تضييع واجب حقي بعدما شهدت به النصيحة، والاخلاص، والخدم

وماظننتك تنسى حق معرفتي إن المعارف في أهل النهى ذمم

ولا اعتقدت الذي بيني وبينك من وُدٍّ، وإن أجلب الاعداء، ينصرم

لكن ثقاتك مازالوا بغشهم (حتى استوت عندك الأنوار والظلم)

هبنا جنينا ذنوباً ، لا يكفرها عذر، فما ذا جنى الاطفال والحرم

ألقيتهم في يد الافرنج متّبعاً رضاعداً يسخط الرحمن فعلهم (١)

---

١ ـ أسامة ، الديوان . ص ١٤٧ ـ ١٤٨ .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

أسامة في مصر

(٥٣٩ - ٥٤٩ / ١١٤٤ - ١١٥٤)

وهكذا كان أسامة مبعداً[1] ، فانتقل من دمشق إلى مصر [القاهرة] ، وربما لم يكن بمقدور معين الدين أن يمنعه من الرحيل ، ويحتفظ به .

« ثم مرت أسباب أوجبت مسيري إلى مصر . فضاع من حوائج داري وسلاحي ما لم أقدر على حمله . وفرّطت في أملاكي ما كان نكبة أخرى[2] . كل ذلك والأمير معين الدين ... محسن مجمل كثير التأسف على مفارقتي مقر بالعجز عن أمري ، حتى إنه أنفذ إلى كاتبه الحاجب محمود المسترشدي ... قال : « والله لو أن نصف الناس معي لضربت بهم النصف الآخر ، ولو أن معي ثلثهم لضربت بهم الثلثين ، وما فارقتك .

---

١ - عمر موسى باشا في كتابه « أدب الدول المتتابعة » يخطىء إذ يكتب [ص ٢٧٥] أن أسامة إنما رحل عن دمشق عندما شاهد حاكمها يريد عقد اتفاقية مع الفرنجة ضد الزنكي . والحقيقة أن أسامة ذاته عقد هذا الاتفاق باسم حاكم دمشق .

٢ - إن المصيبة الأولى عند أسامة ، كما عدها هو ، حدثت في حصار شيزر من قبل البيزنطيين والافرنج ٥٣٢/١١٣٨ (الاعتبار ، إصدار درنبورغ ، النص العربي ، ص ٣ ؛ الترجمة الروسية ، ص ٤٥) .

لكن الناس كلهم قد تمالوا علي ومالي بهم طاقة . وحيث كنت فالذي بيننا من المودة على أحسن حاله ... فكان وصولي إلى مصر يوم الخميس ، الثاني من جمادى الآخرة سنة تسع وثلاثين وخمس مائة [٣٠ تشرين ثاني١١٤٤ . و . ط]»(١).

قدم أسامة القاهرة مع أمه ، وزوجته وأخيه محمد . واستقبله الخليفة بكل مظاهر الاحترام والتقدير ، وأتاح له فرص الحياة الهنيئة على خير ما يكون :

نلت في مصر كل مايرتجى الآ مل من رفعة مالٍ وجاه(٢)

إنه لمن المحتمل أن يكون رضوان الولخشي قد تحدث عن أسامة في قصر الخليفة مع رجالات القصر الكبار ، ولهذا من الممكن أن يكون الجميع في مصر قد رأوا فيه ممثلاً لسورية بقادتها العسكريين ، واتجاهها السياسي .

عاصر أسامة في مصر خليفتين فاطميين : عاش في أواخر أيام

---

١ ـ أسامة ، الاعتبار . إصدار درنبورغ ، ص ٣ـ٤ ؛ الترجمة الروسية ، ص ٤٧ ـ ٤٨ .

٢ ـ أسامة ، الديوان . ص ٢٦٣ .

الخليفة الحافظ[1] ، وعاصر خلافة الخليفة الظافر .

لم تكن الأحوال السياسية في مصر وقتها متينة مرضية ، فالخلاف على أشده بين الخلفاء ووزرائهم ؛ كل منهم يحاول جاهداً نكاية الآخر وانهاءه . المؤامرات المتلاحقة الدائمة بمشاركة الجيوش قادت إلى إضعاف الاقتصاد في مصر ، مما أدى إلى أن قاسى السكان الكثير من هذا .

لم يشارك أسامة في البداية في هذه الاحداث الانقلابية . ونعتقد أنه كان حذراً ، لم يرد المشاركة في أعمال لم يعرف نتائجها . فرغم قربه ومكانته عند الخليفة الحافظ لم يحرك ساكناً للتخفيف عن رضوان الوخشي ، الذي قتله الخليفة ، بعد أن حاول الفرار من السجن . ربما أن أسامة قد أراد مقتل رضوان ، ذلك لأنه قد أخل بشروط اتفاقه معه في سورية .

وحدث بعد ذلك انقلاب عسكري ، مات بعده الخليفة الحافظ ، وغدا خليفة البلاد ابنه الأصغر أبو منصور اسماعيل الظافر بالله[2] ،

---

١ ـ يكتب ابن خلكان [ح I ، ص ٨٨ ـ ٨٩] عن قدوم أسامة إلى مصر في عهد الخليفة الحافظ الذي قدره وقدم له إمكانية العيش الهادىء ، لكنه يؤكد ـ خطأ ـ أن أسامة قد نظم مؤامرة ضد هذا الخليفة .

٢ ـ لقد كان لهذا الخليفة الفاطمي (١١٤٩ ـ ١١٥٤) من العمر وقتها ثمانية عشر عاماً فقط .

الذي عين وزيره نجم الدين بن مصال ، فلم يرق ذلك للأمير سيف الدين أبي الحسن علي بن السلاّر والي الاسكندرية وقتها ، الذي دخل القاهرة بجنده ،واستولى على قصر الوزير ،وقرب منه أسامة ، وأسكنه في بيته .
وتمكن بمساعدة ابن زوجته[1] عباس وابنه [ابن عباس] ناصر الدين وأسامة أن ينهي ابن مصال ، ويستلم من الخليفة منصب الوزير.[2]

---

١ ـ أم حاكم بلبيس ـ عباس [بلاّرة] في زواجها الثاني كانت زوجة ابن السلاّر .

٢ ـ عن هذه الحوادث انظر (أسامة ، الاعتبار . ص ٦) .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

أسامة سفير الى سورية

عندما غدا ابن السلار وزيراً وجه كل اهتماماته للوقوف بوجه الافرنج ، الذين بدأوا بتهديد مصر . لقد سعى لتوحيد مصر وسورية لمحاربة الافرنج وقتالهم في فلسطين ، واضعاً في حسابه كل الاحتمالات العسكرية والسياسية . فأرسل أسامة إلى دمشق ؛ إلى نور الدين الزنكي مع اقتراح بالطلب من الزنكي مهاجمة الافرنج في طبرية(1) ، على أن يهاجم المصريون في ذات الوقت غزة لأن الافرنج بدأوا بتهديدها ، ثم التوجه لمحاصرة عسقلان(2) .

سافر أسامة ليعمل على تنفيذ مهمه سفارته في عام ١١٥٠ ، آخذاً معه [٦٠٠٠ دينار مصرية] بأوامر ان يعطيها إلى نور الدين ، فيما إذا هاجم طبرية ، أما إذا لم يتمكن من مهاجمتها ، فعلى أسامة أن يجمع

---

١ - مدينة في شمالي فلسطين .

٢ - في هذه الفترة كانت عسقلان في الحكم لا تزال تابعة للخلافة الفاطمية ، وكانت آخر حصن للحكم الاسلامي فى فلسطين . ووقعت تحت سيطرة الصليبيين لأول مرة عام ١١٥٣ ، في عهد حكم بلدوين الثالث ، حاكم بيت المقدس .

جيشاً تحت إمرته ، ويتقدم به إلى عسقلان ، منتظراً أوامر ابن السلار .

وصل أسامة إلى بصرى[1] بعد أن تعرض في طريقه إلى عذاب شديد كاد يودي بجمع المال الذي معه ، والتقى هناك بأسد الدين شيركوه[2] - قائد جند نور الدين ، ثم سافرا بعد ذلك إلى دمشق لاجراء المحادثات مع نور الدين . لكن جواب نور الدين على مقترحات مصر الذي قاله لأسامة كان : « فقال لي : يا فلان ، أهل دمشق أعداء ، والافرنج أعداء ، ما آمن منهما إذا دخلت بينهما » . عندئذ طلب أسامة من نور الدين السماح : « بأن أديون من محرومي الجند قوماً آخذهم وأرجع ، وتنفذ معي رجلاً من أصحابك في ثلاثين فارساً ليكون الاسم لك » . وتلقى موافقة نور الدين التالية :« قال : « افعل » . فديونت إلى الاثنين الآخر ثماني مائة وستين فارساً وأخذتهم ، وسرت في وسط بلاد الافرنج نتزل بالبوق ونرحل بالبوق »[3]. توجه أسامة بعدها إلى عسقلان ، وأمضى هناك أربعة شهور محارباً الافرنج بمساعدة أخيه عز الدولة أبي الحسن علي[4]

---

١ - مدينة قديمة في حوران إلى الجنوب من دمشق .

٢ - قائد جند نور الدين الزنكي ، وعم صلاح الدين الأيوبي المشهور عند الاوروبيين باسم «صلادين» .

٣ - أسامة ، الاعتبار . إصدار درنبورغ ، النص العربي ، ص ١٠ ؛ حتي ، ص ١٤ - ١٥ .

٤ - هو الأخ الأكبر لأسامة ، كان قد ترك شيزر معه وعاش في دمشق ، ومنذ عام ١١٤٤ في عسقلان ، حيث قتل هناك عام ١١٥٢ .

وجنده ، الذين قدموا معه من دمشق . وانصياعاً لأوامر ابن السلار غادر أسامة عسقلان عائداً إلى مصر ، تاركاً فيها أخاه ، حيث عاش أسامة بعد ذلك خمس سنوات في مصر / ٥٤٤ - ٥٤٩ / ،مشتركاً في المؤامرات السياسية ، والانقلابات العسكرية ، التي عانت منها مصر كثيراً في تلك الفترة .

حسب رواية ابن ميسر قام أسامة مباشرة بتحريض عباس[١] على على أن يستخدم منزلة ابنه ناصر الدين نصر لكونه عشيق الخليفة[٢] . وبعد حصول ناصر الدين على موافقة الظافر ، بشكل خياني دخل إلى بيت ابن السلار : « احتز رأسه ، ومضى به إلى الظافر بالقصر[٣]» . كان هذا - حسب رواية أسامة - يوم الخميس في ٦ محرم لعام ٥٤٨ هـ . وبعد سماع عباس بمقتل ابن السلار (العادل) دخل القاهرة وأصبح وزيراً فيها .

يفهم من هذه الرواية أن أسامة إنما أقنع وحرض عباساً على قتل ابن السلار واحتلاله مكانه . وعلاوة على هذا فان الظافر لم يحب ابن

---

١ - لقد كان حاكم بلبيس ، المدينة الرئيسية في المنطقة الشرقية إلى الشمال الشرقي من القاهرة ، حيث كانت هناك المراكز البرية الأساسية للدفاع عن مصر ضد الصليبيين .

٢ - ابن إياس ، تاريخ مصر ، ٦٥ .

٣ - ابن ميسر ، أخبار مصر ، ص ٩٢ .

السلار كما قال ذلك أسامة :

« كل ذلك والظافر منحرف عنه [عن ابن السلار . و . ط]، كارهله ، مضمر له الشر ، فعمل على قتله ، وقرر مع جماعة من صبيان الخاص وغيرهم من استمالتهم وأنفق فيهم أن يهجموا داره ويقتلوه »[1].

ويرى ابن الأثير أيضاً في كتابه « الكامل » ان أسامة هو ذلك الرجل «الذي زين لعباس مقتل العادل زوج أمه » . وهذا ما يقوله ابن خلكان مع التشديد على اشتراك أسامة بتحرضه على قتل ابن السلار[2] . أما أسامة ذاته فلا يعترف باي شيء من هذا في حديثه عن هذه الحادثة . إنه يتحدث ملقياً التهمة على نصر الذي دبر هذا بالاتفاق مع الظافر ، ولا يشير أبداً إلى معرفته بهذا أم لا[3] .

إن آراء ابن ميسر ، وابن الاثير عن أمراء مصر واستيحاشهم أسامة بعد مقتل ابن السلار متفقة ، إذ يفترضان أن أسامة لعب دوراً رئيسياً في مقتل ابن السلار ، حتى إن ابن ميسر يخبر بان امراء مصر قد أخذوا يأتمرون بمقتل أسامة ذاته .

ويؤيد أسامة في براءته بعض البحاثة العرب المعاصرين كمصطفى

---

١ ـ أسامة ، الاعتبار . إصدار درنبورغ ، النص العربي ، ص ٦ .

٢ ـ ابن خلكان . ح I ، ص ٥٢٨ .

٣ ـ أسامة الاعتبار . إصدار درنبورغ ، النص العربي ، ص ١٠٣ .

حجازي[1] ، وأحمد شاكر[2] . ونعتقد ـ نحن شخصياً ـ أن أسامـة كان قد شارك في مقتل ابن السلار بلا شك ، وأكثر من هذا ، كان أسامة قد فقد تماماً ثقة وزراء مصر بعد سفره منها إلى سورية[3] .

اتفق الجميع على أن نصراً قد قتل ابن السلار . وبعد قتـله ابتعد كل الأمراء عن نصر وقطعوا علاقتهم به إلا أسامة الذي ـ خلافاً لهم جميعاً ـ تابـع صداقته معه كما يكتب عن ذلك هـو نفسـه قائلاً : « وأنا مع ابن عباس (نصر . و . ط) لا يفسح لي في الغيبـة عنـه ليلاً ولا نهاراً : أنام ورأسي على رأس مخدته»[4] .

ومن جهة أخرى فان جهد أسامة بالسفر إلى ســورية ، تاركاً عائلته في مصر ، إغاهودلالة أكيدة على أنه قد خشي ثأر الأمراء ، غير عارف كم سيبقى صديقه طلائع في السلطة . هذا مجمل ما يدفعنا للتأكيد على مشاركة أسامة في المؤامرة والقتل .

بعد مشاركة أسامة في قتل ابن السلار ، يشارك في مؤامرة

---

١ ـ المنازل ، ص ٤٦ . يرى حجازي أن ما يؤكد براءة أسامـة هو المراسلات الشعرية بينه وبين ابن رزيك ، والاحترام المتبادل بينهما . [انظر فيما بعد] .

٢ ـ لباب الآداب ، المقدمة ، ص ٢٣ .

٣ ـ 6. Nikita Elisseeff, Nur ad- Din, p. 577.

٤ ـ أسامة ، الاعتبار . إصدار درنبورغ ، النص العربي ، ص ١٤ .

أخرى ضد الخليفه الظافر . ويخبر ابن ميسر بأن أسامة قال لعباس : « كيف تصبر على ما يقول الناس في ولدك ، واتهامهم له بأن الخليفة يفعل به ما يفعل بالنساء !»[1] . وبالفعل كان ابنه نصر ملازماً للخليفة، ومعاشراً له[2] .

حسب إخبار ابن ميسر وابن الاثير كان عباس قد طلب نصحاً من أسامة ، وهذا أشار عليه أن يقتل الخليفة الظافر بمساعدة نصر . لكن أسامة لم يورد شيئاً عن دوره في القتل ، مورداً بعض الظروف التي لا يشار اليها في المصادر التاريخية الأخرى . إنه ـ بقصد تبرئة عباس ـ يقول بأن الظافر نفسه كان قد أقنع نصراً بقتل أبيه ، ووعده بمنصب الوزارة لقاء ذلك . ونصر بدوره حدث أسامة عن هذا ، لكن أسامة أجابه : « فقلت (مخاطباً نصراً . و . ط) : » يامولاي ، لا يستنزلك الشيطان وتنخدع لمن يغرك . فما قتل والدك مثل قتل العادل . فلا تفعل شيئاً تلعن عليه إلى يوم القيامة . فأطرق ، وقاطعني الحديث . وغمنا . فأطلع والده على الأمر ، فلاطفه ، واستماله ، وقرر معه قتل الظافر »[3].

---

١ ـ ابن ميسر ، أخبار مصر . ص ٢٢ .

٢ ـ أسامة ، الاعتبار . إصدار درنبورغ ، النص العربي ، ص ١٤ ؛ ابن إياس ، تاريخ مصر ، ص ٦٥ .

٣ ـ أسامة ، الاعتبار . إصدار درنبورغ ، النص العربي ، ص ١٥ ؛ حتي ، ص ، ١٩ ـ ٢٠ .

هذه هي رواية أسامة عن الحادث ، ويفهم منها أن مقتل الظافر إنما كان بتدبير عباس وابنه بدون مشاركة أسامة في الأمر . لكن ابن تغري بردي (توفي عام ٨٧٤ / ١٤٦٩ - ١٤٧٠م)[١] يؤيد رأي ابن ميسر وابن الأثير عن اشتراك أسامة في هذا المقتل .

لقد قتل نصر الظافر يوم الخميس ليلاً في محرم ٥٤٩ هـ ، وألقاه في بئر في دار القصر واتهم عباس أولاد الحافظ في مقتل الظافر ، وبدأ بتقتيلهم . فانقسم الجيش الى أحزاب ، وبدأت بالقتال فيما بينها . أما بنات الحافظ فقد كاتبن طلائع بن رزيك[٢] ، طالبات منه العون . فاستعد عباس لهذا وخرج من القاهرة ، لكن جيشه قد عصاه ، ووقف ضده ، ووقعت معارك حامية قاسية في شوارع القاهرة يصفها أسامة هكذا : « ووقع القتال بيننا وبينهم في الشوارع والأزقة : خيالتهم تقاتلنافي الطريق، ورجالهم يرموننا بالنشاب والحجارة من على السطوحات ، والنساء والصبيان يرموننا بالحجارة من الطاقات . ودام بيننا وبينهم القتال من ضحى النهار الى العصر . فاستظهر عليهم عباس وفتحوا أبواب القاهرة وانهزموا .ولحقهم عباس الى أرض مصر فقتل منهم من قتل وعاد إلى داره وأمره

---

١ - ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة . إصدار دار الكتب ، جـ I ، ص ٢٨٨ - ٢٩٦ .

٢ - في هذه الأثناء كان حاكماً لعشمرنية ، في الدلتا العليا ، بالقرب من القاهرة .

ونهيه»[1] .

لقد وعى عباس حقيقة أساسية وهي أن جميع من في مصر يكن له البغض والحقد ، فعليه ألا يبقى فيها . ولذا فقد عزم على السفر إلى سورية لطلب مؤازرة نور الدين الزنكي . أما أسامة فقد كانت له صداقة قديمة قوية مع ابن رزيك ، وفي هذه الاثناء تبادلا الرسائل ، وبعث له ابن رزيك رسلاً تثنيه عن السفر ، طالباً منه البقاء في القاهرة ، راغباً في أن يكون أسامة مساعده .

ولا بد من الاشارة الى أن ابن رزيك لا يعتبر أسامة مشتركاً في مقتل الظافر ، بل على العكس يبرئه . فبعد أن يتكلم في قصيدة شعرية له عن عباس وابنه ويجرمهما في قتل الظافر ، متشفياً بقتلهما ، بعد هذا يقول مبرئاً أسامة :

وحاشاكم ، ماخنتم العهد مثله ... ولا لكم فيما جرى منه من ذنب

ومن مثل ماقدنالكم من دنوه ... يحاذر أن تدنو الصحاح من الجرب

إننا نرى أن في هذين البيتين الدليل الآخر أيضاً على اشتراك أسامة في قتل الظافر ، أو في التحريض على ذلك القتل : المثل العربي

---

١ ــ أسامة ، الاعتبار . إصدار درنبورغ ، النص العربي : ص١٦-١٧؛ إصدار حتي ، ص ٢٢ .

يقول : « لا دخان بلا نار » ، « والذي لا يأكل ثوماً لاتظهر رائحته».

فمحاولة ابن رزيك تبرئة أسامة إنما تدل على أن القصر علىاطلاع كامل على أعمال أسامة ، وفيه تكلموا كثيراً عن مشاركة أسامة . ولقد أكد ابن رزيك ـ من حيث لا يدري ـ خوف أسامة من القصر ، ذلك لان القصر يعلم عن أسامة أكثر من ابن رزيك الذي لم يكن فيه وقت تلك الأحداث . وعلاوة على هذا فان أسامة قد دعم عباساً ، وساعده حتى كان قد أودى بحياته في المعارك التي حدثت نتيجة قتل الظافر في شوارع القاهرة .

حتماً ، لقد كان عباس عالماً بعلاقة أسامة بابن رزيك ـ علاقة الصداقة ، فأراد استخدام هذه الصداقة في أحرج الأوقات صعوبة . وعندما قرر السفر إلى سورية ، صمم على أخذ أسامة معه مهما كلفه ذلك ، وعلى أخذ عائلة أسامة أيضاً كيلا يبقى له اتصال بمصر . وأقنع أسامة بالسفر ، فخرجا من القاهرة ، ولكن عندما وصلا إلى بلبيس شاهد أسامة الطريق محفوفة بالمخاطر ، ولذا أعاد عائلته إلى ابن رزيك ، الذي استقبلها استقبالاً حاراً رائعاً ، فأسكنها القصر ، وقدم لها كل ما تحتاجه في الحياة الجيدة .

وخرج عباس وابنه وأسامة مع قسم من الجيش إلى دمشق في عام ٥٤٩/١١٥٤ . كان لزاماً عليهم أن يمروا بمنطقة واقعة تحت نفوذ الافرنج : « وسرنا إلى يوم الأحد ثالث وعشرين ربيع الاول فصبّحنا

الافرنج في جمعهم على المويلح[1] . فقتلوا عباساً[2] ، وابنه حسام الملك ، وأسروا ابنه ناصر الدين وأخذوا خزائنه وحرمه . وقتلوا من ظفروا به»[3]. لقد أخذوا في الاسر أيضاً أخا أسامة نجم الدين أبا عبدالله . أما أسامة نفسه فقد هرب عابراً وادي موسى[4] ، وبلغ دمشق ، لكن ابن تغري بردي يخبر بأن أخت الظافر كاتبت الافرنج في عسقلان، واعدة إياهم بكمية كبيرة من المال إذا قتلوا عباساً ، فقتلوه وأخذوا هذه الدراهم؛ بعد ذلك طلب ابن رزيك من الافرنج أن يعطوه نصر بن عباس وأعطاهم

---

١ ـ منخفض (مستنقع) بين صحراء سيناء ومرتفعات السعودية .

٢ ـ هذا يخالف اخبار ابن إياس فى كتابه « بدائع الزهور » (ص٦٦) حيث يقول :

« كان للفائز من العمر ٦ سنوات عندما ولاه عباس الخلافة بعد أن قتل أبيه . هرب عباس إلى الشام ، وفي أثناء الطريق خرجت عليهم طائفة من الافرنج فأسروه ، وأرسل طلائع إلى طائفة الافرنج الذين أسروا الوزير عباساً يطلبه منهم . فأرسل الافرنج عباساً وولده نصراً إلى طلائع وهما في الحديد فأمر الفائز بأن يصلب الوزير وولده نصر على باب القصر فصلبا » .

٣ ـ الاعتبار . إصدار حتي ، ص ٢٧ .

٤ ـ وادي موسى واد في شبه الجزيرة العربية .

على هذا كمية كبيرة من الدراهم[1] . «وقام نساء الظافر بضربه بالقباقيب والزرابيل أياماً ، وقطعن لحمه وأطعمنه إياه إلى أن مات ثم صلب»[2] .

وهكذا نرى أن حياة أسامة في مصر كانت هادئة في البدء ، بعيدة عن الصراعات السياسية ، ثم غدت ـ بالتدريج ـ أكثر تعقيداً وصراعاً . حتى شارك في مؤامرات القصر التي كادت تودي بحياته ؛ نهبت داره ، وعاش حياة قاسيه ، وقاسى الكثير من الصعوبات ، ولذا قرر السفر من مصر حتى لا يعود إليها بعد ذلك . لقد جاء في شعره ما يلي :

هب أن مصر جنان الخلد ما اشتهت الـ ... نفوس فيها من اللذات موجود

ماذا انتفاعي اذا كانت زخارفها ... موجودة ، وحبيب النفس مفقود

وما الحياة لمن بانت أحبته ... رضاً ، ولا هو في الأحياء ممدود

ويكتب في مكان آخر أيضاً :

---

١ ـ يقول نيكيتا يليسييف بأن ابن رزيك أعطى الافرنج (٦٠٠٠٠) دينار ، انظر :

Nur ad - Din, p. 497

٢ ـ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة . ص ٣١٠ ـ ٣١١ .

خمسون من عمري مضت، لم أتّعظ   فيها، كأني كنت عنها غائبا

وأنت عليَّ بمصر عشر بعدها   كانت عظات كلها وتجاربا

شاهدت من لعب الزمان بأهله   وتقلب الدنيا الرّقوب عجائبا (١)

---

١ ـ أسامة ، الديوان . ص٢١٥ .[الرقوب : التي لا يعيش لها ولود][ولد] .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

اقامة أسامة الثانية في دمشق

(أسامة ونور الدين)

(٥٤٩ - ٥٥٩ / ١١٥٤ - ١١٦٤)

لقد دخل أسامة دمشق يوم الجمعة (٥ ربيع الثاني ٥٤٩/١٦ حزيران ١١٥٤) [1] ، بعد أن قطع مع بعض مرافقيه طريقاً شاقاً صعباً . أما دمشق فقد عاشت حينئذ حياة هادئة تحت ظلال سلطة نور الدين ، الذي وحد جميع سورية ؛ فلم تعد هناك العداوات بين الأمراء الكثر ، وضعفت كثيراً التوترات السياسية ، كما ان الكثير من أولئك الذين هاجروا في عهد الحكم السابق عاد إلى دمشق في عهد حكم نور الدين [2] ؛ وبين أولئك العائدين كان أيضاً أسامة ، الذي عاد بعد عشر سنوات غياب في الغربة وهو الآن في الستينات من عمره .

لقد استقبل أسامة نور الدين استقبالاً حاراً ، وأسكنه قصره . لم

---

١ ـ أسامة الاعتبار . إصدار درنبورغ ، النص العربي ، ص ٢١ .

٢ ـ N. Elisseeff, Nur ad-Din, p. 487

يكن الآن ابن الصوفي (توفي في ربيع الأول ٥٤٣ / ١١٥٤) منافس أسامة في عهد أُنُر . لكن ابن رزيك ، مستخدماً الصداقة القوية بينه وبين أسامة ، تابع مساعيه في إقناع أسامة بالعودة إلى مصر ، أما إذا « كان لا يرغب في حياة القصر » فقد وعده باعطائه حكم أسوان. لقد حدّث أسامة بهذا نور الدين ، فنصحه هذا بأن يبقى بعيداً عن مصر ، مذكّره بأنه بصعوبة شاقة قد نجا من صعوباتهاومشاكلها ، وحفظ حياته ، ووعده بأن أخذ له من الافرنج السماح بنقل عائلته من مصر ضمن أراضيهم . وعندما فقد ابن رزيك الأمل بعودة أسامة إلى مصر ارسل له عائلته رغم محاولات الامراء لابقائها كرهينة ، كيلا يحاول أسامة بعد توجيه نور الدين ضد مصر ، ولتبقى عائلة أسامة ورقة رابحة بيد الامراء ضد أسامة .

وصلت عائلة أسامة وأقرباؤه معها ، ومجموعهم خمسون شخصاً ، إلى ميناء عكا[2] الذي كان حينئذ في يد الافرنج . حطمت السفينة التي انتقلوا عليها – بأوامر ملك الافرنجة – ، وسلب كل شيء كان معهم ، حيث بلغت قيمته التقريبية (٣٠٠٠٠) دينار ، بما في ذلك مكتبة أسامة المؤلفة مما لا يقل عن (٤٠٠٠) مجلد ، تاركين لهم فقط (٥٠٠)

---

١ – أسامة ، الاعتبار . إصدار درنبورغ ، النص العربي ، ص ٢٥ .

٢ – ميناء إلى الشمال من يافا ، مشهور في الوثائق الاوربية بـ «Sen-Jan d'Akr»

دينار ثم وجهوهم إلى دمشق .

لقد كان أسامـة ، في هذه الايام ، مـع نور الدين في أرض المسعودي[1] . وكتب أسامة بمناسبة هذه الحادثة ما يلي : « وكنـت إذ ذاك مع الملك العـــادل في بـــلاد الملك مسعـــود رعبان وكيسون. فهون علي سلامة أولادي وأولاد أخي . وحرمنا ذهاب ما ذهب من المال، إلا ما ذهب لي من الكتب ، فانها كانت أربعة آلاف مجلد من الكتـب الفاخرة . فان ذهابها حزازة في قلبي ماعشت[2]».

وكتب الشعر التالي بهذه المناسبة أيضاً :

إلى الله أشكو فرقة دميت لها　　جفوني وأذكت بالهموم ضميري

تمادت إلى أن لاذت النفس بالمنى　　وطارت بها الأشواق كل مطير

فاما قضى الله اللقاء تعرضت　　مساءة دهري في طريق سروري[3]

---

١ ـ على الحدود بين كيليكيا وبلاد الرافدين . ومسعود هذا من السلالة التي تدعى « السلاجقة الروم » التي حكمت عدة مناطق في آسيا الصغرى (تقريباً حتى ١١٥٦) .

٢ ـ أسامة ، الاعتبار . إصدار درنبورغ ، النص العربي ، ص ٢٦ ؛ إصدار حتي ، ص ٣٥ ؛ الترجمة الروسية ، ص ٨١ ـ ٨٢ .

٣ ـ أسامة ، الديوان . ص ٧٦ .

قرر أسامة – وهو في دمشق ، غير بعيد عن شـيزر – زيارة وطنه الأم بعد فراق دام قرابة ثمانيـة عشر عاماً . وحضر فيها تتويـج ابن عمه على العرش – ناصر الدين محمد بن سلطان ، وأهداه قصيدتـه التي يبدؤها بقوله :

يا ناصر الدين، يا ابن الأكرمين ومن يغني ندى كفه عن وابل الديم(١)

ويطلب فيها من ابن عمه أن يفتدي أخاه نجم الدين من الافرنج ، لكن ناصرا امتنع عن هذا مما أدى إلى فتور العلاقة بينهما ، رغم جميع محاولات أسامة أن يبقى في صداقة مع ناصر الدين والمقربين منه ، ذلك لأنه كان مؤمناً على الدوام ، بالمحافظة على علاقات قوية متينة مع أصدقائه ، وبخاصة أقربائه .

لكن القدر كان قد خبأ له فاجعة كبيرة ، ومصيبة فادحة ، حيث لم يمض عامان على وجوده في دمشق حتى حدثت الزلازل الحـادة في عام ٥٥٢/١١٥٧ ، التي هدمت كثيراً من مدن سـورية بما فيها شـــيزر ، وقضي تقريباً ، على جميـع أقربائه .

لقد اجتاحت شمال سورية هزتان أرضيتان عنيفتان في مدة عشرة أيام من ٢٥ جمادى الأولى إلى ٤ جمادى الثانية . وبعد ٩ شعبان /٢٧ ايلول ١١٥٦ أصابت الزلازل حلب ، وحوض نهر العاصي . وبحســـب

---

١ – أسامة ، الديوان . ص ١٤٩ .

إخبار ابن خلكان حدثت سبعة زلازل ، أخطرهما وأقواها دمر حلب وكفر طاب وأفاميا وشيزر وحماة وحمص . ويشير أيضاً إلى زلزال قوي حدث في رجب ١١٥٧/٥٥٢ .

في هذه المرة الأخيرة تحطمت وتهدمت جميع البيوت والقلاع والحصون الحربية التي كان قد أصابها العطب فقط في الزلازل السابقه . وتوفي معظم السكان أو هاجروا إلى القرى ، وأخطر هذه الزلازل كان في حماة وشيزر ؛ وفيها قال أحد شعراء تلك الحقبة :

روّعتنا زلازل حادثات بقضاء قضاء رب السماء
هدّمت حصن شيزر وحماة أهلكت أهله لسوء القضاء

كان في هذه الأثناء ، في حصن شيزر ، حفل عائلي : لقداجتمع جميع بني منقذ ليقيموا حفلة ختان ابن تاج الدولة محمد بن سلطان . وكان أحد الحصن مربوطاً في مدخل القلعة ، فعندما بدأ الزلازل اضطرب الحصان ، وهاج . وفي هذا الوقت اراد أحد الضيوف الخروج فترك القاعة إلى الدهليز حيث الحصان الهائج ، فقتل بضربة من رجل الحصان ، وسد المخرج بالحصان والمقتول[1] ، اللذين عاقا المجتمعين في القاعة من الخروج . لقد قتل الجميع تحت الأنقاض عدا الخاتون ـ زوجة

١ ـ أبو شامة ، ص ١٠٣ ـ ١٠٥ .

الأمير تاج الدولة التي أنقذت من تحت هذه الأنقاض[1] ، واولئك الذين كانوا خارج شيزر مثل أسامة وابنه أبي الفوارس ، وأخيـه[2] ، وشرف الدولة ابن سلطان صهر الخاتون .

لقد كتب أسامة قصائده المصبوغة دماً ودموعـــاً ، يبكي فيها المصاب والنكبة وفقدان الوطن والأهل ، الذين هلكوا دفعة واحدة. تاركين له الحزن والألم والأسى[3] . لقد مجد في هذه القصيدة عزهم ،

---

١ ـ ابن خلـكان ، فوات . حـ I ص ٥٢٣ ؛ ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، VIII ، ٢٢٨ ـ ٢٢٩ ؛ الاعتبار ، المقدمة ،إصدارحتي .

٢ ـ نيكيتا يليسييف يخطىء إذ يقول « لقد نجا فقط زوجة الأمير ، وصهرها شرف الدولة ابن سلطان وأسامة » . من المشهور أن ابن أسامة أبا الفوارس كان في دمشق قائداً عسكرياً عند صلاح‌الدين الذي حكمها فيما بعد .

٣ ـ أسامة ، الديوان . ص ٣٠٧ . قال أسامة :

قالوا : تأس ،وما قالوا :عن،وإذا	أفردت بالرزء ما أنفك أسوانا
ماستدرج الموت قوماًفي هلاكهم	ولاتخرّمهم مثنى ووحدانا
ماتوا جميعاً كرجع الطرف وانقرضوا	هل ماترى تاركاًللعين إنسانا
يقول بالظن اذ لم يدر ما خلقي	ولا محافظتي من حان أوبانا :

←

وذكّر بجدهم القديم ، وأسف لحياته بعدهم ، إذ إنه يبحث عن المواساة ويدفع عن نفسه ظن من يظن شماتته بأقربائه في هذه الكارثة ، ثم ختم القصيدة بالدعاء لهم .

ترك هذا الحادث المؤلم صدى قوياً في شعره ، فأقض مضجعه ، وخلده شعراً بائساً حزيناً أسود ، تنبث فيه روح الحكمة والتصبر والمواساة ، وكان بداية حزينة مؤلمة ، ودافعاً أساسياً لانتاج أدبي قيم هو كتاب « المنازل والديار » .

أما صلة أسامة بالملك الصالح طلائع بن رزيك ، فقد بقيت مستمرة على احسن حال ، وعندما قطع الاخير الامل بقدوم أسامة إليه ، إلى

←

أسامة لم يسوه فقد معشره ... كم أوغروا صدره غيظاً وأضغانا

ومادرى أن في قلبي لفقدهم ... ناراً تلظّى وفي الأجفان طوفانا

بنو أبي ، وبنو عمي ، دمي دمهم ... وإن أروني مناواة وشنآنا

كانوا سيوفي ، إذا نازلت حادثة ... وجنتي ، حين القى الخطب عريانا

سقى ثرى أُودعوه رحمة ملأت ... مثوى قبورهم روحاً وريحانا

[الأسوان : الحزين ؛ تخرمهم : استأصلهم ؛ حان : هلك ؛ الأضغان ؛ جمع ضغن وهو الحقد ؛ الشنآن : البغض] .

مصر ، بدأ يكاتبه برسائل شعرية تنضح وداً مكيناً بينهما ، واعجاب كل منهما بصاحبه اكبر الاعجاب . فمضت قصائد الصالح إلى أسامة تدعوه إلى مصر حيناً ، وتعتب عليه إيثاره البعد عنها حيناً آخر ، وتأخذ عليه أحياناً ، قلة مراسلته . وكثيراً ما حدّثه الصالح بما قام به من حروب مع الافرنج ، وطلب منه أن يكون وساطته عند نور الدين كي يجتمعا على حرب الصليبيين . وشارك الصالح أسامة فيما نزل به من أحداث قاسية في حياته . وكان معجباً بمواهب أسامة في الحرب والسلم ، يراه محارباً شجاعاً ، وشاعراً مفلقاً ، وخطيباً بارعاً ، وحكيماً في إبداء الرأي .

قال طلائع :

وجهاد العدو بالفعل والقو ل ، على كل مسلم ، مكتوب

ولك الرتبة العلية في الأم رين، مذ كنت إذنشبت حروب

أنت فيها الشجاع، مالك في الطع ن ولا في الضراب يوماً ضريب

وإذا ما حرضت فالشاعر فيـ ـما تقوله والخطيب

وإذا ماأشرت فالحزم لا ينـ ـكر أن التدبير منك مصيب

بالاضافة إلى علاقات الصداقة والود بين ابن رزيك وأسامة ، فقد تركز هدف ابن رزيك السياسي أن يقوم أسامة بدور الوسيط يقنع نور الدين الزنكي بالاتفاق معاً على حرب الصليبيين في وقت واحد حتى تتشتت وحدة الصليبيين ، وفي نظره أن أسامة خير من يحمل عبء هذه الرسالة :

والق عنا رسالةعند نور الديـ ن ما في إلقائها مايريب
قصدنا أن يكون منا ومنكم أجل فيمسيرنا مضروب

ويقول أيضاً :

فلو ان نور الدين يجـ عل فعلنا فيهم مثالا
لرأيت للافرنج طـ راً في معاقلها اعتقالا

لكن سياسة نور الدين في هذه الآونة كانت سياسة التريث ، وذلك لأنه كان منشغلاً بتمتين وتوطيد سلطته في سورية ، والوقوف بحزم ضد الصليبيين ، وبخاصة في المناطق الشمالية منها . ففي انطاكيه - مثلا - كانت القوة الكبيرة للافرنج ، لذلك **فان** نور الدين لم يفكر في بيت المقدس ، وفي مصر ، التي كانت بعيدة عن سلطته . وكانت وساطة أسامة عنده ، كما يرى بوضوح ، غير ناجحة ، لذلك فان أسامة يتباطأ في الرد على مراسلات ابن رزيك ، الذي يشكو منه هذا التباطؤ ، وعدم التأثير على نور الدين . ويكتب ابن رزيك في هذا قائلاً :

قل لابن منقذ الذي قد حاز في الفضل الكمالا
كم قد بعثنا نحوك الأ شعار مسرعة عجالا
وصددت عنها حين را مت من محاسنك الوصالا

هلا بذلت لنا مقا لاً حين لم تبذل فعالا
مع أننا نوليك صـ ـبراً في المودة واحتمالا

فاجابه أسامة راداً على عتبه ، مشيراً إلى رغبته في الوحـــدة ، وحدة القوى السياسية والعسكرية[1] .

إن المصادر التاريخية لا تتحدث بشيء ، ولا تشير إلى اشـــتراك أسامة في غزوات نور الدين ضد الصليبيين ، ولعل ذلك لأن أسامة في هذا الوقت كان قد ناهز السبعين . لكن أبا شامة ، معتمداً على اقتباسه من ابن الأثير ، يخبر عن مشاركة أسامة في حصار حارم في نهاية عـام ٥٥٧/١١٦٢ : « إنه (أسامة . و . ط) كان من الشجـاعـة الـتي لا مزيد عليها »[2] .

ويشير أبو شامة إلى أن أسامة وهو عائد من هذه الحملة ، دخل أحد المساجد في حلب ، وكتب على جدرانه الأشعار التاليـــة ، التي تتحدث عن مشاركته في الحملة ، وزيارته لهذا المسجد في العام الماضي،وهو في طريقه إلى الحج :

---

١ ـ من أجل التفصيل في هذه المراسلات الشعرية ، انظر : أبوشامة ، حـ I ، ص ١١٥ ـ ١٢٠ .
٢ ـ أبو شامة ، حـ I ، ص ١٢٧ .

لك الحمد يا مولاي، كم لك منّةً علي، وفضلاً لا يقوم به شكري
نزلت بهذا المسجد العام قافلاً من الغزو، موفور النصيب من الأجر
ومنه رحلتُ العيسَ في عامي الذي مضى نحو بيت الله ذي الركن والحجر(1)
فأديتُ مفروضي، وأسقطت ثقل ما
تحملتُ من وِزْرِ السنين على ظهري(2)

سن السبعين نقطة تحول خطيرة في حياة أسامة . إنه يصف ضعفه الشديد فيها ، حيث ان السبعين لم تترك له أملاً في القتال ، وحطمت قواه وأوهنتها ، رغم أنه شهد المعارك الضروس التي تمنى لو قتل في إحداها ، فكان ذلك القتل أفضل له من أن يعيش عاجزاً ، لأن القتل في المعركة أفضل للانسان من أن يهرم ويشيخ .

عاش أسامة حياة طويلة مملوءة بالحوادث والشجاعة والقوة وكان سيفه دائماً الشاهد الأصدق على شجاعته في المعارك ، والآن - في السبعينات - بكل أسف وألم ، يتذكر أيام الماضي المملوءة بالانتصارات والبطولات ، بالقوة والمجد والشهرة ، خلافاً لحالته الراهنة . إنه بشدة

---

١ - الحجر - مكان محدد في جامع مكة المكرمة الى الشمال الغربي من الكعبة .
٢ - أسامة ، الديوان . ص ٢٨٢ - ٢٨٣ .

تقت شيخوخته ، لأنها قد سلبته قوته ، وغطت رأسه شيبا ، وقوست ظهره ، كما أضعفت يديه ورجليه ، وأهانته أمام الناس :

لم تترك السبعون في إقبالها   مني سوى مالا عليه معوّل
حتى إذا ما عامها عني انقضى   ووطئتُ في العام الذي يستقبل
حطمت قواي، وأوهنت من نهضتي   وكذا بمن طلب السلامة تفعل
والقتل أحسن بالفتى من قبل أن   يبلى ، ويفنيه الزمان ، وأجمل
وأبيك ما أحجمت عن خوض الردى   في الحرب، يشهد لي بذلك المنصل (١)

وهو في السبعين يتحدث حديث حكيم عاركته الأيام ، ووعظته التجارب ، ثم ينتهي ليعظ غيره ، ويخاطب ابن السبعين الذي عاد إلى شرب الخمر(٢) بعد توبته ونسكه فأفسد بذلك دينه ، كما أن السبعين أفسدت دنياه ، وغدا كالفخار الذي إذا تكسر لا نفع فيه . ثم يخاطب ابن السبعين الذي لم يقدم على التوبة بعد . ويطلب منه ألا تخدعه الأماني فقد تحمل أوزار السنين ، وفعل المعاصي ، وأشرف على الهرم والموت ، فأفل ربيعه ، ولم يبق منه إلا الهشيم ، حيث بعدت أيام الصبا ، وبقي له الشيب الشنيع :

---

١ ـ أسامة . الديوان . ص ٢٧٠ ـ ٢٧١ . [المنصل : السيف] .
٢ ـ لم يعرف عن أسامة أنه شرب الخمر .

مامع السبعين تسويفٌ ، ولا يخدعنك الأمل الواهي الخدوع
ثم أفضت مدة الشيب إلى هرم يعقبه الموت الشنيع(١)

وها هو في السبعينات قد غدا مرعى ذاوياً يبست أغصانه وذبلت وتناثرت أوراقه ، وخانته رجلاه فلن يقوى بعد على الركوب والقتال ، خلافاً لما كان عليه سابقاً ، حيث كان أول الملبين لدعاء القتال والوغى ، كاشفاً بسيفه الماضي ظلمة الوغى ونقعها ، منازلاً الأبطال الصناديد الذين يتراءون من رعبهم قبل ضربه لهم . مرت هذه الايام مخلفة فيه الصبر على المصاعب ، حيث لاقي الرازيا دائماً بقوة وصبر ، وبعزم صادق لم يخنه قط:

رجلاي والسبعون قد أوهنت قواي عن سعيي إلى الحرب
وكنت ،إن ثوّب داعي الوغى لبّيته بالطعن والضرب
ما خانني عزمي ولا عزّني صبري ، ولا ارتاح لها قلبي(٢)

والايام تأتي بالشيء العجاب ، فبعد قوته وشجاعته وجبروته اضطرته بعد عامه السبعين وهو من اعتاد حمل السلاح والقتال ، اضطرته

---

١ ـ أسامة الديوان . ص ٢٨٧ .
٢ ـ اسامة ، الديوان . ص ٢٠٨ . [التثويب : الدعاء ؛ عزّني :غلبني فلم يطعني] .

إلى حمل العصا للاعتماد عليها ، لانه لا يقوى على حمل ذاته . إنها خطيئة الموت الذي لم يعالجه ، وتركه حتى غدت حياته موتاً بطيئاً :

فرجعتُ أحمل بعد سبعين العصا ‏ ‏ فاعجب لما تأتي به الأيام
وإذا الحِمامُ أبى معاجلة الفتى ‏ ‏ فحياته، لاتكذُبنّ حمام(١)

ثم يصف عصاه التي لازمته بعد عامه السبعين ، وتحملت ثقله تحمل المتكاره ، وقادته وكأنها انسان تعب عيي ، يحمل ثقلاً ووزراً كبيرين ، لا يقوى على النهوض ، مكبلاً بتعثراته المتلاحقة ، إن هذه العصا تعبت من ثقل ما ألقاه الشباب عليه من المصاعب والمتاعب :

حمّلتُ ثقلي بعدما شبت العصا ‏ ‏ فتحملته تحمل المتكاره
ومشت به مشي الحسير بوقره ‏ ‏ لايستقل ،مقيداً بعثاره(٢)

إن السبعين أضعفت قواه ، ووخطت رأسه شيبا ، فتقوس ظهره ، وامتد البلاء إلى يده ، التي غدت في رجفان دائم ، حيث لم تقو على الكتابة، فخطه مضطرب . إنه عامه السبعون الذي أنقص من قيمته بين الناس ، وغير كثيراً من صفاته ؛ وما أجمل الموت حيث يكون خلاصاً من أذى الحياة الضعيفة :

---

١ ـ أسامة ، الديوان . ص ٢٧٣ .
٢ ـ أسامة ، الديوان . ص ٢٧٥ . [حسر : أعيا ،فهو حسير؛الوِقر بالكسر : الحمل الثقيل ؛ يستقل : ينهض] .

نكّستُ في الخلق، وحطتني السـ بعون لما أن علتْ سني
وغيّرتْ خطي فأضحى كما ترى ، وكم قد غيرت مني
والموت فيه راحة من أذى الدُّ نيا ، فما أغفله عني ؟(١)

لم ترق الحياة لأسامة في دمشق أكثر من ذلك ، لأن التقاليد الرسمية وواجبات القصر تتطلب منه خدمة السلطان ، والمشاركة في الحياه السياسية . إن أشعار هذه المرحلة عند أسامة لتدل على عدم وجود اتفاق كامل بينه وبين نور الدين ، كل منهما كان يحتفظ بوجهة نظره السياسية . فنور الدين لم يقبل وساطة أسامة التي كلفه بها ابن رزيك بشأن الوحدة بين مصر وسورية لاسترداد القدس . ولم يهتم بهذه الخطة ، مما جعل التباين بينه وبين أسامة في ازدياد ، أضف إلى هذا أنه ربما قد انضمت المواقف العدائية التي كانت سابقاً بين أسامة وعماد الدين - والد نور الدين ، والعلاقة الوثيقة بين أسامة والامراء الاتراك في دمشق ، الذين كانوا ضد عماد الدين ، نقول ربما انضمت كل هذه المواقف إلى أسباب زيادة الفتور بين أسامة ونور الدين . وعلاوة على هذا فقد كان نور الدين زاهداً جداً ، لم يحب الشعراء ، ولم يبتهج لمديحهم ، لما علمه من تزيد الشعراء به(٢) ، والناس مثله قد زهدوا ، حتى غدت أيامه

---

١ - أسامة ، الديوان . ص ٢٧٤ .

٢ - أبو شاقة ، ج I ، ص ٢٢٩ .

مثل شهر الصوم ، ليس فيها إلا الجوع والعطش :

أميرنا زاهدٌ والناس قد زهدوا له ، فكل على الطاعات منكمشُ
أيامه ، مثل شهر الصوم ، طاهرة من المعاصي وفيها الجوعُ والعطش (١)

كل هذه الاسباب مجتمعة قد أجبرت أسامة على قبول دعوة فخر الدين أرسلان[٢] صاحب حصن كيفا . لقد طلب أسامة من نور الدين السماح له بالسفر ، فوافق له برغبة كبيرة[٣] . ويلخص أسامة حالته في دمشق بما يلي :

«وكنت أظن أن الزمان لا يبلى جديدة ، ولا يهي شديدة ، وأني إذا عدت إلى الشام وجدت به أيامي كعهدي ، ماغيرها الزمان بعدي . فلما عدت كذبتني وعود المطامع ، وكان ذلك الظن كالسراب اللامع»[٤] .

---

١ ـ أسامه ، الديوان . ص ١٥٨ ، أبو شامة ، ص ٢٢٩ .

٢ ـ أمير حصن كيفا في ديار بكر في تركية بالقرب من الحدود الشمالية السورية .

٣ ـ زكي ، أ . أسامة ، ص ١٥٨ .

٤ ـ أسامة ، الاعتبار . إصدار درنبورغ ، النص العربي ، ص ١٢٠، إصدار حتي ، ص ١٦١ ؛ الترجمة الروسية ، ص ٢٤٨ .

رَفَعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

أسامة في حصن كيفا

(٥٥٩ - ٥٧٠ / ١١٦٤ - ١١٧٤)

ان تشابهاً كبيراً بين طبيعة ديار بكر وطبيعة شيزر ، حيث عاش أسامة في طفولته : انه يعيش هنا في حصن مشابه لحصن شيزر ، مياه دجلة تذكره بمياه العاصي ، والطبيعة تدعوه للصيد حيث يخرج اليه مع حاكم الحصن فخر الدين[١] . وربما اختار أسامة هذا المكان ليكون بعيداً عن قصر السلطان ، وليستخدم المكتبات المحلية الغنية . لقد كتب أبوشامة « وكان فيها (آمد) ، خزانة كتب فيها ألف ألف وأربعون كتابا »[٢] .

ان المدة التي قضاها أسامة في حصن كيفا هي حقبة البحث والدرس والتأليف فهي التي خلدته علمياً في التاريخ ، إذ فرغ للتأليف

---

١ - أسامة ، الاعتبار . إصدار درنبورغ ، النص العربي ، ص١٢٠ ، الترجمة الروسية ص ١٤٣ .

٢ - أبو شامة ، حـ II ، ص ٣٩ .

حين جاوز السبعين ، وبقي هذا همه أكثر من ٢٥ سنة ، أنه هنا يدرس العلوم ويؤلف مؤلفاته الاساسية ، التي بفضلها أصبح مشهوراً لدينا كأديب وعالم .

يبقى غير واضح رأي أسامة وعلاقته بسعي فخر الدين أرسلان للاستيلاء على حصن آمد الحصن القوي ، الذي وصفه ناصر خسرو : « وقد رأيت كثيراً من المدن والقلاع في أطراف العالم ، في بلاد العرب والعجم والهند والترك ولكني لم أرقط مثل مدينة آمد في أي مكان على وجه الأرض ولا سمعت من أحد أنه رأى مكاناً آخر مثلها[1] .

لقد قرر فخر الدين أن يستولي على حصن آمد ، عندما كان أسامة فيه . والمصادر التاريخية تصمت عن دور أسامة في هذه الحملة ؛ أكان بعيداً عن كل هذا ؟ أم أنه شارك في محاولة الاستيلاء على الحصن ؟ أم حرّض على ذلك ؟

لقد عاش أخو اسامة أبو المغيث في هذا الوقت في آمد ، وغير مشهور أنه كان هناك اتفاق بين أسامة وأخيه في مساعدة فخر الدين . ان هذا السؤال يبقى دون جواب ، لان المصادر تصمت عن ذلك ، رغم أن أسامة يحدث عن هذه الحوادث ، مشيراً الى أن فخر الدين اعتمد على الامير الكردى ، الذي عاش في آمد ، ويعزو فشل هذه الحملة إلى

---

١ ـ ناصر خسرو ، سفر نامة ، ٨ ـ ٩ .

أن فخر الدين لم يعتمد على الامراء الكبار[1] .

توفي فخر الدين في عام ٥٦٢ / ١١٦٧ ، وخلفه ابنه الذي لم تكن علاقته مع أسامة كعلاقة والده من قبله ، مما سبب انزعاج أسامة ، لذا نجده يسافر بين مدن شمالي سورية يتقرب من الفقهاء والنساك والزهاد، ويتوضح عنده بشكل أكثر أنه لم يعد صالحاً لمعاشرة الملوك والسلاطين . انه يكتب :

« أعجزني وهن السنين ، عن خدمة السلاطين . فهجرت مغشى أبوابهم ، وقطعت أسبابي من أسبابهم ، واستقلت من خدمتهم ، ورددت عليهم ما خولوني من نعمهم ، لعلمي أن ضعف الهرم لا يقوى على تكاليف الخدم ، وان سوق الشيخ الكبير ، لا ينفق على الأمير ، ولزمت داري، وجعلت الخمول شعاري . ورضيت نفسي بالانفراد في الغربة ، ومفارقة الأماكن والتربة ، إلى أن تسكن نفارتها عن مرارتها . وصبرت صبر الأسير على قبره ، والظمآن ذي الغلة عن ورده .»[2]

في هذا الوقت عندما كان لأسامة من العمر أكثر من ٧٤ عاماً ولدت له طفلة سماها فروة . لقد جلب لأسامة ميلادها الحزن والهموم ، ذلك لأنه طول الوقت غدا يفكر بمستقبلها وباليتم الذي ينتظرها :

---

١ ـ أسامة ، الاعتبار ، إصدار درنبورغ ، ص ٦٢ .

٢ ـ إسامة ، الاعتبار . إصدار درنبورغ ، ص ١٢٢ ؛ الترجمة الروسية ، ص ٢٥٢ .

رزقت فروة والسبعون تخبرها أن سوف تيتم عن قرب ،وتنعاني
وهي الضعيفة ماتنفك كاسفة ذليلة ، تمترى دمعي وأحزاني

الى أسامة وهو في حصن كيفا ، وصلت الاخبار عن صلاح الدين ، الذي كان قد صادقه في بلاط نور الدين ، عن انتصاراته ، وتدعيم حكمه في مصر . سُرَّ بهذا ، وأرسل اليه القصائد الشعرية ، المقولة في تمجيد هذه الانتصارات . وعبر فيها عن إعجابه ببطولة صلاح الدين ، وطالبه بالهجوم على الافرنج في سورية . لكن لم تكن أمثال هذه التطلعات حينئذ عند صلاح الدين ، ذلك لان الفاطميين لم يتخلوا له بسهولة عن السلطة في مصر ، التي هوجمت أيضاً من قبل الافرنج مما شغله عن التفكير بسورية .

لقد كان أسامة ينتظر دعوة من صلاح الدين للقدوم الى مصر ، آملاً بذلك ، للمكانة الرفيعة التي يشغلها ابنه مرهف ، الذي كان المرافق الدائم ، وقائد جند عند صلاح الدين . لكن صلاح الدين لم يدعه اليه للأسباب التالية كما نفترض :

لقد عرف صلاح الدين بأن أسامة شخص غير مرضي عنه في مصر ، إذ يعرف موقف المصريين منه لاشتراكه في مقتل الخليفة الفاطمي ، فلم ير من حسن السياسة وهو حديث العهد بالحكم أن يدعو من اتهم بقتل خليفة فاطمي سابق ، وكذلك فان الصلة بين أسامة ونور الدين لم تكن لتشجع صلاح على إظهار العطف على أسامة ،وصلاح

الدين مدين لنور الدين بسلطنه في مصر ، أضف الى ذلك أن أسامة قد بلغ الثمانين ولم يعد له من النشاط والقوة ما يمكن صلاح الدين من الاعتماد عليه في ظروفه العصيبة ، حيث خارت قواه ، وأخلد إلى السكينة، ولم يستطع حتى السير على عصاه ، والامور تسير من سيء الى أسوأ حتى إنه يضطر إلى الصلاة وهو قاعد ، ويتعذر عليه السجود :

مع الثمانين عاث الدهر في جلدي وساءني ضعف رجلي واضطراب يدي
إذا كتبت فخطي جد مضطرب كخط مرتعش الكفين مرتعد
فاعجب لضعف يدي عن حملها قاما من بعد حطم القنا في لبَّة الأسد
وإن مشيت وفي كفي العصا ثقلت رجلي كأني أخوض الوحل في الجلد
فقل لمن يتمنى طول مدته هذي عواقب طول العمر والمدد

وقال أيضاً :

تناستني الآجال حتى كأنني دريئة سفر بالفلاة حسيرُ
ولما تدع مني الثمانون منة كأني اذا رمتُ القيام كسيرُ
أؤدي صلاتي قاعدا وسجودها عليّ إذا رمتُ السجود عسير
وقد أنذرتني هذه الحال أنني دَنَتْ رحلةٌ مني وحان مسير (١)

١ - العماد الاصفهاني ، الخريدة ، حـ - I ، ص ٥٣٩ ؛ هذه القصيدة لم ترد في ديوان أسامة ، انظر أيضاً : الاعتبار ، إصدار حتي ، ص ١٦٣ ، ١٦٤ .

لقد تغيرت الظروف والاحداث ثانية ، بعد وفاة نور الدين ، فقد قدم صلاح الدين إلى دمشق ، ووحد سورية ومصر تحت سلطته بهدف تجميع القوى ضد الافرنج . ويسمع أسامة بأن دمشق وطنه الثاني أصبحت بيد صديقه القديم صلاح الدين ، ويكاتب ابنه أبا الفوارس بأن يسعى لدى صلاح الدين لدعوته إلى دمشق وتصبح الامور مؤاتية كلها . فيرسل إليه صلاح الدين كتاباً يرحب به في دمشق كصديق قديم وأمير يعتز به . ويغادر حصن كيفا إلى دمشق ليعيش بقية حياته وليقضي نحبه فيها .



رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

اقامة اسامة الثالثة بدمشق

أسامة وصلاح الدين ٥٧٠ - ٥٨٤ / ١١٧٤ - ١١٨٨

يبدو من شعر أسامة أنه عاش في أواخر أيامه في ضيق مادي ، وهذا ما يرى في قصيدته التي أرسل بها من حصن كيفا إلى ابنه أبي الفوارس في دمشق شاكياً إليه العوز والفقر وعدم تمكنه من الكرم والعطاء ، وشدة ألمه لذلك :

أبا الفوارس مالاقيت من زمني ... أشدّ من قبضة كفي من الجود
فعدت انهزّني جانٍ تعوّد أن ... يجني نداي رآني يابس العود(١)

لكن استدعاه صلاح الدين إلى دمشق وأهداه بيتاً ، ووهبه هبات كثيرة ، وأقطعه قرية في المعرة ، التي كانت ، كما يقول أسامة ، من ممتلكاته سابقاً : « نقب عني في البلاد ودوني الحزن والسهل ، بضيعة من الأرض لا مال لدي ولا أهل . فاستنقذني من أنياب النوائب برأيه

---

١ - الخريدة ، إصدار درنبورغ ، ص ١٢٧ .

الجميل ، وحملني إلى بابه العالي بانعامه الغامر الجزيل ، وجبر ما هاضه الزمان مني ، ونفق على كرمه ماكسد علي من سواه من علومني . فغمرني بغرائب الرغائب ، وأهنأني ، من إنعامه أهنى المواهب ، حتى رعى لي بفائض الكرم ، ما أسلفت سواه من الخدم . فهو يعتدّ لي بذلك ويرعاه، رعاية من كأنه شاهده ورآه . فعطاياه تطرقني وأنا راقد ، وتسري إلي وأنا محتبس قاعد فأنا من إنعامه كل يوم في مزيد ، وإكرام كتكرمة الأهل وأنا أقل من العبيد . أمنني جميل رأيه حادث الحادثات ، وأخلف لي إنعامه ما سلبه الزمان بالنكبات المجحفات . وأفاض علي من نوافل فضله بعد تأدية فرضه وسنته ، من يعجز الأعناق عن حمل أيسر منته . ولم يبق لي جوده أملا أرجو نيله ، أقضي زماني بالدعاء به نهاره وليله . والرحمة التي تدارك بها البلاد ، وأحيى ببركاتها العباد . »[٢]

لقد جالس أسامة صلاح الدين ، وتكلم معه على الأدب ، وأعطاه النصائح في الحوادث الهامة . كما أن صلاح الدين كاتبه إذا كان بعيداً عن عن دمشق في حملاته ، مخبراً عن نتائج معاركه . وقد كان دوماً معجباً بديوان أسامة ، يصطحبه ولو كان خارجاً للغزوات[٣] . وكان يلعب معه بالشطرنج في أوقات فراغه .

---

١ ـ أبو شامة ، ح I ، ص ٢٦٤ .

٢ ـ أسامة ، الاعتبار ، إصدار درنبورغ ، النص العربي ، ١٥٣ ؛ الترجمة الروسية ، ص ٢٥٣ ـ ٢٥٤ .

٣ ـ أبو شامة ، ص ٢٤٢ ؛ والنعيمي ، الدارس ، ح I ، ص ٣٨٤ .

لقد عاش أسامة في هذه المدة حياة ترف وغنى ، وبـــدأ يلقى دروساً في البديـع .

ولعدم اشتراكه بالغزوات كان يواسي نفسه باشـتراك ابنه فيها ـ الساعد الأيمن لصلاح الدين ، وكذلك نظمه الشعر مفتخراً بمنـاسبـات الانتصارات ، ومحادثاته مع عماد الدين الاصفهاني . قال مادحا صلاح الدين بقصيدة عصماء ، مبيناً كرمه وجهاده وانتصاراته ، مطلعها :

يا ناصر الاسلام حين تخاذلت عنه الملوك ، ومظهر الايمان

جردت سيفك في العدا لا رغبة في الملك بل في طاعة الرحمن

فضربتهم ضرب الغرائب واضعا بالسيف ما رفعوا من الصلبان

لكن علاقة أسامة بصلاح الدين أصيبت مع الزمن بالفتور والبرودة، حتى إنه كان مجبراً على الاقامة الدائمة في بيته ، وكاتب العماد الاصفهـاني ليكون وسيطاً بينه وبين صلاح الدين . ومن المحتمل أن يكون سبب هذا الفتور عائداً الى الميول الشيعية عند أسامة ، التي غذتها حياته بين ظهراني الخلافة الفاطمية في مصر ، والتي أثرت في أفـكاره ومعتقداته الدينية ؛ وكان هذا التأثير واضحاً ايضاً في المحاضرات التي كان قـد ألقاهـا في دمشق في ذلك الوقت . يقول (الذهبي) إن اسامة كان شيعياً إمامياً . وكـــذلك يذكر (العاملي) أن الأشعار التاليـة إنمـا تنسـب إلى أسامة :

سلام على أهل الكساء هداتي ومن طاب محيائي بهم ومماتي
محبتهم لي حجة وَوَلَاهم ألاقي بها الرحمن عندوفاتي(١)

ومن المشهور أن صلاح الدين كان من مؤيدي المذهب السنّي « نصير السنة ، ومحيي دولة أمير المؤمنين وسنة الخلفاء الراشدين»(٢) .

ولذا انزوى أسامة في بيته يترقب موته بعد أن أذاقته الأيام مرارة الاغتراب ، بعيداً عن وطنه ، وفي ألم كامل شديد :

أنا في أهل دمشق وهم عدد الرمل وحيد ذو انفراد
ليس لي منهم أليف وشجت بيننا الألفة أسباب الوداد
يحسبوني إن رأوني وافداً قد أتاهم من بقايا قوم عاد
وانفرادي رشد لي والهوى أبدا يصرف عن سبل الرشاد

وها هو يصف نفسه بعد أن صار له من العمـــر ما يزيد على التسعين ، بالضعف العام وضعف السمع والبصر :

---

١ ـ العـاملي ، أعيان الشيعة ، ج XI ، ص ١٣ .
٢ ـ أسامة ، الاعتبار . إصدار حتي ، ص ١٦٤ .

لما بلغت من الحياة إلى مدى ... قد كنت أهواه تمنيت الردى
لم يبقِ طول العمر مني منّة ... ألقى بها صرف الزمان إذا اعتدى
ضعفت قواي وخانني الثقتان من ... بصري وسمعي حين شارفت المدى
فإذا نهضت حسبت أني حامل ... جبلا وأمشي إن مشيت مقيدا
وأدبُّ في كفي العصا وعهدتها ... في الحرب تحمل اسمرا ومهندا
وأبيتُ في لين المهاد مسهدا ... قلقاً كأنني افترشت الجَلْمدا
والمرء ينكس في الحياة وبينما ... بلغ الكمال وتمّ عاد كما بدا[1]

لقد قضى أسامة باقي أيام حياته الأخيرة في دمشق منتظراً موته ، ومات يوم الثلاثاء ليلاً ، ٢٣ رمضان ٥٨٤ / « تشرين ثاني ١١٨٨[2] . بعد أن عاش ٩٦ سنة قمرية أو ٩٣ سنة شمسية ، ودفن في جبل قاسيون في سفحه المطل على دمشق ، . قال ابن خلكان : «وقد دخلت تربته وهي على جانب النهر يزيد الشمالي ، وقرات عنده شيئاً من القرآن وترحمت عليه » .

قبره كغيره من القبور هناك قد اندثر وقامت مكانه البنايات

---

١ ـ الاعتبار ، إصدار حتي ، ص ١٦١ .

٢ ـ ابن خلكان ، فوات ، حـ . I ، ص ٨٨ ؛ ياقوت ، معجم الأدباء ، حـ II ، ص ١٧٤ ، أبو شامه ، حـ I ، ص ٢٦٤ .

والدور الحديثة بطوابقها العدة .

إن أسامة نفسه رجل ذكي فوق العادة ، وموهوب ، وعالم ، لقد التقى بمختلف رجالات عصره ، فقرأ لهم شعره ، وتحدث معهم وتناقش ، وكثير منهم أشرنا إليه من قبل ، ونذكر أيضاً أبا سعد السمعاني ، وابن عساكر ، والعماد الاصفهاني ، والمقدسي . ولقد حفظت حتى الآن عبارات تنقد أسامة وتقومه ، بعضها يعود إلى معاصريـه ، وبعضها من قبـــل المؤلفين المتأخرين . وسنقتبس بعضها فيما يلي :

قال الذهبي في « تاريـخ دول الاسلام » عن أسامة : إنه « أحد أبطال الاسلام ، ورئيس الشعراء الأعلام » . وقال أيضاً في « سير أعلام النبلاء » : « أسامة ـ الأمير الكبير فارس الشام »[١] . وقال ياقوت في معجم الأدباء :

« وفي بني منقذ جماعة أمراء شعراء ، لكن أسامـــة أشعرهم وأشهرهم »[٢] . وقال العماد الاصفهاني : « وأسامة كاسمه في قوة نـثره ونظمه[٣] ، يلوح من كلامه أمارة الامارة ، ويؤسس بيت قريضه عمارة العبارة ، حلو المجالسة ، حالي المساجلة ، ندي الندى بماء الفـكاهة ، عالي

---

١ ـ الذهبي ، سير (مخطوطة مصورة) . حـ . XIII ، ص ٣٨ .
٢ ـ ياقوت ، معجم الأدباء ، حـ II ، ص ١٧٤ .
٣ ـ أسامة ، بالعربية تعني أحياناً « أسد » .

النجم في سماء النباهة معتدل التصاريف مطبوع التصانيف »[1] . وجاء في خريدة القصر : « هذا مؤيد الدولة من الأمراء الفضلاء والكرماء الكبراء والسادة القادة العظماء ، وقد متعه الله بالعمر وطول البقاء ، وهو من المعدودين من شجعان الشام . وفرسان الاسلام ، ولم تزل بنو منقذ ملاك شيزر ، وقد جمعوا السيادة والمفخر ، والمهم من الأجواد والأمجاد ... وما فيهم إلا ذو فضل وبذل ، وإحسان وعدل ، وما منهم إلا من له نظم مطبوع ، وشعر مصنوع ، ومن له قصيدة وله مقطوع ، وهذا مؤيد الدولة أغرفهم في الحسب ، وأعرفهم بالأدب » . وقال الاصفهاني أيضاً : « اكنت قد طالعت مذيل السمعاني ، ووجدته قد وصّفه وقـرّظه ، وأنشدني العامري له باصفهان من شعره ما حفظه ، وكنت أتمنّى أبـداً لقياه ، وأشيم على البعد حياه ، حتى لقيته في صفر سنة ٧١ - يعني ٥٧١ بدمشق »[2] .

ويقول ابن عساكر : «اجتمعت به بدمشق وأنشدني قصائد من شعره سنة (٥٥٨) وقال لي أبو عبدالله محمد بن الحسن بن الملحي : ان الأمير مؤيد الدولة أسامة شاعر أهل الدهر ، ملك عنان النظم والنثر ، متصرف في معانيه ، لاحق بطبقة أبيه ، ليس يستقصى وصفه بعان ، ولا يعبر عن شرحها بلسان، فقصائده الطوال لا يفرق بينها وبين شعر ابن الوليد[3]،

١ - أبو شامة ، حـ ١ ، ٢٦٤ .

٢ - الخريده ، حـ ١ ، ٤٩٨ .

٣ - مسلم بن الوليد ، شاعر مشهور من شعراء القرن الثامن انظر :
EI, V.,III, p.758

ولا ينكر على منشدها نسبتها إلى لبيد ، وهي على طرف لسانه ، بحسن بيانه ، غير محتفل بطولها ولا يتعثر لفظه العالي في شيء من فضولها ، وأما المقطعات فأحلى من الشهد ، وألذ من النوم بعد السهد ، في كل معنى غريب وشرح عجيب »[1] .

١ ـ تهذيب تاريخ ابن عساكر ، ج II ، ص ٤٠١ .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الثاني

الآثار الأدبية لأسامة

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

كان أسامة منذ أيام الفتوة قد بدأ قرض الشعر ، ورافقه نظم الشعر طيلة حياته ، مسجلا به ضربات قلبه ، والمشاعر الوطنية وظروف الحياة في ذلك العصر الذي عاش فيه .

لقد كانت حياته في ديار بكر هادئة نسبياً ، إذ قد هرم ، وخفتت شعلته الحربية القتالية ، فأعطى كل مقدراته التأليف الأدبي .ولذا فقد كانت هذه الحقبة من حياته فترة نشاطه الأدبي والعلمي . واشتهر في عصر كأديب ، وكاتب ، ومؤرخ وشاعر . لقد صنف أكثر من ٢٠ مؤلفاً ، معظمها مفقود حتى الآن .

وإنطلاقاً من فن ومحتوى مؤلفات أسامة ، ولسهولة دراستها دراسة نقدية فقد قسمناها على النحو التالي :

أولاً ـ المؤلفات ذات الطابع الأدبي ـ التي تشكل القسم الأكبر والأشهر من مؤلفاته :

١ ـ « **ديوان أسامة** » وهو يجمع الأشعار التي قالها أسامة في مدة عمره ، من أيام فتوته إلى آخر أيامه في شيخوخته ، ولقد قام بجمعه بنفسه في الثمانينات من القرن XII . فرتبه بحسب الموضوعات الشعرية، كما أشار إلى ذلك في المقدمة : « وقد جعلته مشتملاً على ستة أبواب :

الباب الأول : الغزل ، وينتظم في سلكه شكوى الفراق ، ووصف الحنين والاشتياق ، ثم ما يجوز أن يلتحق به من مكاتبات الاخوان ومعاتبات الخلان ، وما يجذب هذا المعنى بأهدافه . الباب الثاني - الاوصاف. الثالث : الملح . الرابع - المديح ، ويتشبث به القول في الفخر المتضمن مآثر الانسان وخلاله ، ثم الحماسة ، الراجع معناها إلى التمدح بالشجاعة والبسالة . الخامس - الأدب ، ويعلق بسببه الأمثال ، ومايجري بجراها ، أو يلاحظ مغزاها ، ثم وصف الشيب والكبر ، ثم الزهد لمن تأمل واعتبر ، السادس - المراثي . وكل باب من هذه الابواب المذكورة مرتب على حروف المعجم ، فصلا فصلاً ، يقرب تناول ما يقصد منه[1]» . لكن من المؤسف أن القصائد غير مؤرخة .

وتجدر الاشارة إلى أنه في الديوان « لايوجد فصل للهجاء » . وذلك لان أسامة قد اعتبر الهجاء فناً حقيراً ، لم يكتب فيه ، وأسامة يؤكد هذا في المقدمة : « على أني بحمد الله ما فهت برفث ولاهجاء»[2]. لكن يفهم من شعر أسامة أنه بصعوبة قد انحرف عن هذا الفن لوجود أسباب كانت تثير في نفسه شعور الهجاء :

ظلمت شعري، وليس الظلم من شيمي ... يطيعني حين أدعوه وأعصيه
يهم أن يذكر القوم اللئام بما ... فيهم فأزجره عنهم، وأثنيه[3]

---

١ - أسامة ، الديوان ، ص ٤٤ - ٤٥ .
٢ - أسامة ، الديوان ، ص ٤٣ .
٣ - أسامة ، الديوان ، ص ٢٤٣ .

لكن الملامح الهجائية(1) لشعره إنما تظهر في فصل « الملح » .
نعم ولكن هذا الفصل غير كبير الحجم (٥ صفحات ، من صفحة ١٥٦ - ١٦١) ، في الوقت الذي يمثل فيه الهجاء مكاناً واضحاً كبيراً في دواوين الشعراء العرب .

لقد نظم أسامة في فن « المدح » لكن لالأجل العطايا والهبات : « ولا مدحت لطمع ولا رجاء » (ديوانه ، ص ٤٣) . ومدح تلك القلة ، التي كانت قريبة إلى نفسه (أُنُرا وطلائع وعباساً وابنه نصراً ونور الدين وصلاح الدين) ، ومن العجيب أنه لاتعرف قصيدة واحدة في عماد الدين الزنكي ، ربما أن هذه القصيدة قد وجدت لكن أسامة لم يوردها في « ديوانه » عندما جمعه .

وافتخر بني منقذ ، ومدحهم ، ومدح نفسه وشجاعته وإقدامه ، وصموده أمام حوادث ونكبات الزمان . وهو في هذا يذكرنا بالمتنبي ؛ فكلاهما ينطلق من اعتقاده بانه لا يقل مجداً ورفعة ورجولة عن ممدوحه .

وبكاء أسامة في « رثائه » مُر أليم ، فهو يرثي الأقرباء والاصدقاء ،

---

١ - أسامة يمزح وينكت على الأعرج (ديوان ، ص ١٥٩) . إن هذا يذكر بهجاء ابن الرومي للأحدب .

وخاصة ابنه أبا بكر عتيق[1] ، الذي شغل رثاؤه تقريباً $\frac{2}{3}$ من رثاء أسامة . ثم إن فقدان الوطن والاقرباء والاعزاء قد طبع شعره بطابع الحزن والالم .

أما أسلوب وصور أسامة في النسيب ، فمتشابهة مع أسلوب وصور الشعراء الجاهليين ، لكن شعره في هذا المجال يتميز باخلاص أكثر وعاطفة صادقة مجروحة ؛ إذا عبّر عن آلامه العميقة ، ومشاعره الشخصية .

ان أكثر الحوادث الهامة في هذا العصر ، وحياة أسامة الشخصية قد لاقت صدى وانعكاسا في شعره ، الذي يسجل الحوادث التاريخية والمعارك وبطولات أبطال عصره المسلمين في صراعهم مع الفرنجة . فأشعاره تصور جميع مراحل حياته ، وبفضلها يمكننا أن نجمع حقائق هامة عن

---

١ - يبدو من شعر أسامة [ديوانه ، ص ٢٩٧] أن ابنه عتيق ، الذي كان له من العمر سبع سنوات ، قد مات عندما كان لاسامة من العمر أكثر من ثمانين ، ويعني هذاأنه ولد بعد فروة :

رمتني في عشر الثمانين نكبة . . . .

رزئت أبا بكر ، على شغفي به فيالهفتا، ماذاجنى الحادث البكر

لسبع ،مضت من عمره، غاله الردى وكنت أرجي أن يطول به العمر

هذه الحياة ، وعن آلامه في غربته ، وحنينه إلى وطنه وأهله :

- أهكذا أنا ، باقي العمر مغترب ناء عن الأهل والأوطان والسكن
لا تستقر جيادي في معرسها حتى أروّعها بالشدّ والطعن

- أين السرور من المروع بالنوى أبدا ، فلا وطن ، ولا خلان
عيد البرية موسم لعويله وسرورهم فيه له أحزان
واذا رأى الشمل الجميع تزاحمت في قلبه الأمواة والنيران [1]

وأسامة كثيره من فحول شعراء العربية السابقين ، أعاد النظر في في شعره ممحصاً مشذباً ، وحذف تلك الاشعار التي لم تعجبه ونقحه وهذبه :

كلما رددت في شعري النظر بان ضعف العَي فيه ، وظهر
فأجيل الفكر في تقليله فاذا قلّ اختصرت المختصر

وأشعار « الديوان » التي قام أسامة بكل اعتناء بتنقيحها وجمعها في آخر حياته معبرة ، حقيقية المأخذ ، جميلة العبارة ، قريبة الفهم ، عميقة الفكرة ، وخلافاً لاكثر شعراء ذلك العصر ، لم يسع أسامة إلى

---

١ ـ أسامة ، الديوان ، ص ١٠٤ .

التزيين اللفظي الذي كان المميزة الفنية للشعر حينئذ ؛ فاستعمال الطباق والجناس والمقابلة والاستعارة لم ينته به إلى التلاعب اللفظي ، الشغل الشاغل لمعظم معاصريه .

إن تراكيب شعر أسامة بعيدة عن التعقيد ، تعبر عن أفكاره بشكل عمق وصدق وإخلاص . ولفهم شعره لا نحتاج إلى المعاجم ذلك لان اللفظة عنده واضحة مفهومة سهلة بسيطة . وتتابع أفكاره بسهولة وسلاسة . لقد كتب قصائد قصيرة ، وطويلة أيضاً ؛ فبعض قصائده يتألف من تسعين بيتاً تقريباً[1] . وكان يقتبس أحياناً بعض أبيات من أشعار الشعراء الآخرين[2] ، أو من القرآن الكريم ، معبراً بهذا عن معرفة رائعة بشعر الشعراء الجاهليين والكلاسيكيين . ويبدأ قصائده في أغلب الاحيان - جرياً وراء التقليد - « بالنسيب » وأحياناً أخرى ينظم الشعر في الغرض الرئيسي مباشره دون مقدمات غزلية أو طللية ، خاصة إذا كان غرض القصيدة « مدحاً » أو « فخراً » . (انظر . الديوان ،

---

١ - انظر قصيدته [من نور الدين الزنكي إلى طلائع بن رزيك] ، الديوان ، ص ٢٠١ - ٢٠٦ .

٢ - يظهر هذا بوضوح في قصيدته « الميمية » ، [ص ٤٠ و ١٤٦ - ١٤٨] ، حيث يقتبس أشعاراً من شعر المتنبي ؛ وفي الرائية (ص ٧٢ و ١١٩) - من أشعار أبي فراس . وربما كان اقتباسه من أشعار هذين الشاعرين لاعجابه بهما ، ولانه كان قريباً منهما بنموذج حياته .

ص ١٧٠) . ويعتبر أسامة بحق واحداً من أولئك الشعراء الذين أعادوا للشعر قوته ،وفتوته ، واسلوبه الرفيع في أحسن ظروفه ، وعصور ازدهاره .

ويصنف قصائده في « الديوان » حسب موضوعاتها ، مما يخلق جواً واحداً للقصائد ذات اللون الواحد ، ويسهل دراسة فن الشاعر : طريقته ومنهجه في كل غرض من أغراضه . لكن كان من المفيد جداً لو قام أسامة بتاريخ قصائده ، والاشارة إلى مناسباتها ليدرك الجو الذي أحاط به عندماقرضها .

ولا بد من الاشارة إلى أن أسامة لم يجمع جميع أشعاره في ديوانه . ففي مؤلفاته الاخرى : [الاعتبار ، والعصا ، ولباب الآداب ، والمنازل] يعثر على أشعار لا يمكن العثور عليها في « الديوان » ؛ ففي « كتاب المنازل والديار » ، مثلاً ، يعثر على (٢٩) مقطوعة ، تشتمل على (١٢٧) بيتاً[١] لم ترد في « الديوان » . وعلاوة على هذا فان مقطوعات من أشعار أسامة توجد في مؤلفات مؤلفين آخرين : في « الخريدة » لعماد الدين الاصفهاني ، و « الروضتين » لأبي شامة ، و «تاريخ الاسلام» للذهبي ، و « شذرات الذهب » لابن عماد الحنبلي ، و « جمهرة أنساب العرب » لأبي الغنائم الشيزري ، و « مسالك الأبصار » لابن فضل الله

---

١ - أسامة ، المنازل ، ص ٢٦ - ٢٩ ، ٧٦ - ٧٨ ، ١٩٣ ، ٢١٨ ، ٢٣٦ ، ٢٤٣ ، ٣٠٣ - ٣٠٦ ، ٤١٩ .

العمري ، « ومعجم الأدباء » لياقوت ، و «وفيات الاعيان »لابن خلكان، وخلو « الديوان من هذه الاشعار لا يدل على عدم جودتها . وكان أحمد بدوي وحامد عبدالمجيد قد كتبا في المقدمة لاصدار « الديوان » ص (٩) ، عن تصميمهما على جمع أشعار أسامة التي لم يوردها في « ديوانه » ،لكنهما ، على ما يبدو ، لم يحققا هذه الفكرة . ولذا فاننا نقترح : إما إصدار « الديوان » ثانية ، بعد تضمينه جميع أشعار أسامة ، أو جمع كل الاشعار التي لم ترد في الديوان ، وإصدارها في ملحق خاص .

و « الديوان » مخطوطة واحدة[1] مشهورة ، محفوظة في دار الكتب في القاهرة تحت رقم ١٦٨٧٧[2] ، تقع في [٣٩٠] ورقة ، قام

---

١ ـ لقد أشار عبدالمالك السيد إلى وجود مخطوطة أخرى « للديوان» ، كانت محفوظة في بغداد عند عبدالرحمن صالح الراوي ، فأخذها المازني بقصد إصدارها بعدتحقيقها . لكن المازني لم يحقق هذاالهدف. وكتب عبدالمالك السيد بأن المخطوطة تقع في (٤٠٠) صفحة ـ على ما يذكر ـ ، وكانت مكتوبة قبل أكثر من (٦٠٠) سنة؛ أي في عام (١٣٤٧) . انظر . مجلة « الكتاب » ، كانون الثاني ، ١٩٤٧ ، مجلد . III ، ج . III ، ص ٥٠٦ .

٢ ـ هل المخطوطة التي ذكرها السيد هي نفسها تلك المخطوطة المحفوظة في دار الكتب ، أم أنها غيرها ؟! إن هذا السؤال يبقى قائماً ينتظر الاجابة الصحيحة .

بنسخهاعبدالعزيز بن أحمد العجمي عام ٦٨٨/١٢٨٩ ؛ وحققها ، وقدم لها أ . بدري ، و ح . عبدالمجيد ، ووضحا ، وشرحا الكلمات الصعبة ، ووضعا فهارس الاعلام ، والقوافي (حسب الموضوعات الشعرية[١] .

٣ - كتاب البديع :

يعتبر هذا الكتاب من اوائل مؤلفات أسامة ، وربما كان أولها ؛ فقد كتبه عام ١١٢٨ ، عندما عاش في إحدى قرى شيزر (انظر أعلى ، ص ، ٧٠) . وليس للكتاب أهمية كبيرة ، ذلك لأنه مشابه لكتاب آخر في « البديع » بفصوله ومحتواه . ولانجد فيه مادة أدبية ، كما تقع على ذلك في مؤلفات أسامة الاخرى . وجاء في مقدمة الكتاب مايلي: « وهذا كتاب جمعت فيه ماتفرق في كتب العلماء الاقدمين المصنفة في نقد الشعر ، وذكر محاسنه ، وعيوبه ، فلهم فضل الابتداع ، ولي فضيلة الاتباع . والذي وقفت عليه من كتب : «كتاب البديع » لابن المعتز ، « وكتاب الصناعتين » للعسكري ، « وكتاب نقد الشعر » لقدامة ، « وكتاب العمدة » لابن رشيق .... فجمعت من ذلك أحسن أبوابه ، وذكرت منه أحسن مقالاته ، ليكون كتابي مغنياً عن هذه الكتب ، مضمنة أحسن ما فيها»[٢] .

---

١ - ديوان أسامة بن منقذ ، حققه ، وقدم له الدكتور أحمد أحمد بدوي ، وحامد عبدالمجيد ، القاهرة ، المطبعة الاميرية ، ١٩٥٣ .

٢ - أسامة ، البديع ، ص ٨ .

هناك خمس مخطوطات مشهورة لهذا الكتاب :

آ ـ مخطوطة مكتبة بلدية الاسكندرية ، المحفوظة تحت رقم ١٣٤١ ب ، منسوخة في عام ٧١١/١٣١١ ، وتقع في ١٢٩ ورقة[١] .

ب ـ مخطوطة برلين(الآن تيوبينجن) ، تحت رقم «We 134» ، وتقع في ١٢٩ ورقة ؛ وقسم منها منسوخ في ٩٠٠/١٤٩٤ ، أما القسم الباقي ففي عام ١١٧٠/١٧٣٧[٢] .

ج ـ المخطوطة الثالثة محفوظة في معهد الدراسات الشرقية، فرع لينينغراد، التابع، لأكاديمية العلوم السوفياتية، تحت رقم [B 538] , [No. 461] [محفوظات قديمة] وتقع في ٩٧ ورقة لكن الاوراق الاولى مفقودة والمخطوطة مكتوبة بخط مصري جميل ، في ذي الحجة عام ١٠٣٩/تموز ١٦٣٠ ، وموصوفة باختصار من قبل الاكاديمك السوفياتي إ . ي . كراتشكوفسكي[٣] .

ء ـ الرابعة محفوظة في « دار الكتب » في القاهرة[٤] تحت رقم (٥م بديع[٥]) ، تقع في ١٢٩ ورقة ، بدون تاريخ النسخ ، وبدون

---

١ ـ حسين ، م . ، أسامة ، ص ١٠٠ .

٢ ـ (2 Ahlwardt, VoL.Vl, p .412 (No.7277)

٣ ـ كراتشكوفسكي ، إ . ي . مؤلفات مختارة . ج II ، ص ٢٦٨ .

٤ ـ فهرس دار الكتب ، ج ، IV ، ص ، ١٢٤ .

٥ ـ حسين ، م . ، أسامة ، ص ١٠٠ .

مقدمة ، كما أن بعض الورقات الاخيرة مفقودة .

هـ - الخامسة محفوظة في ، ومسماة « مختصر مقدمة الشعر » ، تحت رقم « Cod 848Warn »[1] . ولقد قام أ . بدوي و ح . عبدالمجيد ، بالاعتماد على مخطوطة دار الكتب ، باصدار الكتاب لاول مرة في عام ١٩٦٠ ، في القاهرة[2] . والكتاب موزع على فصول حسب أنواع وأجناس البديع في الادب العربي ، التي بلغت عند أسامة (٩٥) نوعاً .

٣ - « كتاب الغريبين » :

وله مخطوطة واحدة ، محفوظة في « قونية » ، جاء في صفحتها الاخيرة حسب اخبار حتي الذي يقول : « وفي رسالة خاصة من الشيخ خليل الخالدي بالقدس أنه رأى وهو بقونية نسخة من « كتاب الغريبين » في آخره ماصورته » : - « وكان الفراغ منه يوم الاثنين ثالث وعشرين شهر رمضان سنة خمس وخمسين وخمسمائة بمدينة حمص . كتبه لنفسه منقذ بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني

---

١ - كتالوك ليدن ، الطبعة الثانية ، حـ . 1 ، ص١٥٢-١٥٣ (No. 293).
المخطوطات رقم (ب ، د ، هـ) مشار إليها في بروكلمان : حـ . I ، ص٣١٦-٣١٩ .
Brockelmann, C,ALVol. I, p. 316 – 319

٢ - البديع في نقد الشعر ، لأسامة بن منقذ ، تحقيق الدكتور أحمد بدوي وزميله ، طبعة الحلبي ، مصر ، (القاهرة) ، ١٩٦٠ .

المالكي »[1] .

ولا نملك معلومات أخرى عن هذا الكتاب ، لكننا نفترض أنه « كتاب عن الألفاظ الغريبة في القرآن والحديث » ، ذلك لأن مثل هذه المؤلفات في هذه المواضيع كانت قد ظهرت في الادب العربي ، والثقافة الاسلامية منذ حوالي القرن التاسع الميلادي . وحول هذا الافتراض دار النقاش بيني وبين البروفيسور السوفياتي ، المستعرب بيلايف ، الذي أكد صحة الافتراض بأدلة مقنعة لا مجال لسوقها الآن .

٤ ـ « كتاب المنازل والديار » :

يحتوي هذا الكتاب على مجموعة كبيرة من الاشعار بينما تقل فيه المقطوعات النثرية ، حيث ينتقل أسامة إلى النثر أحياناً في حالات خاصة ، ليفسر تعبيره الشعري ، أو ليحكي رواية أو قصة لتوضيح حادثة معينة ، أو حقيقة غامضة .

وكان الدافع لجمع هذه الاشعار ، وتأليف هذا الكتاب دافعاً خاصاً ذاتياً ؛ قام أسامة بذلك محاولاً إيجاد التعزية لنفسه ، ومواساتها في الألم والحزن اللذين ألما به وتركا طابع السوداوية والتشاؤم على جميع مؤلفاته اللاحقة .

---

١ ـ رسالة من خليل الخالدي من القدس ، انظر . ف . حتي ، في مقدمته « لكتاب الاعتبار » ، النص العربي ، ص . (ك) .

جمع أسامة في هذا المؤلف أشعار معاصريه ، وأشعار الشعراء السابقين منذ الجاهلية إلى عصره ، تلك الاشعار التي تعزف فيها انغام الحزن لفقدان الاقرباء والاهل ، والحنين إلى الوطن المهجور ، وحزن الفراق والبعد عن المحبوبة ، وتذكر السعادة القديمة في أرض الوطن المهجور ، في مجتمع الاصدقاء والاقرباء ـ أبناء العشيرة والسلالة ، وتذكر اللقاءات السعيدة ... الخ .. وكأنه يريد بذلك أن يعيد الفاظ الشاعرة الخنساء ، التي وجدت عزاء نفسها في بكائها على أخيها ، وفي حزن وآلام الآخرين إذ قالت :

ولولا كثرة الباكين حولي   على إخوانهم لقتلتُ نفسي

« فكتاب المنازل والديار » صدىً (لتراجيديا) أسامة ،وإنعكاس، وإظهار لمشاعره المؤلمة الحزينة . ومن الضروري أن نؤكد أن أسامة قد سعى في هذا المؤلف أحياناً وراء صفة عامة من صفات التأليف في ذلك العصر ، وهي البعد عن الموضوع الاساسي ، والاستطراد إلى موضوعات ثانوية،ليس لها ارتباط بالهدف الاساسي ، مسهباً في الحديث عن هذا الحدث الثانوي(١)،

---

١ ـ انظر . المنازل ، ص ٣٥٠ ـ ٣٨٠ ، حديث أسامة عن بناء « الكعبة » ؛ وصفحة ٥٦ ـ ٦٢ حديثه عن مقتل الشاعر كعب بن الأشرف ، وصفحة ٩٤ ـ ٩٥ حديثه عن عروة بن الورد .. الخ ..

وذلك ـ حسب رأيه ـ كي لا يرهق القارىء ،[٢] ، ويمله ، وليحقق له فرص التنوع في القراءة .

« لكتاب المنازل والديار » أهمية واضحة ، وقيمة بينة ، وقيمته تكمن في كونه أثراً أدبياً من آثار القرن الثاني عشر ، تنعكس فيـــه روح ذلك العصر ، وشخصية أسامة أيضاً . وعلاوة على هذه فان قيمته تزداد إذا عرفنا أن الاصدارات النقدية لآثار القرن الثاني عشر قليـــلة ، فمؤلف كأسامة ، أديب وشاعر ، في اختياره لمادة كتابه هذا ، إنمـا يلعب ـ بهذا الاختيار ـ دوراً هاماً جداً في دراســـة الادب في ذلك العصر ؛ ذلك لأن أسامة يمتلك الذوق الادبي الفني في اختيار المقطوعات ، وهذا يعطينا صورة عن طبيعة تقييمه ونقده الشعر .

أما أهمية الكتاب الاساسية فتتركز في كونه ـ بطريقة ترتيبـه ، ومادته المجموعة فيه ـ يعطي مادة غزيرة ضخمة يمكن أن تكون أساساً حياً لدراســـة الموضوعات الادبية في الشعر العربي ، كما انـه ، في نفس الوقت ، يساعد مساعدة ملحوظة على تطور هذا الاتجاه في البحث والدراسة فى علم الادب وتاريخه .

وبشـكل تقريبي ، فان أكثر الاشعار المختـــارة في الكتاب عن الآثار ، وبقايا الديار ، والاطلال ، ما هي إلا أجزاء من القصائـــد ،

---

١ ـ أسامة ، المنازل ، ص ٥ ؛ المخطوطة ، الورقة ٦ (آ) .

وبخاصة من الجزء الالزامي في القصيدة العربية والذي سمي « بالبكاء على على الاطلال » ، وتحول مع الزمن إلى تقليد أدبي الزامي ، ودخل في صلب نهج القصيدة .

لقد أشار المستشرق السوفياتي الكبير الاكاديميك إ . ي . كراتشوفسكي إلى قيمة كتاب أسامة ، وأهميته في دراسة الموضوعات الادبية قائلاً « أسامة ، وهو غير شاك ، طبعاً ، في امكانية النظره الجمالية لكتابه المفعم بالمشاعر والعواطف ، جمع فيه مادة غنيه من أجل مثل هذا العمل ، واضعاً بذلك الكثير من إشارات الملام [لمثل هذه الدراسة] . إن كل هذه المادة تقريباً ، يمكن أن تنتقل لتصبح تحت تصرف الباحث الاوروبي ، منقذة هذا الباحث من بحث وتفتيش طويلين [لجمع مثل هذه المادة] وفي هذا تكمن القيمة العظمى لكتاب أسامة ، ومن غير الممكن أن يفقد (هذا الكتاب) من تاريخ الادب العربي والحياة»(١) .

ويمتلك « كتاب المنازل والديار » قيمة أدبية كبيرة ، ويثير اهتمامات الاختصاصيين ويستقطبها بقوة . وأهميته في عصرنا هذا قد فاقت بكثير بكثير تلك الاهداف الاساسية التي من أجلها وضع أسامة كتابه : إذ لقد جمع في هذا الكتاب حوالي ٥٠٠٠ بيتٍ من الشعر العربي الرائع ، والتي لا يمكننا ـ أحياناً ـ أن نعثر عليها في دواوين شعرائها . إنه

---

١ ـ كراتشكوفسكي ، إ . ي . ، مؤلفات مختارة . ج II ، ص ٢٨٢ ـ ٢٨٣

أشبه بالمجموعات الشعرية المشهورة « كالحماسة » و « الأمالي » . وأشعاره كلها مجموعة ومختارة من قبل شاعر ، يمتلك ذوقاً أدبياً رفيعاً ، وإحساساً نقدياً عجيبا .

إن المخطوطة الوحيدة للكتاب ، الفريدة في العالم ، محفوظة في معهد الدراسات الشرقية ـ فرع لينينغراد ـ التابع لاكاديمية العلوم السوفياتية ، تحت رقم (C35) ، وتقع في ٢٥٠ ورقة . وحسب المعلومات المكتوبة في آخر المخطوطة فان الذي كتبها إنما هو اسامة ذاته ، عندما كان في حصن كيفا ، وكتابتها كانت في جمادى الاولى لعام ٥٦٨هـ/ كانون أول عام ١١٧٢ . وبالاستناد الى هذه المخطوطة فان كلا المستشرقين « فرين » و « كراتشكوفسكي » قد وصلا إلى النتيجة التالية : « إن المخطوطة إنما كتبت بخط المؤلف نفسه (أفتوجراف) » . لكن يعقوب صروف في عام (١٩٠٧) قد ارتأى بان الناسخ (الكاتب) لكتاب أسامة هذا إنما هو (غنائم) : ربما قد بيض مسودة أسامة التي لم تصلنا ، وبعد ذلك قد قرأ هذه المبيضة على المؤلف أسامه ، كي يصحح بنفسه الاخطاء التي يمكن أن تكون قد وقعت نتيجة (التبييض) ،ولذا فان المخطوطة التي وصلتنا ـ حسب رأي صروف ـ إنما هي بخط (غنائم). وأسامة نفسه في « كتاب الاعتبار » يتحدث عن (غنائم) ، الذي كان خادماً لابيه ، وشاركه في رحلات الصيد ، وكان صاحب حرفة جيدة ، بليغاً في حديثه ، حسن التأدب ، وربما قد امتلك خطاً جميلاً ، وربما قد طلب أسامة الهرم منه المساعدة لينسخ له مؤلفاته .

إن ما يرجح افتراضنا الاخير ، كون (غنائم) الناسخ الحقيقي ـ في حياة أسامة ـ لمؤلف آخر من مؤلفاته (انظر رقم ٦) . لكننا لانقطع بصحة افتراضنا هذا ، بل يبقى السؤال مفتوحاً ، يستدعي الجواب المدعم بالادلة والبراهين ، إنما نفترض أحد فرضيتين لا ثالثة لهما : إما أن أسامة ذاته قد كتب الكتاب بخط يده ، أو أن غنائم كتبه له في حياته .

أما ما يتعلق بتاريخ المخطوطة ، فبالاعتماد على المعلومات التي توفرت لنا ، يمكننا أن نتتبع هذا التاريخ حتى بداية القرن التاسع عشر تقريباً ، أي إلى وقت ظهورها في المتحف الاسيوي في لينينغراد ، ثم نتابع دراسة تاريخها حتى أيامنا هذه .

لقد بقي « كتاب المنازل والديار » في دمشق حتى القرن السادس عشر ، وكان مالكه محمد الطلاوي . ونرى بان المخطوطة قد وصلت إلى دمشق عندما انتقل أسامة من حصن كيفا في شمال سورية إلى دمشق . وفي النصف الثاني من القرن السادس عشر كانت المخطوطة قد فقدت الورقة الاولى ، لكن الورقة الاخيرة كانت لا تزال محفوظة ، وكان قدكتب عليها بخط محمد الطلاوي تاريخ ومكان الكتابة .

وبعد وفاة الطلاوي ظهر تذييلان على المخطوطة الواحد تلو الآخر ، عام ١٦٥٩ و ١٨١٠ يشهدان أن المخطوطة كانت لا تزال في سورية أيضاً ؛ أولاً في دمشق ، وبعدها في حلب . وكان مالكها الشاعر المشهور فتح الله الطرابلسي ـ صديق ج . ل . روسو (Joseph Louis Rousseau)

القنصل الفرنسي . وفي عام ١٨٢٥ وصلت مخطوطة أسامة الى روسيا ، ضمن مجموعة روسو التي كانت في عدادها ، على أرجح تقدير ، وذلك بفضل مساعي سلفتردو ساسي المشهور . ونفترض ان روسو قد أخذها من الطرابلسي . وفي العشرينيات من القرن التاسع عشر تقدم في أعمال المستعرب خ . د . فرين[1] على إشارة إلى (أفتوجراف) - نسخة لكتاب مكتوبة بخط المؤلف) - أسامة بن منقذ :«كتاب المنازل والديار»، وإلى أنه محفوظ في المتحف الآسيوي في لينينغراد - روسيا .

وبطريق الصدفة كان قد عثر المستشرق السوفياتي إ .ي. كراتشكوفسكي على هذه الاشارة في أعمال ب . أ.دورن عن المتحف الآسيوي[2] ، لكن كراتشكوفسكي شك في وجود المخطوطة ، وفي صحة هذه الاشارات اليها ، ذلك لاعتقاده بانه من غير الممكن أن تكون المخطوطة موجودة في العالم ، في الوقت الذي لم يعرف عنها أي شيء المستعرب الفرنسي هرتويغ درنبورغ ، الذي درس جميع مؤلفات أسامة ردحاً طويلاً من الزمن ، دون أن يعثر في أبحاثه على أية إشارة إلى مخطوطة « كتاب المنازل والديار » هذه . لكن كراتشكوفسكي لم يقف عند حدود الشكوك ، بل أخذ بالبحث عن المخطوطة بين مخطوطات المتحف الآسيوي إلى أن وجدها فعلاً ، ثم قام بوصفها وصفاً دقيقاً

---

١ - فرين ، خ . د . ، وثائق روسية قديمة CПδ ، عام ١٨٣٦ ، رقم «XIV» ص ٥٠ - ٥٩ .

٢ - Dorn, B.A., p. 289 - 293

في عام ١٩٢٥[1] . وبعد ، في عام ١٩٦١ قام المستشرق السوفياتي الدكتور أ . ب . خالدوف بتصوير المخطوطة ، وإصدار هذا المصور مع مقدمة باللغة الروسية ، وفهارس عدة للاعلام ، والاماكن ، والقوافي ، الخ .. أما في البلاد العربية ، فبالاعتماد على هذا المصور قام « المكتب الاسلامي » باصدار المخطوطة في كتاب محقق ، ثم بعد ذلك ، في عام ١٩٦٨ قام مصطفى حجازي باصدار الكتاب محققاً تحقيقاً نقدياً مع دراسة وملاحظات وشروح[2] .

سمي هذا المؤلف « كتاب المنازل والديار » ، لكن لاتوجد ثقة كاملة بانه سمي هكذا منذ البداية . ذلك لأن ورقة المخطوطة المكتوب

١ - كراتشكوفسكي ، إ . ي . ، مؤلفات مختارة . ج II ، ص ٢٦٦ - ٢٨٣ ؛ ج I ، ص ٧١ - ٧٤ .

٢ - المنازل والديار ، تأليف أسامة بن منقذ ، تحقيق مصطفى حجازي، القاهرة ، ١٩٦٨ .

يشير مصطفى حجازي في مقدمته إلى أن إصدار «المكتب الاسلامي» لا يتمتع بالجودة العلمية ، وإلى أنه صورة عن المصور الروسي . لكننا في الواقع ، وقفنا على « إصدار المكتب الاسلامي » هذا ، وعلى إصدار حجازي وثبت لدينا أن المكتب الاسلامي قد قام بجهد علمي كبير مشكور عليه ، قد اعتمد عليه مصطفى حجازي ذاته . وفي حديث شخصي مع أحد المساهمين في إصدار « المكتب الاسلامي » لمسنا المرارة لموقف الاستاذ حجازي هذا .

عليها العنوان إنما كتبت أخـــيراً بخـــط مغاير لخـــط المخطوطـــة . لكـن من المشهور عندنا أن أسامة غالباً كان يستعمل عناوين غـــير مسجوعة تقع في كلمة أو كلمتين عندما يسمي مؤلفاته كما هو الحال في هذه التسمية : « كتاب المنازل والديار » .. ولا بد من التأكيد على أن تسمية الكتاب هكذا أصلاً لا تمتلك أية علاقة ـ إطلاقاً ـ مع الجغرافيا ، خلافاً للافتراض الخاطيء ، الذي افترضه زكي . أ . [1] .

ان التصور الجيد عن تركيب ودوافع كتابة هذا المؤلف يمكن أن تعطيه مقدمة أسامة له : « قال أسامة بن مرشد ... بن منقذ الكناني... وإن تنقلت بنا الدنيا تنقل الظلال ، وتقلب بنا الدهر من حال إلى حال ، وعفت رسوم آثارنا ، واستولت يد الاعتداء على ديارنا ، وتصدع شملنا أيدي سبأ ، وتشعبت بنا سبل المذاهب ، وأخنت الحـوادث على معشري

---

١ ـ انظر . أعلام العرب ، رقم ٧٩ ، ص ١١٥ ـ ١١٦ . يقـول زكي . أ. : « وانتهت أيامه الأولى [أيام أسامة] ـ وكان قد قـابل فيها الخليفة مرتين ـ إلى الاقتناع بان ما ينبغي عمله إنما هو وضع كتاب في (المنازل والديار) . لقد رأى كثيراً من المدن، وشاهد كثيراً من الصحاري والوديان والبحار والانهار إلا أن ما يمر أمام ناظريه في هذه الايام شيء مختلـف ربما يميزه الاصرار والعـزم والوقار والرسوخ وقد يتسم بالدوام ، وأن يرغم الجميع على التأمل فيه وطول التفكير ، لكنه ما مسك الـم حتى هاجت به الذكريات ورأى أن يكتب لهؤلاء الذين صانعوه شيئاً » .

وآلي ، وأفنى الموت أسودي وأشبالي ، كل ذلك بقدر جرى به القلم في القدم ، وقضاء سبقت به المشيئة قبل الخروج إلى الوجود من العدم ، ألقى ما سر من ذلك وساء بالتسليم والرضى ، وأفوض إليه -جل وعلا- فيما قدر وقضى ، وأقر بان ابتلاءه بعدله ومعافاته بفضله ، وأرجو من رحمته أن يكون ذلك كفارة لذنوب سلفت ، وموعظة دعت عن المعاصي وصرفت ، وان ما نالنا من الدنيا وآفاتها بذنوب اقترفناهافرحمنا بتعجيل مكافاتها .

وبعـــد ، جعلك الله بنجوة من النوائب ، وأصفى لك الحياة من كدر الشوائب ، ولاراعك بحادثة تنسي ما قبلها ، وتصغر ما بعدها ، وتفتح من النكبات ابواباً لا تستطيع سدها ، فاني دعاني الى جمع هـذا الكتاب مانال بلادي وأوطاني من الخراب ، فان الزمن جر عليها ذيله ، وصرف إلى تعفيتها حوله وحيله ، فأصبحت كأن لم تكن بالامس ، موحشة العرصات بعد الأنس ، قد دثر عمرانها ، وهلك سكانها ، فعادت مغانيهـا رسوما ، والمسرات بها حسرات وهموماً .

ولقد وقفت عليها بعدما أصابها من الزلازل ما أصابها ، وهي أول أرض مس جلدي ترابها ، فـــما عـرفت داري ، ولا دور والدي وإخوتي ولا دور اعمامي وبني عمي وأسرتي ، فبهت متحيراً مستعيذاً بالله من عظيم بلائه ، وانتزاع ما خوله من نعمائه .

ثم انصرفت فلا أبثك خيبتي رعش القيام أميس ميس الاصور

وقد عظمت الرزيه حتى غاضت بوادر الدموع ، وتتابعت الزفرات

حتى أقامت حنايا الضلوع ، وما اقتصرت حوادث الزمان على خراب الديار دون هلاك السكان ، بل كان هلاكهم أجمع ، كارتداد الطرف وأسرع .

ثم استمرت النكبات تترى من ذلك الحين وهلم جرا ، فاسترحت إلى جمع هذا الكتاب فجعلته في بكاء للديار والاحباب ، وذلك لا يفيد ولايجدي ، ولكنه مبلغ جهدي ، والى الله عز وجل أشكو مالقيت من زماني وانفرادي من أهلي وإخواني ، وإغترابي عن بلادي وأوطاني .

وإليه عز وجل أرغب في أن يمن علي وعليهم بغفرانه ، ويعوضنا برحمته في دار رضوانه .

وقد جعلت هذا الكتاب فصولا ، فافتتحت كل فصل بما يوافق حالي ثم أفضت فيما يوافق ذا القلب الخالي ، لكيلا يأتي الكتاب وهو كله عويل ونياحة ، ليس فيه لسوى ذي البت راحة .

على أن رزايا الدنيا كالأجل تمهل ولا تهمل ، وإن تولت اليوم فغداً تقبل فما أحد من ريبهن سليم .

وتتبع هذا المعنى صعب ، وحصره لايمكن ، وقد أوردت منه ما يبرد اللوعة ، ويسكن الروعة ، والعذر إلى من وقف عليه مبذول ، وهو عند الكرام مقبول»(١) .

يقسم أسامة كتابه إلى ستة عشر فصلاً ، يعددها بالتفصيل في نهاية المقدمة . ولكل فصل عنوان خاص : « فصل في ذكر الديار » ، «فصل فيذكر البيت » ... الخ . وقد جمع في كل فصل أشعاراً وقطعاً نثرية حول

١ ـ أسامة : المنازل ، ص ٣-٤ [الحول والحيل : القوة] .

المعنى الذي ينضوي عليه عنوان الفصل ، أي حول « الديار » ، أو « البيت » ، أو « الربع » .. الخ ... ويعطي أحياناً شرحاً وتفسيراً المصطلح (اللفظة) التي هي عنوان الفصل ، وحولها تدور الأشعار . وتساق الاشعار ضمن كل فصل ، أحياناً ، حسب النظام التاريخي : حسب حياة الشعراء ؛ وأحياناً أخرى حسب القيمة الفنية للاشعار دون مراعاة حياة الشعراء . ثم يسوق اشعاره واشعار أقربائه في آخر كل فصل مع توضيح وشرح للكلمات التي يراها صعبة الفهم . ولا بد من الاشارة إلى أنه أحياناً لا يراعي العنوان في الفصل ، بل يبتعد عن الموضوع كثيراً[1] .

٥ ـ كتاب العصا[2] :

---

١ ـ لزيادة التفصيل عن مضمون المخطوطة ، انظر :
كراتشكوفسكي ، إ . ي . ، مؤلفات مختارة . حـ II ، ص ٢٧٦ ـ ٢٨٣ ؛ ومصطفى حجازي ، المقدمة لكتاب « المنازل والديار » ، ص ٢١ .

٢ ـ يعطي ياقوت الحموي اسم هذا الكتاب حرفاً . ويسميه خطأ « كتاب القضاء » . وينقل عنه هذه التسميه في عصرنا أ . شاكر (انظر . ياقوت ، معجم الأدباء ، حـ II ، ص ١٨١) . أما أحمد أمين فقد كتب مقالة بعنوان « العصا أم القضاء » ، حيث يوضح فيها خطأ التسمية « كتاب القضاء » . (أنظر أ . أمين ، فيض الخاطر ، حـ . IV ، ص ١٤٣ ـ ١٤٧) .

إن هذا الكتاب يشبه بدوره « كتاب المنازل والديار » ، ووجه الشبه يتجلى في كونه مثله يتألف من مجموعة أشعار تدور حول موضوع واحد هو « العصا » . والكتاب قد كتب للتسلية – حسب كلام المؤلف ذاته –. لقد جمع أسامة في هذا الكتاب قصصاً ، وأساطير ، وكل الاخبار عن العصا ، ابتداء من عصا موسى ، وانتهاء بأشعاره عن عصاه ، التي اعتمد عليها في شيخوخته . أما فضل أسامة في هذا الكتاب فيتركز في جمعه لكثير من الشعر ، الممزوج بالقصص والنكت والنوادر ، التي رافقتها أحياناً بعض الشروح والايضاحات اللغوية . وتتخلل هذه القصص قصص عن عصر أسامة ، يعطينا فيها صوراً حية عن حياة ذلك العصر[1] . إن أسامة – بمزجه الشعر مع القصص والنوادر والحكايات – قد أكد الصورة الواسعة الانتشار بالنسبة « للمجموعات » و « المختارات » عند العرب ، حيث أحبوا جمع المواد المتنوعة المختلفة عن مواضيع متباينة في هذه المجموعات . وربما قد ظهر لنا أسامة بكتاباته هنا ، بالنسبة للموضوع – أكثر أصالة ، ذلك لاضافته أشعاره الخاصة في هذه المادة ، لكن إيراد هذه المعلومات قد جاء عنده ايضاً بصورة جاهزة ، متشابهة مع الصور الماضية . وهنا – في « كتاب العصا » نلاقي عملا مع مادة بحث أشبه ما تكون بمادة مكتب عالم لا يسعى وراء روح الحياة ، ونقلها ، بقدر ما يسعى وراء جمع المادة الموزعة في الكتب . حتى إن أسامة بأشعاره

---

١ – القصة عن المتصوفين والزهاد . انظر :

Derenbourg, Le vie d'Ousama, p. 528-529

التي أوردها في هذا الكتاب ـ والتي لم تكن فقط في مقطوعات صغيرة ، بل ، أحياناً ، في قصائد طويلة ـ لم يظهر الاصالة الحقيقية ، والتجديد الواضح ، ذلك لأن كل هذه الاشعار تنضوي تحت لواء الشعر الكلاسيكي.وينعكس فيهذا الكتاب بشكل جلي واضح المعرفة والتعمق في اللغة والشعر ، تلك المعرفة ، وهذا التعمق اللذان لم يكونا ، اطلاقا ، الصفة الضرورية الحتمية لعربي قد نال ثقافة المدرسة فقط كما هو الحال عند اسامة ، ذلك الشاعر المشهور بين معاصريه ،حتى وبين الذين تلوه . اسامة ـ هنا في هذه المعرفة ، وهذا التعمق ـ يعتبر واحداً من الطبقة المتوسطة ، التي تقول الشعر . وفي الواقع ، يمكن اعتبار القسم القليل من مؤلفاته ممتلكا لهذه الصفة : صفة الأدب المكتبي،صفة التجميع ، لكن هذا لا ينفي إطلاقا وجود مؤلفات اخرى لأسامة كان فيها مبدعا ، منطلقاً من واقع الحياة .

في التقديم « لكتاب العصا » أشار أسامة ، الى انه كان قد فقد « كتاب عن العصا » ، لذا أراد أن يؤلف كتابا حول هذا الموضوع ، ويضمنه جميع ما جمعه عن « العصا » :«ولي نحواً من ستين سنةأتطلب «كتاب العصا » بالشام ومصر والعراق والحجاز والجزيرةوديار بكر ولا أجد من يعرفه،وكلما تعذر وجوده ازددت حرصاً على طلبه ، إلى ان حداني اليأس منه على ان جمعت هذا الكتاب وترجمته بكتاب العصا ، ولا أدري أكان ذلك الكتاب على هذا الوضع أم على وضع غيره ، غير أنني قد بلغت النفس مناها ، ولا ارتاب في ان مؤلف ذلك الكتاب وقع له

معنى فأجاد في تأليفه وتنميقه ، وكتابي هذا وان كان خاليا من العلوم التي يتجمل التصانيف بها ، ويرغب اولو الفضل في طلبها ، فما يخلو من اخبار واشعار تميل النفوس اليها ،ويحسن موقعها ممن وقف عليها ، وقد افتتحته بذكر عصاموسى ، عليه السلام ، ثم عصا سليمان بن داود ، عليهما السلام، ثم أفضت في ذكر الاخبار والاشعار التي يأتي فيها ذكر العصا، ولا أدعي انني أتيت على ذكر العصا فيما جمعتهوإنما أوردت منه ما حفظته وسمعته» [1]
وأورد أسامة في هذا الكتاب اشعاره أيضاً كعادته .

في عام ٥٧١ / ١١٧٥ كان أسامة قد كاتبالقاضيالفاضل حولهذا هذا الكتاب وأورد هذه المكاتبة عماد الدين الاصفهاني في كتابه « خريدة القصر » ، ويفهم منها أن أسامة الذي كان وقتها في ديار بكر، أرسل مؤلفه إلى وزير مصر ، والفاضل أوصل له رأي الوزير عن المؤلف .

تعرف في أيامنا ثلاث مخطوطات لكتاب العصا :

آ ـ الاولى محفوظة في مكتبة الامبروزيان في ميلانو تحت رقم [Ambr H 125] ، وتاريخ نسخها ١٠٦٧ / ١٦٥٧[2] .

ب ـ الثانية محفوظةفيليدنتحت رقم« Cod 2093 = Amin 370»؛ تقع في ٩٤ ورقة ، وعليها تاريخ ١٠٩٤ / ١٦٨٣ ، الذي ، كما نعتقد، ربما كان تاريخ نسخها[3] .

---

١ ـ H. Deredqourg‘ Le vie d’Ousama, C. 505

٢ ـ حسين ، م . أسامة ، ص ٩٧ .

٣ ـ ك . ليدن . حـ . I ، ص ٢٨٠ ؛ عن هذه المخطوطة كتبت مقالة . انظر : ZDMG 69,73

ج ـ الثالثة تقع في ١٢٢ ورقة ، منسوخة عام ١١٢١/١٧٠٩ ، وعلى هذه المخطوطة كان هرتوينغ درنبورغ قد اعتمد في إصدار مقدمة المخطوطة عام ١٨٨٨ ، وترجمها للغة الفرنسية(١) .

٦ ـ لباب الآداب :

إن هذا المؤلف أيضاً مجموعة شعرية ؛ تركيبه وترتيب المادة فيه متشابهان مع تركيب وترتيب مادة « كتاب المنازل والديار » الذي إنما هو نموذج عن مؤلفات ذلك العصر ، الذي يعتبر جمع المواد حسب موضوع معين من أهم صفاتها .

قسم أسامة كتابه « لباب الآداب » إلى سبعة أبواب : (١) في الوصايا ؛ (٢) في السياسة ؛ (٣) في الكرم ؛ (٤) في الشجاعة ؛ (٥) في الأدب بمعنى مكارم الاخلاق ، وقد قسم هذا الباب إلى خمسة عشر فصلاً ؛ (٦) في البلاغة ؛ (٧) في الحكمه . ويورد في هذه الابواب ما يتعلق بها ، مما جاء في القرآن ، ثم ماورد في حديث الرسول ، ثم المأثور من أقوال الحكماء ، وأشعار الشعراء .

إن التشابه بين « باب المراثي » (ص ٤٠٥ ـ ٤١٠) ، في « لباب الآداب » و « فصل بكاء الاهل والاخوان » في « كتاب المنازل والديار » [ص ٢٧٣ وما بعد] يلقى مباشرة في عين القارىء ، ذلك

---

١ ـ H. Derenbourg, Le vie d'Ousama, p 499 – 543.

لأن أسامة يورد ، هنا وهناك ، نفس المقطوعات الشعرية ، مع نفس التقديم لها ، في حين تورد هذه المقطوعات في المصادر الاخرى بروايات مختلفة عن رواية أسامة ، واحياناً باختلاف في الالفاظ ، لكن مع هذا التشابه بين مؤلفي أسامة يوجد أيضاً اختلاف بيّن : ففي « لباب الآداب » يورد أسامة أشعاراً في الكرم والحكمة ، وفي الفضائل الاخرى التي يفتخر بها العرب . «ولباب الآداب » بالمقارنة مع « المنازل » : يتميز بأهدافه التربوية والوعظية : يتكلم في الكتاب على الثقة والاخلاص ، وعلى حفظ السر وكتمانه ، وعلى التحفظ والاقتصاد في الرغبات وكبح جماحها ، وعلى عدم السماح بالكذب أو الغضب ، وعلى الاعمال الحسنة واللطافة . ولم يغفل أسامة البلاغة في هذا الكتاب أيضاً ، إذ يخصص فصلا للبديع لكن هنا ، في تمييز عن « كتاب البديع » ، يتوقف أسامة على الجوانب التطبيقية العملية . وباعتماده على ذوقه الادبي النقدي يورد أشعاراً جيدة ، مقتبسة من أشعار الشعراء الآخرين . ويبدو لنا أسامة في هذا وكأنه ناقد أدبي . وليس هذا بعجيب ، ذلك لأن رجلاً كأسامة ، ينقد أشعاره الخاصة ويغربلها بعد إعادة النظر فيها ، ويحذف تلك التي أصابت نجاحاً قليلاً ، لا يمكن أن يكون متساهلاً مع أشعار الشعراء الآخرين ، بل سينقدها حتماً ، ويعطي المجال الواسع لذوقه الادبي النقدي في حسن الاختيار والانتقاء والاقتباس .

إن « كتاب لباب الآداب » ، بصورة عامة ، ثمرة عقل أسامة الناضج قد كتب من قبل أديب ذي خبرة كبيرة ، وتجربة ، ومعرفة واسعة . والمواد المجموعة في الكتاب إنما تدل على اطلاع أسامة الواسع ،

وعلى حسه السليم ، وذوقه الرفيع في الاختيار .

وللكتاب مخطوطتان :

آ ـ الاولى ضمن مجموعة كتب يعقوب صروف الخاصة ، وتقع في ٢٤٩ ورقة (٢١ دفتراً) ؛ فقدت من القسم الثاني (٦) أوراق ، كما أن الورقة الاخيرة من هذا القسم قد فقدت جزئياً بعض التعليقات والشروح. وهناك تعليق وملاحظة على المخطوطة يعود تاريخها إلى عام ٩٧٤/١١٨٣-١١٨٤. والمخطوطة منسوخة في حياة أسامة ، عندما كان له من العمر ٩١ عاماً ، حيث قد أهدى أسامة هذا الكتاب إلى ولده مرهف . ومكان النسخ دمشق ، والناسخ هو « غنائم المعري »[١] . لقد قام يعقوب صروف بوصف المخطوطة ، وكتب عنها عدة مقالات[٢] . وصورة المخطوطة محفوظة بدار الكتب تحت رقم (٤٧٠٠ أدب) .

ب ـ المخطوطة الثانية ـ « في دار الكتب » ، في القاهرة ، منسوخة عام ١٠٦٦ / ١٦٥٦ . والناسخ هو رجب الحريري . وبالاعتماد على هاتين المخطوطتين قام الاستاذ أحمد شاكر باصدار الكتاب في القاهرة، عام ١٩٣٥[٣] .

---

١ ـ ك . دار الكتب ، الاصدار الثاني ، حـ . ١ ، رقم ٣٥٠ .

٢ ـ لباب الآداب ، المقدمة ، ص ٧ ـ ٩ ؛ ومجلة المقتطف ، مجلد ٣٢ ، ص ٩٥٣ ـ ٩٦٠ ، كانون أول ، ١٩٠٧ ؛ انظر أيضاً : مجلد ٣٣ ، نيسان ، ١٩٠٨ ، ص ٣٠٨ ـ ٣١٣ .

٣ ـ لباب الآداب ، لأسامة بن منقذ ، حققه أحمد شاكر ، مطبعة الرحمانية بمصر ، ١٩٣٥ .

٧ - التأسّي والتسلّي :

إن هذا الكتاب متشابه أيضاً بمضمونه ومحتواه مع « كتاب المنازل والديار » ، ومع « باب المراثي » في « كتاب لباب الآداب » . وللأسف فان هذا الكتاب مفقود ، ومشار إليه عند أسامة في مؤلفه رقم (٦)[١]. ولهذا ، كنتيجة منطقية ، قد كتب قبل عام ٥٧٩ / ١١٨٣ - ١١٨٤ .

هذا ما كتبه أسامة في « لباب الآداب » (ص٤١٠) :

« قد أوردت في كتابي المترجم بكتاب (التأسي والتسلي) من ذكر الصبر ما ورد فيه في الكتاب العزيز ، والاحاديث المرفوعة ، وشيئاً من أقوال الحكماء ، ومن الاشعار والاخبار ، فغنيت عن الاطالة فيه في كتابي هذا ، فأوردت في هذا الفصل مختصراً ، ... » ؛ « ما رأيت أن أخلي هذا الباب من ذكر شيء من المراثي ، فذكرت هذه النبذة منها ، وقد أوردت في كتابي المترجم بكتاب « التأسي والتسلي من المراثي والتمازي) ما غنيت به عن الاطالة ها هنا !!

٨ - ذيل يتيمة الدهر :

المؤلف مفقود ، ومذكور عند ياقوت الحموي ، وابن خلكان ، وحاجي خليفة[٢] .

---

١ - أسامة ، لباب الآداب ، ص ٢٩٤ و ٤١٠ .

٢ - ياقوت ، معجم الأدباء ، حـ . II ، ص ١٨٨ ؛ ابن خلكان ، حـ . II ، ص ٣٢٣ - ٣٢٤ ؛ ح.خ ، حـ . III ، ص ٢٣٨ ، رقم ٥١٣٦ .

٩ ـ الشيب والشباب :

وكذلك فان هذا الكتاب مفقود، ومشار اليه من قبل أسامة في مؤلفه رقم (٦)[1]، ويخبر ياقوت الحموي أن أسامة كان قد أهدى الكتاب لأبيه[2] .

إن مؤلفات هذه المجموعة ـ (المؤلفات ذات الطابع الأدبي) ـ غير متساوية القيمة لا بحجمها ، ولا بأهميتها . ثلاثة منها (المنازل ، والعصا ، ولباب الآداب) ما هي هي الا مجموعات شعرية . ونفترض أيضاً أن المؤلفات الاخرى المفقودة من هذه المجموعة هي مجموعات شعرية أيضاً .

ثانياً ـ مؤلفات تحمل طابع السيرة ، والطابع التاريخي .

١٠ ـ الاعتبار :

لقد كان لأسامة من العمر (٩٠) عاماً عندما كتب هذا الكتاب ، وجمع فيه مذكراته وملاحظاته عن العلاقات الحربيّة والسياسية التي كانت في مصر ، والعراق ، وسورية في القرن الثاني عشر ميلادي . ويصف بصدق وعدل وإخلاص المعارك مع الافرنج ، ويتناول بموضوعية الاخبار عن معظم موضوعات كتابه (يصف مثلاً كيف ألزم هو وزميل له على الفرار من قبل فارس افرنجي) . لكنه ، أحيانا ، في بعض الحوادث ،

---

١ ـ أسامة ، لباب الآداب ، ص ٣٧٧ .

٢ ـ ياقوت ، معجم الأدباء ، حـ II ، ص ١٨٢ .

ـ وخاصة في الاخبار عن حوادث مصر ، التي يمكن أن تعطي لشخصيته صفات سلبية ـ يحاول التملص ، والبعد عن الحقائق التاريخية ، وتبرير مواقفه الخاطئة باسلوب غير علمي ، وغير واقعي ، مظهراً بذلك موقفاً ذاتياً شخصياً من الأحداث (إذ ان الكثير المؤلم من هذه الاحداث كان قد نفذ ـ هكذا بصيغة المجهول ـ حسب كلامه) . لكنه رغم هذه المواقف السلبية ، يقول الحقيقة غالباً ، فهو يعجب بالبطولة ، مثلاً ، كما عند العرب ، كذلك عند الافرنج ، ويورد الكثير من الحوادث المتنوعة في العلاقات المتبادلة بين المسلمين والافرنج في أيام الحروب الصليبية ؛ في أوقات المعارك والقتال والحرب ، كما أنه يورد العلاقات أيام الحياة السلمية ، ويصف بتفصيل زائد عادات وطباع وتقاليد الافرنج ، ويتحدث بمشاعر صادقة عميقة لطيفة عندما يتذكر أسرته : يقدس الأب الذي نظر اليه أسامة « بعيون المحبة » ، لكنه واقعي في حديثه عنه ـ رغم ذلك ـ . وهو لا يتكلم بحدة عن عمه الذي حرمه وطنه ، بل ـ على العكس ـ يتحدث بإكبار واعتزاز عن بطولاته وانتصاراته الحربية ، ولم يذكر اسمه مرة إلا وترحم عليه .

لقد كان أسامة ، في أكثر الحالات ، مشاهداً بأم العين لما يصف ، ولذا فان « كتاب الاعتبار » يعتبر أحد المصادر الهامة جداً عن تاريخ الحروب الصليبية ، وعلاوة على ذلك ، فانه أهم المصادر عن سيرة حياة أسامة الذاتية . إن كل مصائب الحياة والأيام إنما يسهلها على أسامة كون « مدة الحياة المقدرة للمرء لا تتغير » ، لكن هذا الاعتقاد الكامل

بالقضاء والقدر ، الذي ربما لم يظهر في كل قصة ، لا يأخذ عند أسامة الجانب السلبي « إذ إن الناس عندما يقررون بشدة على شيء فانهم لا بد ويحققونه » حسب رأي أسامة . ويورد في ذكره للافرنج دائماً عبارات « لعنهم الله ... الشياطين الافرنج ... الخ ... » . لكنه رغم هذا ، وبشكل زائد ، يقدر فيهم البطولة والشجاعة والاقدام ، ويذكر باعجاب الصفات الحسنة التي يراها فيهم . إن رأيه في الافرنج لم يتولد فقط نتيجة معرفته بهم في الحرب ، بل وأيام السلم أيضاً . ولهذا فان العبارات السابقة « لعنهم الله ، يلعنهم الله ».. ما هي إلا عبارات تقليدية ، ولا تعبر عن معتقد فكري حقيقي ، وليست موجهة إلى المسيحيين عامة . ويجب أن لا ننسى أن بين عمال وموظفي السلطنة والامارة والخلافه الكثير من المسيحيين ، حتى إن أطباء ذلك العصر ، تقريباً ، كلهم مسيحيون ، وجميعهم كانوا يعيشون برفاه ونعيم وسلام في بلاطات الامراء (المسلمين)، وبصورة خاصة في فترة الصراع العنيف مع الصليبيين . وهذا تأكيد آخر لما ذهبنا إليه في « المقدمة » من أن المسيحيين عاشوا بأمان في ظل الحكم الاسلامي ، وما ادعاء الصليبيين بتحرير المسيحيين إلا ادعاء باطل كنا قد دحضناه فيما سبق .

إن إقامة أسامة الأولى في دمشق - كما يظهر من كتاب الاعتبار- أعطته إمكانية أكبر للتعرف بشكل أقرب على الافرنج . حتى إن أسامة أحياناً يدعو بعضهم « أصدقاء » وكأنه قد تناسى دعوته السابقة لهم « بالشياطين » . ومع هذا فانه يتحدث باستفاضة عن طباع الافرنج ،

ويصفهم بالوحشية والقسوة ، ويتهكم على طبهم ، ويرى بأن إمكانية الرقي والتقدم إنما متوفرة للافرنج الذين يعيشون فى الشرق فقط ، ذلك لما يكسبونه من العرب والمسلمين .

في « كتاب الاعتبار » تظهر المفارقة الواضحة بين الشرق والغرب، ويأخذ الشرق قصب السبق في هذا المجال ، حتى لو طبقنا هـذا على مستوى الافراد : أبو أسامة ، مثلاً ، محارب وصياد ؛ يخصص الليل لنسخ القرآن ، والكتب عامة ، وأسامة أيضاً أديب ، ومؤرخ ،ورجل دين . وأعظم فقدان عنده في حياته كان ، بالنسبة له ، فقده مكتبته - ولم يكونا (اسامة وابوه) الوحيدين في هذا ، بل على منوالهما كان معظم رجالات المحيط الاجتماعي الذي يعيشون فيه . هذا هو «بيت المعرفة» في طرابلس يسقط في يد الصليبيين ، وها نحن نرى اميرين من امراء العرب المجاورين لطرابلس ـ (أبا اسامة وعمه) يذهبان إلى طرابلس لا لشراء الحلي والجوهرات والنساء ، بل ليفتدوا عالمين شيخين :الطليطلي وابن منير . فهل يا ترى شعر الافرنج بقيمة وخطورة المفتدين ؟! وإن شعروا بذلك فهل فهموه ؟! والجواب على هذه التساؤلات برأينا ورأي الكثر من العرب والمستشرقين هو النفي .

وبفضل « كتاب الاعتبار » نتعرف بشكل ادق واقرب على نموذج الفارس المسلم . اننا نعرفه الآن اكثر مما كان يعرفه المعاصرون له في العصور الوسطى ، واكثر مما عرفته جماهير الصليبيين . ويعتبر ف . حتي « كتاب الاعتبار » اول مسيرة ذاتية في الادب العربي. اما كراتشكوفسكي

فيكتب عن هذا ما يلي : « لا يمكن اعتبار الكتاب سيرة ذاتيه بالمعنى العادي للسيرة ، بل إنه (موزاييكي) جداً من اجل هـذا . لكن لا يمكن إلحاقه بأي فن آخر من فنون الأدب ، رغم ان المحـور الذي تدور حوله جميع القصص هو ـ حياة اسامة »[1] .

إننا ، في الآداب الأوروبية حتى القرن السادس عشر ، لا نجد فقط الاساس النظري للسيرة الذاتية بل نعثر ايضاً على اشكالها المتطورة المتقدمة .

اما بالنسبة للأدب العربي فان فكرة السيرة الذاتية كانت على الدوام غريبة، لكن يمكننا ان نعثر على ظواهر جزئية مفاجئة ـ طبعاً ـ مثلاً ، اعترافات الغزالي (مات عام ١١١١م) ، لكنها وبسرعة تدخل في مجـال علم النفس (بسيكولوجيا) . وعمر اليمني ، الذى قتل ابان المـؤامرة ضد صلاح الدين في عام ١١٧٥م ، في مقـدمته لكتابـه عن وزراء مصر ، يتحدث عن طفولته الخاصة . وإذا كان في الجزء الاساسي من القصة لا يتحـدث إلا عن الوزير المقصود ، فهو في المقـدمات ايضاً يكثر الحديث عن اهله واقربائه اكثر مما يتحدث عن نفسه .

أما عند أسامة فمن المحتمل أنه قد وجد نظام معـين أو فكرة محددة لطريقة كتابة الكتاب ، هذه الطريقة التي لا تتمسك بخط معين ،

---

١ ـ كراتشوفسكي ، إ . ي . ، مقدمة كتاب الاعتبار ، الـترجمـة الروسية ، ص ٣٦ .

إنما تستطرد من مجال إلى آخر على غرار معظم المؤلفات العربية . لكنه يبقى من الصعوبة بمكان أن يحكم فيما إذا كانت عنده فكرة معينة أم لا ، ذلك لأن الأوراق العشرين الاولى من « كتاب الاعتبار » مفقودة ، والقصة الأولى تبدأ من نصف الكلمة . وربما زالت هذه الصعوبة في الحكم على طريقة وفكرة أسامة فيما لو عثرنا على الصفحات المفقودة ،ذلك لأن من عادة أسامة ـ كما شاهدنا في معظم مؤلفاته المطبوعة في ـ مقدمته لمؤلفاته أنْ يشير إلى هدفه وغايته وطريقته . في الجزء الاول من « كتاب الاعتبار » يلاحظ بعض التنظيم الذي يحافظ عليه اسامة ، كم يرى هذا التنظيم في الجزء المخصص للحديث عن الصيد . أما في باقي الكتاب فطريقة إيراد المواد تكون أحياناً منظمة ، وأحياناً كثيرة دون تنظيم . وأشار أسامة إلى أن القصص تتابع وتتوارد بارتباط فيما بينها . وهو في انتقاله من قصة إلى أخرى يستعمل عبارات متنوعة [(وذكرت بفعلة [مسرهنك] ما فعله مالك بن الحارث الأشتر .)، (وحدث لي مثل هذا لما كنت ...) ، (هذه القصة تذكرني أخرى ..) ، (وشاهدت ما يشبه هذا) ... الخ ..] . وأحياناً يفقد خيط الاتصال . لكن هذا الاستطراد ، بشكل عام ، وقتي ، آني يعود بعده أسامة ليصف أيام حياته ، وحوادث عصره ، مخبراً بذلك أحفاده ـ (الخط العام للكتاب) .

إذا كانت بعض التواريخ الدقيقة ، التي يوردها أسامة ، وبعض التفصيلات الجزئية تدل على أنه سجلها في وقت مبكر ـ ربما منذ أن كان بمصر ـ : فان الجزء الاساسي كان قد كتبه وهو في حصن كيفا ،

في هدوء سياسي نسبي ، إذ ان التاريخ الاخير في الكتاب هو عام ١١٨٢ أي قبل وفاته بست سنوات .

إن الكتاب بأكمله قصة واحدة متكاملة متداخلة ، تكون في بعض الاماكن أكثر حيوية ، وفي بعضها الآخر أكثر هدوءاً ، لكن في كل هذا كانت القصة من الواقع ، وليست تجميعاً مكتبياً من الكتب . ولا بد من الاشارة إلى أن أسامة يظهر - في قسمه الذي يمدح فيه صلاح الدين - وكأنه من ادباء ذلك العصر ، حيث يكتب محافظاً على المقابل والسجع والازدواج . او فيما تبقى من الكتاب فحديثه حديث الشاعر ، العالم ، المؤرخ . وبشكل غير عادي عند المؤلف العربي ، وعند أسامة بالذات، يورد أسامة هنا بقلة أشعاره الخاصة ، ومقتبسات من أشعار غيره .

إذا كان « كتاب الاعتبار » بتركيبه ومادته ، تقريباً ، فريداً في الادب العربي حتى عصر أسامة على الاقل ، فانه في صفة اخرى ايضاً لا يمكن ان يعثر له على موازٍ ومجارٍ : إن هذه الصفة هي الاكثار من إيراد النكتة والنوادر ؛ إن روح الفكاهة تظهر عنده في الفاظ مفصولة، واحياناً اخرى في جمل وتراكيب طويلة ، ومرة ثالثة في لوحات كاملة . واحياناً تدب الاشارة المضحكة السريعة الحياة في كل القصة : أيدور الحديث عن الناس ام الحيوانات ؟! « فالفهد مناضل من اجل العقيدة » ، « والصقر يصطاد بواجب الخدمة » ، «والأسد جبان أحياناً » ، ومن ناحية أخرى : - الامير الذي كان ، بشكل مدهش غريب ، ثقيل الفهم - « أكل ايضاً اكثر (من ثقل فهمه) » ، والبدوي « يخاف الطاعون ،

رغم ان حياته مع اهله ابشع من الطاعون » ، والجيش نهب الحصن تماماً « كما ينهب البيزنطيون » . إن كل هذه التراكيب نماذج ساطعة عن فكاهته ونكتته . واحياناً يورد لوحة كاملة لحادثة واقعية ، لكن يوردها باسلوب إنما يدل على حضور روح النكته عنده : الحمار الذي اراد ان يقضي على خرج الدراهم لا يثير الفكاهة والابتسامات بدرجة اقل من الأسد الذي انقذ نفسه بالهرب من حشرة حول المسبح في في ارض الدار . وتظهر ايضاً اللوحة الحية في تصويره للعالم الذي ذهب مع الامير للصيد : فعوضاً عن الصيد جلس العالم الشيخ على التلة ، واخذ يصلي لله كي ينجي الحجلة من الصقر . إلى ما هنالك من امثلة عديدة مبثوثة في الكتاب .

إن « كتاب الاعتبار » بأكمله يتألف من لوحات منفصلة ، تارة مضحكة ، وأخرى محزنة ، وثالثة رهيبة مرعبة . وربما يترك الكتاب في نفس القارىء لأول قراءة صورة عامه مفتقرة للافكار والمحور ، لكنه بالتدريج يعطي الانطباع عن حقيقته : إنه كتاب حول فكرة موحدة تصور حياة الكاتب وعصره ، تلك الصورة المزوجة - إلى جانب كل ما قدمناه - بالدم الذي يروي ،من الواقع ، قصة عصر عصيب عاشه الكاتب .

ويمكننا أن نتحدث كثيراً ايضاً عن ابطال الكتاب ، وعن كتاب البطل لكننا نكتفي بهذا القدر من تحليلنا « لكتاب الاعتبار » ، الممثل لبعض الجوانب الفنية للنثر في اواخر العصر العباسي الثاني .

إن « كتاب الاعتبار » قصة حية لمشاهد عيان ، تنعكس فيها بسطوع ظروف الحياة ، وعادات ، وطباع ذلك العصر ، ومن هذه الزاوية بالذات يمكن اعتبار الكتاب أيضاً أهم وثيقة تاريخية .

والقيمة العظمى « للاعتبار » يعطيها الباحث العربي شوقي ضيف إذ يقول عنه بأنه : « مذكرات بديعة تصور لنا الفروسية العربية زمن الصليبيين ، كما تصور حياة المسلمين لعصره ، وحياة الصليبيين أنفسهم ... إنه طرفة بما يحوي من مذكرات سياسية وحربية واجتماعية عن عصره ، وهي مذكرات نفيسة ويزيد من نفاستها أن أكثر ما دون بها مما خبره بنفسه وشاهده بعينه »[1] .

إن « كتاب الاعتبار » مكتوب بلغة عربية أدبية لا تخلو من الخلل والعامية ، ويعثر فيها على انحرافات عن اللغة العربية الكلاسيكية ، وعن القواعد ، مع وجود الالفاظ العامية ، التي تعبر عن لهجة شمالي سورية في ذلك الحين . ولا بد للقارىء من أن يستغرب امكانية العثور على مثل هذه الاخطاء اللغوية في كتاب هذا الاديب الشاعر . لكن أسامة قد قدم – من حيث لا يدري – خدمة جلى للباحث الذي يؤرخ اللغة العربية ولهجاتها ، ويدرس تطور هذه اللهجات ، ومجالات القرب والبعد بين العامية والفصحى ، فكان أسامة بانزلاقه في كتابه الى العامية قد أعطى صورة عن لهجة العامة وقتها مما يفيد في متابعة دراسة تطور العامية .

---

١ – شوقي ضيف ، الترجمة الشخصية ، ص ٩٤ و ١٠٠ .

إن المخطوطة الوحيدة لهذا الكتاب محفوظـــة في الأوسكريـال (لكنها غير موصوفة في كتالوك كاسر ، ودرنبورغ) . ويتألف أصل المخطوطة من ٨٨ ورقة ، لكن (٢١) الورقة الأولى مفقودة ، وحفظ فقط ٦٧ ورقة ؛ والمخطوطة منسوخة في القرن VII / XII بخط سوري (انظر تصوير صفحتين موجودتين في إصدار حتي) . وحسب التزييلات التي على الورقة الاخيرة من المخطوطة (توجد صورتها في إصدار حـــتي أيضاً)، فان حفيد مرهف بن أسامة قد قرأ المخطوطة على جده مرهف في عام ٦١٠/١٢١٣ ، الذي أجاز نشرها . وهذا ما يؤكده توقيع مرهف الشخصي بريشته ذاتها . لكن حتى يبدي رأياً مخالفاً إذ يرى ان هـذه المعلومات تتعلق بالنسخة التي نسخت عنها هذه المخطوطة المحفوظة .

إن فضل البحث واكتشاف واصدار هذا المؤلف يعود الى هرتوينغ درنبورغ ، الذي أرسلته وزارة التعليم الفرنسية في عام ١٨٨٠ الى اسبانيا للبحث عن المخطوطات العربية في مكتبة الأوسكريال ودراستها . فوجد في نفس العام المخطوطة المذكورة ، لكنه اصـــدرها فيما بعـد ، في عام ١٨٨٥ - ١٨٨٦ ، وفي عام ١٨٩٤ قام بترجمتها الى اللغة الفرنسية . ثم ترجم « كتاب الاعتبار » فيما بعد الى الالمانية من قبل ج . شومـان في ١٩٠٥ وأصدر مع مقدمة لدرنبورغ[1] . وبعد ، في عام ١٩٢٢ ظهرت

---

1) G. Schuman, Usama ibn Munkidh memorian, Innsbruck, 1905

لكن حتي يؤكد أن هذه الترجمة قد اعتمدت كلياً على الترجمة الفرنسية ، ذلك لأن الاخطاء في الترجمتين متشابهة .

انظر . حتي ، المقدمة « لكتاب الاعتبار » ، ص (ك) .

الترجمة الروسية التي قام بها م .أ.سالبي مع مقدمة إ . ي. كراتشكوفسكي (إن الترجمة الروسية مقسمة إلى فصول تحت عناوين خاصة[1] . وفي عام ١٩٢٩ ظهرت الترجمة الانكليزية لحتي[2]) ؛ وفي نفس العام (١٩٢٩) ظهرت الترجمة الانكليزية الثانية لـ ج. بوتر[3] . وبعد عام قامف . حتي، بالاعتماد على مخطوطة الاوسكريال ، باصدار النص العربي « لكتاب الاعتبار[4] » .

وعدا « كتاب الاعتبار » يمكننا أن نضيف إلى هذه المجموعة ما يلي من مؤلفات أسامة :

١١ – «كتاب اخبار اهله» . ١٢ – «وكتاب تاريخ أيامه » ، فيما لو كان وجودهما أو تميزهما عن «كتاب الاعتبار» مؤكد . والكتابان معروفان عندنا فقط

---

١ – أسامة بن منقذ ، كتاب الاعتبار » ، موسكو ، ١٩٢٢ .
في عام ١٩٥٧ أصدرت الترجمة الروسية ثانية مع مقدمة بيلاييف .

2) H. Philip, An arab-Syrian--- New york, 1929

3) G.Potter, Authobiography Ousama ibn Mounkidh,London,1929

أسعد رستم في الكلية – مجلة الجامعة الاميركية ، جزء I ، مجلد ١٦ ، عام ١٩٢٩ ، ص ١٥١ – ١٥٢ يعطي قيمة ايجابية لترجمة حتي ، وقيمة سلبية لترجمة بوتر «التي بشكل أعمى تعتمد على الاصدار الفرنسي » .

٤ – الكتاب مقسم إلى ثلاثة أجزاء (حروب وأسفار ، نكت ونوادر ، أخبار الصيد) .

يذكرهما عند ياقوت[1] . لكننا نفترض أنها تسميتان وصفيتان « لكتاب الاعتبار » .

وكذلك يمكن العثور على المعلومات التاريخية لعصر أسامة في كتبه:

١٣ – «تاريخ القلاع والحصون» ، ١٤ – « أخبار النساء »، ١٥ – و « أخبار البلدان في مدة عمره » ، فيما اذا كان المؤلف الاخير يوجد ككتاب منفصل . ويمكن الافتراض بأن هذا المؤلف هو نفس « كتاب تاريخ القلاع والحصون » . وتجدر الاشارة إلى أن كل هذه المؤلفات مفقودة . اما فيما يتعلق بمادة « تاريخ القلاع والحصون » فانها غيرموزعةوفق النظام الجغرافي بل حسب التسلسل التاريخي ، والاخبار معطاة فيه (كما هو مشار في المصادر) حتى عام ١١٧٠ . ويشار اليه عند حاجي خليفة ، وبالاعتماد عليه – عند مصطفى حجازي[2] كما توجد اشارة الى «اخبار البلدان» عند الذهبي[3] . ويتحدث اسامة في « اخبار النساء » عن نساء عائلته وعصره . ونعتقد بأنه هنا انما يوسع المادة عن النساء ، التي وجدت في « الاعتبار » ...

ومن الواضح ، أن أسامة أراد إيقاظ المشاعر ليس عند رجال عصره فقط ، بل وعند نساء ذلك عصره ، ويسمو بها . فقد لعبت نساء أسرته : (جدته ، وأخته ، وأمه ، ومربيته) ، دوراً كبيراً في تربيته

---

١ ياقوت ، معجم الادباء ، ج . II ، ص ١٨٢ .

٢ – اسامة ، المنازل ، المقدمة ، ص ٥١ .

٣ – الذهبي ، سير ، ص ٦٠٢ .

مظهرتا، أكثر من مرة ، الشجاعة ، والكبرياء والصمود ، ولقد افتخر أسامة بهذه الصفات عند « أمهات الرجال ».

ان هذا المؤلف « أخبار النساء » مذكور في المؤلفين رقم (٤) ، و (١٠) ، وهذا يعني أنه مكتوب قبل ٥٨٦ / ١١٧٢ [١] .

ثالثاً : المؤلفات ذات الطابع التاريخي ـ البيوغرافي (التعريف بالاعلام) .

ان مؤلفات هذه المجموعة لا تمتلك قيمة كبيرة ، إذ في اثنين منها قد قام أسامة ، بشكل موجز، بكتابة معلومات مشهورة في مؤلفات مؤلف آخر . وتتكرر في البقية معلومات وحقائق كانت قديماً معطاة من قبل مؤلفين آخرين . كما أن أسامة يتوجه في هذه المؤلفات الى الماضي ، مختارا الشخصيات التي أظهرت في عصرها الحكمة والعدالة واصفاً الانتصار في بدر ... الخ ... وفي اعتقادنا أن المؤلف قد قام بكل هذا كي يوقظ أبناء عصره ، ويسمو بهم ، ويربيهم على أمثال أبطال العرب القدماء .

(١٦) . (التاريخ البدري) . ان هذا المؤلف مفقود ، لكن ذكره أسامة في كتابهرقم (١٧) ، وكنتيجة منطقية لهذا كان قد كتب قبل عام ١١٧٢/٥٦٧ (انظر فيما بعد) . ويذكره الذهبي أيضاً فى « سير

---

١ ـ ـ يكتب أسامة في « كتاب المنازل والديار » المخطوطة ، ورقة ٩٤ (آ) وفي إصدار حجازي ، ص ١٦٦ عن العلاقة بين بيهس بن صهيب بن عمرو وبين صفراء .

أعلام النبلاء » : عن يحيى بن أبي طي أنه ذكر في تاريخ الشيعة : حدثني أبي قال :

اجتمعت به (بأسامة و ط) دفعات وكان إمامياً حسن العقيدة الا انه كان يداري عن منصبه ويظهر التقية . وكان فيه خير وافر وكان يرفد الشيعة ، ويصل فقراءهم ، ويعطي الأشراف . وصنف كتباً منها (التأريخ البدري) جمع فيه أسماء من شهد بدراً من الفريقين ، وكتاب« أخبار البلدان في مدة عمره » ، وذيّل على خريدة القصر للباخرزي وله ديوان كبير ومصنفات [1] .

لقد أعطى ف . حتي تسمية هذا المؤلف محرفة فقال عنه « التأريخ البلدي » .

يكتب أسامة في المقدمة لهذا الكتاب : « انني وقعت في شوال سنة سبع وستين وخمسمائة على كتاب مناقب أمير المؤمنين أبي حفص عمر تأليف الامام الزاهد ، أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزى فرأيت ـ وبالله التوفيق ـ أن أجردها من الأسانيد ، وقد كنت أوردت في كتابي المترجم « بالتاريخ البدري » المشتمل على ذكر فضائل أهل بدر من مناقبه وفضائله وفتوحاته وأحكامه ما فيه مقنع وكفاية ، ولكن الزيادة من

---

١ ـ الذهبي ، سير ، ص ٦٠٢ . ان مؤلف الباخرزي يسمى « دمية القصر » ، إذاً فقد التبس الامر على الذهبي مع « خريدة القصر » لعماد الدين الاصفهاني (توفي في ٥٩٦ هـ ، بعد ١٢ عاماً من وفاة أسامة » .

الخير خير » (١) .

ومخطوطة هذا الكتاب محفوظة في القاهرة في دار الكتب برقم « ٢٣٣٤ تاريخ » .

ويكتب النعساني بأنه وجد مخطوطة اخرى لكتاب اسامة هذا ، فقام بنسخها ، وأرسلها الى أحمد تيمور (٢) .

(١٨) . مختصر مناقب أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز .
ومن الممكن ، أن هذا الكتاب يعود لذلك الزمن ، الذي يعود اليه الكتاب السابق رقم (١٧) .

ويوجد في تلك المخطوطة المحفوظة في دار الكتب (٣) . وهو اختصار لكتاب ابن الجوزي . ويكتب أسامة في مقدمة الكتاب ما يلي :

---

١ ـ م ـ حجازي ، مقدمة كتاب «المنازل» ، ص ٥١ .

٢ ـ ط . النعساني ، أسامة ، ص ٣٥ـ٣٦ ؛ مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق RAAD ، ح . X ، ص ٣١٣ . من المحتمل أن مصطفى حجازي يكتب عن هذه المخطوطة التي انتقلت مع كتب المكتبة التيمورية إلى دار الكتب منذ عام ١٩٣٢ (انظر . ك . التيمورية ، ح . I ، ص . (د) . وتحفظ في استنبول في مسجد آيا صوفيا نسخة أخرى لمؤلفي أسامة (مختصر ابن الخطاب ، ومختصرابن عبدالعزيز) ، انظر . ابن الجوزي ، ص ٣٩٤ . و GAL , SB , I , P. 916

٣ ـ أ . بدوي ، الحياة الأدبية ، ص ١٧١ .

«جردته من الأسانيد ، وحذفت ما فيه من التكرار ، وكتبته بخطي ، وكنت قد أوردت من مناقبه وورعه وحسن سيرته وزهـــده في كتابي المترجم (نصيحة الرعاة) ما جاء مفرقاً في اثناء ابواب الكتاب»[1] .

١٩ . فضائل الخلفاء الراشدين .

ان هذا المؤلف مفقود ، لكن ذكره أسامة في مؤلفه رقم (٦) .

رابعاً : المؤلفات ذات الطابع الوعظي الارشادي

لقد كتبأسامة في هذا الاتجاه كتابه « نصيحة الرعاة »الذي نعطيه رقم (٢٠) ، ومن المتحمل أن اسامة كان قد كتبه لواحد من الوزارء أو الامراء في ذلك العصر كما هي عادة معظم معاصريه . ومن الممكن أن « نصيحة الرعاة» يتشابه بالمحتوى والمضمون مع لباب الآداب (نقصـد باب السياسه) ، لكنه يفوقه بعدد الصفحات .

ان هذا العمل الأدبي مفقود ويـذكر من قبل أسامة في كتابـه رقم (١٨) ، ولذا نعتقد أنه كتب قبل عام ٥٦٧ / ١١٧٢ .

وبنسب مختلفة يمكن ن نلحق الى هذه المجموعة الوعظية الارشادية التربوية بعض المواد المبثوثة في مؤلفات أسامة المختلفة ، وبصورة خاصة في مؤلفات المجموعةالثالثة وفي « الاعتبار » .

ان المؤلفات المذكورة فيما يلي أيضاً منسوبة الى اسامة . لكننا لا

---

١ ـ م . حجازي ، المقدمة « لكتاب المنازل » ، ص ٥١ .

٢ ـ اسامة لباب الاداب ، ص ١٧٣ .

نتمكن من نسبتها الى أية مجموعة من المجموعات المشار اليها فيما سبق ، ذلك لأنها مفقودة ، ونحن لا نعرف عنها الا الاشارات إليها في بعض المصادر .

(٢١) . « النوم والاحلام » يشار إليه في مؤلف أسامة رقم (١٠) [١] .

(٢٢) . « أزهار الانهار » . مذكور عند حاجي خليفة [٢] وبالاعتماد عليه عند حتي [٣] .

(٢٣) . « التجائر المربحة والمساعي المنجحة » . يذكر عند حاجي خليفة [٤] ، وبالاستناد اليه عند درنبورغ [٥] وحتي .

في نهاية بحثنا ودراستنا للآثار الأدبية لأسامة يمكن ان ننسب «كتاب البديع» إلى مراحل حياته الاولى ، لكن لا يمكننا ان ننسب اي مؤلف لأسامة الى مرحلة اقامته الاولى بدمشق ، وكذلك بمصر ، ذلك لأن حياته في هذين القطرين كانت مكرسة للحيـاة السياسية ، ومن الممكن انـه كتب في هذه الحقبة بعض المؤلفات الشخصية ، او مسودات المؤلفـات ، لكنها ، ربما ، قد فقدت مع مكتبته .

ان الخمس عشرة سنة الأخيرة ، (١١٧٠ - ١١٨٤) تظهر خصبة

---

١ ـ أسامة ، الاعتبار ، إصدار حتي ، ص ١٨٦ .

٢ - ح . خ ، ج . I ، ص ٢٦١ ، رقم ٥٤٤ .

٣ ـ أسامة الاعتبار ، اصدار حتي ، ص ، (د) .

٤ - ح . خ . ج II ، ص ١٩١ .

جداً بالنسبة للانتاج الأدبي لأسامة . إذ كان قد كتب في هـذه المرحـلة معظم مؤلفاته : « كمختصر مناقب ابن الخطاب » ، و « مختصر مناقب ابن عبد العزيز » ، « والمنازل » ، « والعصا » ، « والقلاع والحصون » ، « والديوان » ، « والاعتبار » ، « ولباب الآداب » .

ومن المحتمل انه يمكن ان نلحق كتاب « الشيب والشباب » بهذه الحقبة ، وكذلك « كتاب التأسي والتسلي » ، ونفترض هذا ذلك لأنه قد ضمن « ديوانه » مجموعة اشعار ، حيث يبكي فيها فتوته وشبابه ، وكذلك يصف حنينه الى وطنه ومواطنيه في مراحل حياته في الغربة .

إن بعض مؤلفات اسامة يتجه الى الماضي، وبعضها الآخر يعكس احداث عصره وحياته الخاصة ، والقسم الثالث يظهر وكأنه اختصار لأعمال مؤلفين آخرين سابقين . اما الشهرة الادبية الكبيرة لأسامة فتكمن في مؤلفاته : « الاعتبار » حيث يعكس بوضوح عصره وحياته الخاصة ، « والديوان » بأسعاره ، و « لباب الآداب » ، بمادته الأدبية المختارة ، و « كتاب المنازل » المصدر الاول والأهم لدراسة تطور موضوع الوطن في الشعر العربي .



رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com



موضوع الوطن في الشعر العربي

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

لقد أشرنا سابقاً إلى أن الدراسة العلمية لكتاب أسامة « المنازل والديار » تعتبر أساساً لدراسة ظهور وتطور مفهوم الوطن في الشعر العربي من الجاهلية إلى نهاية القرن الثاني عشر الميلادي ، ذلك لكونه مجموعة أشعار للشعراء القدماء ، ولمعاصري أسامة ، مع أشعاره الخاصة ، حيث تشيع في هذه الأشعار كلها ألحان فقدان الوطن والمواطنين [الأهل].

إن المادة الشعرية المجموعة من قبل أسامة في هذا الكتاب موزعة في الفصول حسب الألفاظ التي اتخذها أسامة عناوين هذه الفصول في التبعية التالية : التبعية اللفظية لا المعنوية ، التبعية اللفظية التي تحدد الشكل الظاهري لمكان الاقامة والوطن والربع والمغنى .. الخ ، وتجميع الاشعار في فصول إنما يخضع فقط للفظة ، أي ، بتعبير آخر : إن ورود لفظة « ربع » ، مثلاً ، في أي نص شعري يحدد إيرادها من قبل أسامة تحت عنوان [فصل في ذكر الربع] ، وورود كلمة « مغنى » يحدد جمع الشعر في « فصل في ذكر المغنى » ، بغض النظر عن الدلالة المعنوية لهذه اللفظة ، وتطورها ، وبأي معنى استعملت في هذه المرحلة أو تلك ، وبكلمة أخرى ، تجمع الاشعار في فصول معينة حسب التبعية اللفظية ، دون الاهتمام بالمدلول التاريخي لهذه اللفظة ، وتطور هذا المدلول .

أما في بحثنا العلمي فكان لا بد لنا من إعادة تجميع المادة الشعرية في « كتاب المنازل والديار » حسب محتوى الاشعار ، ودلالاتها اللغوية تاريخياً (الشيء الذي لم يتبعه أسامة إطلاقاً) ، مع تحليل أوجه الدلالات

المعنوية للصورة الشعرية ، واللفظية واستعمالاتها حسب الظروف الاجتماعية والاقتصادية والتاريخية (الزمنية) . وفي تحليلنا ودراستنا لهذه الاشعار إنما ندرسها ونحللها حسب تتابعها التاريخي الزمني ، حسب ظهورها . وتهيأ لنا ذلك بترتيبها تاريخياً حسب حياة قائليها من الشعراء ، مما أعطانا الفرصة الثمينة لدراستنا التطورية هذه ، كما أننا بنسب محددة ، أخذنا بعين الاعتبار أيضاً مكان حياة هؤلاء الشعراء ، بقدر ماكان هذا ممكناً لنا .

لقد ظهر عالم الارتباطات الانسانية في الشعر العربي ، قبل كل شيء ، عبر التعبير عن أماكن سكن محددة [خيمة ، بيت] ، ثمبالتعبير عن مناطق عيش أوسع نسبياً [مغنى و ربع] [أطلال وآثار البيوت ، ومواقف القبيلة ، تلك المواقف المهدمة ، الدراسة] ، وأحياناً فقط في صورة أعم وأشمل (البلد ، والوطن ، والارض) .

كل هذه الاشاعات المكانية تظهر في علاقة وثيقة مع المجموعات البشرية والانسانية (أسرة ، وعائلة [آل] ، وفخذ . وقبيلة ، وتجمع بشرى ، ومحيط الاصدقاء ، والاقرباء ، أو الجيران] . وسندرس ما أشرنا اليه من العلاقات المكانية ، والارتباطات الانسانية بنفس هذا الترتيب الذي أشرنا اليه فيما سبق ، لنوضح صور تعبير الشعر العربي عنها ، مع دراسة مشاعر الألم والحنين المرتبطة بها جميعها ، معتمدين في دراستنا على مجموعة كبيرة من المصادر الشعرية الأخرى ، إلى جانب « كتابالمنازل والديار » .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الأول

الوطن في الشعر العربي

لقد عبر عن « الوطن » في الشعر العربي بألفاظ ومصطلحات عدة ، تختلف حسب مساحة دلالاتها المكانية ، وسنبحثها حسب الترتيب التالي مراعين التوسع المكاني لمدلولاتها :

١ ـ أماكن السكن : [المنزل والدار والبيت] .
٢ ـ المعنى الأوسع لمكان السكن : [المغاني والربوع] .
٣ ـ بقايا أماكن السكن : [الأطلال والدمن والآثار والرسوم..الخ].
٤ ـ معنى الوطن الواسع : [المدينة والوطن والبلد والأرض] .

رَفَعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

١ ـ أماكن السكن .

للتعبير عن أماكن السكن في الشعر العربي كانت قد استعملت مصطلحات (الفاظ) ترجع بمعناها الأصلي الى المجتمع البدوي ، ومشتقة ، كقاعدة عامة ، من أفعال الحركة والانتقال . وهذه الألفاظ هي :

آ ـ « المنزل »: مفرد جمعه « منازل » ، ومعناه موضع النزول ، ومثله « المَنْزِلة » . قال اللحياني : (منزلنا بموضع كذا) : يعني (موضع نزولنا) . وهو اسم مكان مأخوذ من الفعل الثلاثي الصحيح السالم (نَزَلَ) ، على وزن فعل ـ يَفْعِل .

ولهذا سمي (البيت) «منزلا» لانه موضع نزول العائلة ، ومنه الفعل ذو الاشتقاق الثنائي (نَزَّل القوم) أي أنزلهم المنازل ،(ونَزَّل فلان عيره) : أي قدَّر لها المنازل . ونزلهم ، ونَزَلَ عليهم ، ونزل بهم ، أي (حل) .

(والنُّزُول والمَنزَل) : الحلول : (والنزيل) :الضيف ، على وزن (فعيل) بمعنى (فاعل) . كما هو الحال في (كريم) : القائم بفعل الكرم . (والمنزول) : البيت الذي يستضيف فيه المضيف ضيوفه . وهذه تسمية مستعملة حتى الآن في القرى التي تحافظ على العادات البدوية. ومنه (النِّزال) في الحرب : أن يتنازل الفريقان ، أو أن ينزلا عن إبلها إلى خيلها للمبارزة ، وقد تنازلوا : أي تداعوا للنزال . ومنه(النُّزُل) القوم النازلون بعضهم على بعض . يقال : ما وجدنا عندكم نُزُلا . ومكان

(نَزِل) أي ينزل فيه كثيراً على وزن(فَعِل) بمعنى مفعول ـ منزول[1].

ب ـ (الدار) ، مفرد جمعه (ديار) ، وتدلُّ على قـلة العدد خلافاً لادؤُروأدوُر التي تدل على كثرة العدد [2] . (والدار) ،مكان النزول ؛ منزل ، أو خيمة ، أو (كل موضع حل بـــه القوم وإن لم يكن فيه أبنية [3] . وسميت الدار ، (دارا) لدورها على سكانها ، كما سمي الحائط حائطاً لاحاطته على ما يحويه . وهيلهذامن فعل(دار ـ يدور) لكثرة حركة الناس فيها [4] . ومجازاً فان (الدار) تعني (القبيلة) ، ومنه فسر قول الرسول : (ما بقيت (دار) إلا بني فيها مسجـد) ، أي ما بقيت (قبيلة) .

و (الدور) هي المساكن المسكونـــة والمحال . وتأتي أحياناً (الدارة) ، بمعنى (الدار) ، وقال بعضهم بأنها أخص من (الدار)، كما انها أيضاً أرض سهلة تنبت فيها بعض النباتات ، ومنها (دارات العرب)

---

١ ـ لسان العرب ، حـ . XIII ، ص ١٧٩ ؛ تاج العـــروس حـ . VIII ، ص ١٣٣ .

٢ ـ لسان العرب ، حـ . V ، ص ٣٨١ .

٣ ـ المنازل ، ص ٥٥ ، يقتبس أسامة هذه الجملة من الخليل .

٤ ـ لسان العرب ، حـ . V ، ص ٣٨١ وفيما بعد ، وحســـب كلام سيبويه فان « الدار » تعني أحياناً « البلد » ، وفي حالات أخرى بمعني « الصنم » وبـــه سمي عبد الدار بن قصي بن كلاب ، تاج العروس ، حـ III ، ٢١٣ .

ويزيد عددها عن ١١٠ ، وربما سميت هذه المواضع (دارات) لانهـا قابلة للنزول والسكن .

جـ - (البيت) اسم مفرد جمعه (بيوت) وتعني خيمة أو دار أو قصر . وقيل (الخباء) : بيت صغير يعمل من وبر أوصوف أو شعر، ويكون على عمودين أو ثلاثة فاذا كان أكبر من الخباء فهـو بيت يكون على ستة أعمدة . (والبيت) تعني (الشرف) ، أو (الشريف) أو (القبر) . مثلا : (بيت القبيلة) شرفها ، أي تلك الاسرة التي تحسب رمز شرف القبيلة (يقال : (بيت) - (شرف) قبيلة تمـــيم في بني حنظلة ، بمعنى شرفها في آل حنظلة) . و (بيوتات) جمـع الجمـــع من (بيت) [1] . (والبيت) من بيوتات العرب الذي يضم شرف القبيلة . ومن المجاز (بيت) تعني (التزويج) [2] ويقال (بات فلان اي تزوج)

(١) لسان العرب ، حـ .II ، ص ٣١٧ ؛ تاج العروس ، حـ . I ، ص ٥٢٩ .

(٢) (البيت) : السطر من الشعر سمي (بيتا) ذلك لانـه يضم الكلمات كما يضم البيت سكانه ، ولانه كلام جمع منظوماً فصار (كبيت) جمع من شقق ورواق وعمد . ولذا سموا مقطعاته اسباباً واوتاداً على التشبيـة لها باسباب البيت واتاده .

ويجب ان نشير الى ان (فصل البيت) في (كتاب المنازل والديار) من صفحة (٣٥٥ - ٤٠٩) ، منها ٢٦ صفحـة اي من (٣٥٥ - ٣٨١) استطراد لا علاقـة له بهـدف الفصل اذ يتحدث عن قصة بناء الكعبـةوالروايات في ذلك والآيات القرآنية التي تحتوي لفظة (البيت) على الاختلاف في تفسيرها .. الخ ..

وبنى فلان على امرأته (بيتاً) اذا أعرس بها وأدخلها بيتاً مضروباً ونقل اليه ما يحتاجونه من آلة وفرش وغيره .

إن معظم الابيات والمقطوعات الواردة في فصول (المنازل والديار والبيوت) ـ كما ألمحنا سابقاً ـ مطالع قصائـــدمنتشرة على عصـور الأدب العربي حتى عصر أسامة . وهي مطالع ترجع في اصلهـا واستعمالهـا الى الجاهلية . ودراسة متفحصة لهذه المطالع تجعلنا نؤكـد ـ خلافـاً للآراء المتباينة التي سنتعرض لها فيما بعد ـ ان الوقوف على الاطلال عامة ، وذكر المنازل والديار خاصة انما املته حياة البدوي ، فهو ثمرة البيئة المتنقلة التي يحياها العرب البادون ، او ثمرة التقلب بين الاعطاف الخصبـة في الربيع (الارتباع) ، والعودة بعد ذلك إلى منازل القبيلة الأصلية في القرى او اشباه القرى ، والتي لم تكن قصوراً منيفة ، او منازل واسعة غناء ، بل كان معظمها خياماً بأوتادها ودعاماتها واثافيها . من هذه الظاهرة الاجتماعية في التجاور والائتلاف ايام الربيع والصيف ، والابتعاد والافتراق ايام الفصول الاخرى ، كانت هذه الظاهرة في الوقـوف على الاطلال ، والبكاء عليهـا والحنين اليها واستثارة الذكريات والتهـويم في مجالات التعبير الشعـوري ، وهي ظاهرة اتخذت حيزاً من الشعر الجـاهلي وبصورة خاصـــة من شعر الغزل .

إذ وقف الشاعر حيث كان يقف سابقاً ، وشهد بقايا منازل حبيبته ومغانيها وآثارها ورسومها وتعرف اليها من وراء هذه الاثار الضئيلة ، وبكى عندها حيث لم يقو إلا على البكاء ، وتعزى حيث كانت وسيلته الاخيرة هي العزاء . إن تـداعي هذه الافكار بين واضح لأن المعاني يعود بعضها إلى بعض ، فالاستغراق

في تأمل الاطلال والمنازل يقود الى ذكر ماضيها ومقارنته بالحاضر الذي آلت اليه .

إن مدلولات ومعاني المصطلحات (الالفاظ) التي تعني اماكن السكن واطلالها وآثارها ، واستخدام هذه المصطلحات ، ان هذا كله بشكل رئيسي واحد عند الشعراء الجاهليين . فالشاعر يذكر ويبكي هذه المنازل ، منازله ومنازل احبته ، التي كان قد غادرها في بعض فصول السنة طلباً للكلأ والمرعى ، محدثا عن صعوبة تعرفه عليها ، يصفها ويقف عند بعض معالمها ، ثم يتسلى ، ويتعزى ؛ او ييأس ، ويبكي . هذا هو الشعر الوجداني ،شعر التغزل والالم والبكاء والحنين . وبغض النظر عن انه تفصلنا عن هؤلاء الشعراء ــ شعراء الجاهلية ــ قرون عدة (حوالي ١٥ قرناً) ، وما رافقها من تطورات ثقافية وحضارية ، فاننا عندما نتعرف على بعض الفاظهم الجاهلية الصعبة الفهم علينا نعيش معهم في جو مشاعرهم التى توقظ فينا المشاعر وتنبه الاحساسات ، وتنقلنا الى ذلك الجو النفسي الانساني الذاتي في آن واحد ، الذي عاش فيه اولئك الشعراء وإن كل هذا التأثير إنما يصبح ممكناً بفضل الشحنات العاطفية ،والمشاعر المشتركة بين الناس المفعمة بها هذه الاشعار . إن هذه الاشعار إنما تعبر عن مشاعر انسانية ، وتعكس لا عواطف مجموعة معينة من البشر بل جميع المشاعر المشتركة بين جميع الناس : حب وحنين وألم للفراق ،وتألم ، وحسرة الخ .. ورغم أن الشاعر في شعره إنما يعبر عن حنينه هو ، وحزنه هو ، ومعاناته هو ، تلك التي ترتبط بأرض معينة ، أو بأماكن سكن معروفة ، رغم هذا فان هذه المشاعر تلقى عندنا صدى وتأثراً ،

عواطفاً وتأييداً ؛ إننا نحس مع الشاعر تأثره ، ونتألم معه لحزنه ومعاناته، ننتقل هائمين معه ، ونتلمس حنينه الى المنازل المهجورة التي درست وعفت ولم تبق منها إلا الاثافي والاثار ، (هذا هو وطن الشاعر الجاهلي).

في المرحلة الاولى بعد ظهور الاسلام ، في عهد الرسول والخلفاء ضعف الشعر لاسباب عدة : موقف الشعراء المعادي للاسلام ، وموقف الاسلام من الشعراء انفسهم ، والفتوحات الاسلامية التي شغلت على المسلمين جميع حياتهم الداخلية النفسية والخارجية ، فكان شعر صدر الاسلام هو (النهاية الضعيفة الذابلة والمنحرفة للشعر الجاهلي).(١) فتقلصت بعض أقسام القصيدة ، وبصورة خاصة هذه المطالع المشتملة على تذكر المنازل ومواقف القبيلة والبكاء على بقاياها . كل هذا أثر على نهج القصيدة المقدس الثابت المشهور في الشعر الجاهلي وبخاصة بصوره مثلى في (المعلقات) مما ادى الى خلخلة بناء القصيدة المعروف في الجاهلية .

ان دراسة تطورية لشعر حسان بن ثابت الذي قال الشعر في الجاهلية وفي صدر الاسلام تؤكد هذه الحقيقة . ومن الملاحظ أن أسامة في (فصل المنازل) مثلا لم يورد شعراً لاي شاعر عاش في صدر الاسلام أو مخضرم .

ثم ان الشعر بشكل عام يضوي ويضمر في عهد الخلفاء الراشدين . وأثر الاسلام على الشعر بمحتواه وصورته (الأفكار والصياغة) في هذه الحقبة لم يكن قوياً ، اللهم الا التأثر في مادة وصياغة شعراء الرسول

---

١ ـ فيصل . ش . تطور الغزل ص ٢٠٦ .

بالذات ، ذلك لأثر الرسول عليهم لكونهم المتكلمين باسم الدعوة الجديدة[1] .

وفي عصر بني أمية آلت حركة الفتوح إلى شيء من الركود ، وآل أمر الجيوش المتدفقة الى شيء من الهدوء ، وبدأت الجماعات المهاجرة في أعقاب الجيش تأخذ مكانها في هذه الأرض ، وتأخذ في حياة الاستقرار في الأماكن المفتوحة الجديدة . ولقد شغل الانتقال من تدفق الهجرة والتنقل والاختلاط الى الهدوء والاستيطان والتمركز والحياة المستقرة شغل هذا الانتقال دوراً هاماً في ظهور علاقة جديدة لهؤلاء المهاجرين (المستوطنين) مع الأرض وأدى الى اخلادهم لها بل وتعلقهم بها ودفاعهم عنها ، والى خصوماتهم أحياناً عليها وحولها . وتغيرت طبيعة الحياة خارج حدود الجزيرة العربية . فانقلبت المعسكرات الى أن تكون مدناً ، وانقلب الفاتحون البداة الى سكان مدن يتملكون الأض ، ويحددونها فيما بينهم ، فغدوا سكان مدن وزراعاً ، يعمرون المنازل ويعيشون عيشة استقرار نسبية في هذه الاوطان الجديدة . التطور العاصف في حياة الجماعة العربية يرافقه تطور أقرب الى التنظيم ، وتقتضيه حياة الخلافة الجديدة . فبعضهم شغل بالاستقرار والتمركز وترك أمر الحرب على عاتق جماعة خاصة محددة ، فوجد السكان المحاربون ، وأخذ التجمع الاسلامي طريقه إلى حياة السلم والاستقرار .

في هذه الظروف الاجتماعية والاقتصادية والحياتية الجديدة بدأ

---

(1) Ringgren, H., Studies in Arabian Fatalism, 1955, p.127.

العرب يتجهون لماضيهم لاحيائه ، وبخاصة الى شعرهم في الماضي ، فبدأوا يذكرونه ويتذاكرونه ويروونه لاحيائهم الجديدة حتى وبدؤوا يقلدون ، في استعمال المطالع الغزلية والبكاء على الاطلال .

واستجابة للقانون الفني للقصائد أخذ الشعراء العرب في هذه الفترة بـدء قصائـدهم بتذكر المنازل والبـكاء عليها وعلى أطـلالها . ولقـد بلغ فيهم الأمر في تقليـدهم هـذا للماضي الى درجـة أنهم استعمـلوا بعض تلك المطالع حرفياً . فجرير والأخطل مثـلا قـد اختـارا مطلعاً لقصيدتيهما ، ذلك المطلع الذي استخدمه الشاعر الجاهلي ابن الابرص[1] . وهناك شعراء آخرون كانوا قـد زادوا في عدد أبيات

---

١ ـ نقائض جرير والأخطل ، ص ١٩٨ ، ديوان جرير ، ص ٥٩٦ .

قال جرير :

لمن الديار ببرقة الروحان اذ لا نقيس زماننا بزمان

وقال الأخطل :

لمن الديار ببرقة الروحـان درست وغيرها ظروف زمان

وقال عبيد بن الأبرص :

لمن الديار بحـايل فوعـال درست وغيرها سنون خوال

التقليد الى عدة أبيات ، كما فعل الكميت ، مقلداً امرأ القيس (١) . وانه لمن الخطأ اعتبار هذا التقليد فقط ضربا من عبادة القديم ، ذلك لأن الشاعر في اقتباسه مطلع القصيدة يقتبس أيضاً جزءاً يسيراً من شهرة الشاعر الجاهلي . وهو بهذا في ذات الوقت يستجلب انتباه القارىء والسامع . هذا يشبه تماماً انتباهنا الزائد وتركيزنا في وقتنا الحالي حتي وبرغبة زائده عندما نستمع الى خطيب أو فنان يقلد ويتقمص بطلا معروفاً أو خطيباً بارعاً أو مغنياً مشهوراً للناس .

من المشهور أنه في عصر الخلافة العباسية حدثت تغيرات أساسية في الحياة الثقافية . ففي حانات الخمرة ببغداد لعبت الخمرة في رؤوس

---

١ ـ الوساطة ، ص ١٩١ . قال امرؤ القيس :

قف بالديار وقوف حابس وتأنَّ انك غير آيس
ماذا عليك من الوقوف بهامد الطللين دارس
لعبت بهن العاصفا ت الرائحات من الروامس

وقال الكميت :

قف بالديار وقوف زائر وتأنّ إنك غير صاغر
ماذا عليك من الوقو ف بهامد الطللين داثر
درجت عليها الغادرا ت الرائحات من الأعاصر

طائفة من المتحررين الشعراء الذين ، في جو من الحرية ، أخذوا يناقشون الحياة الادبية ، وبصورة خاصة موضوع المطالع ، واتخـذ رأيهم ، صورة شعرية في قول أحد أفراد هذه المجموعة المتحررة :

لأحسن من بيد تحار بها القطا — ومن جبلي طي ووصفكما سلعا
تلاحظ عيني عاشقين كلاهما — له مُقلة في وجه صاحبه ترعى

لقد وقف الشعراء المحدثون ضـد الأوصاف التقليـدية ، والمطـالع الغزلية ، معلنين أنها غير واجبة ، بـل واتباعها خطأ . لكن رغم هـذا فانهم هم أحياناً قد استخدموا مثل هذه المطالع والاوصاف (ربما ليبرهنوا على امكانيتهم الشعرية في هذا المجال) ، لكنهم لم يكونوا في هذا مقلدين تقليداً أعمى ، فقـد صبغوا هـذه المطالـع بخيوط جديدة وبظلال الحضارة المحدثة . ولقد تلقف أبو نواس هذه اللمسات الجـديدة ، وترأس الاتجـاه المحدث والمذهب الفني الذي أخذ يناضل من أجله ، حتى نسب اليـه . وتلخص هذا المذهب في استهجان المقدمات الجاهلية بكل ما تشتمل عليـه من وقوف على ديار الاحبة أو تعرض للصحراء أو تشبيب بالمرأة . ان أسباب ظهور هذا الاتجاه الشعري الفني الجديد يجب البحث عنها في ظروف الحياة المتغيرة بفضل الحضارة الجديدة عند العرب . ففي المدينـة يعيش الشاعر على بعد بعض الخطوات من ممدوحه ، ولذا كان من المضحك ان يعود الشاعر الى الصحراء ، والى منازلها وخيمها لوصفها كمقدمـة لمـدح ممدوح يعيش حياة الاستقرار في قصور منيعة ، تجتمع فيها كل المظاهر التي

١ ـ الأغاني ، ح XII ، ص ٩٨ (التقدم) .

ظهرت بفضل الحضارة وتمازج الثقافات .

ان الاسباب التي جعلت أبا نواس يقف ضد المنهج التقليدي في مطلع القصيدة وما ينطوي عليه ، ويستلم رئاسة الدعوة لتأكيد هـذا الاتجاه الفني الجديد ، ان هذة الاسباب يعزوها الكفراوي الى ظروف حياة أبي نواس الشخصية ، والى عدائه للعرب بشكل عام ، والى عرب الشمال بصورة خاصه (اذ رأى أبو نواس في التغني تمجيداً وذكرا لعرب الشمال وباديتهم وآثارهم وتقاليدهم فأعلنها ثورة على الامرين معاً)[1] . لكن هـذا السبب برأينا ليس السبب الوحيد ، اذ لم يكن من الواقعية ومن الطبيعي التحدث عن الصحاري والخيم ، كأنهـا بيوت الشاعر ، من قبل انسان لم يعش فيها ، انما يعيش في قصور الامراء والخلفاء . ان أبا نواس يبـدأ احدى قصائـده ببكاء مازح على نوار (أسم امرأة) وديارها مشيرا الى أنها قد ايقظت فينا (هذه الديار) مشاعر الشجو والحزن ، في الوقت الذي هن خاليات منه . :

ديار نوار ما ديـار نوار كسونك شجوا هن منه عوار[2]

أبو نواس لا يعرف البادية ، ولا صلة بينه وبينها فلماذا اذن يبكي لهـا أو عليها ؟ ! .

---

١ ـ الكفراوي ، ص ٧٣ ـ ٧٤ .

٢ ـ ديوان أبي نواس ، ص ٧٢ .

مالي بدار خلت من أهلها شغل   ولاشجاني لها شخص ولاطلل
ولارسوم ولا أبكي لمنزلة   للأهل عنها وللجيران منتقل (١)

ولم يركب للمدوح ناقة ولا جملا فلا حاجة له لوصفهما ، بل يلزم الواقع فيتحدث عما امتطاه حقيقة إلى ممدوحه ، إن هـذا ما فعله حين مدح الفضل البرمكي ، فهـو لا يتعلق بالعنـاصر التقليدية في الوصف ، لكنه يشير الى عنصر مثير جديد ـ الى الاحذية الرقيقة الناعمة :

إليك أبا العباس من دون من مشى   عليها امتطينا الحضرميّ الملسَّنا

وبغض النظر عن كل المواقف الادبية المعارضة لابي نواس ضد المطالع الغزلية ، فانه نفسه يستعمل هذه المطالع في بعض قصائـده ، كما تتطلب ذلك المناسبات والظروف . فاذا ما مدح رجلا يخافـه ويهابه ويحترمـه كهارون الرشيد مثلاً ، سار على خطا الشعراء القدماء ، مستعملا هـذه المطالع الغزلية التي وقف ضدها ، ذلك لمعرفتـه بأن هارن الرشيـد لا يروقه الانحراف عن العادات العربية ، والهجوم عليها ، وربما قـد يعاقب على هذا الهجوم والانحراف .

ويعلن أبو نواس بصراحة أنه يذكر الاطلال والمنزل القفر لخوفـه من الخليفة :

أعِرْ شعرَكَ الأطلال والمنزل القفرا   فقد طالما أزرى بها نعتك الخمرا
فسمعاً أمير المؤمنين وطاعة   وإن كنت قد جشمتني مركباً وعرا

---

١ ـ ديوان أبي نواس ، ص ٣٢٢ .

لقد سلط أبو نواس الانوار على الطالع ، وجعلها موضوع دراسة ومناقشة ، وشكك في قداستها ، فاتحاً بهذا الطريق لكل ما أصابها من تطور وتغير ، مؤثراً بالشعراء في هذا من قريب أو بعيد . ومن المحتمل أن ظهور مذهب أبي نواس وتوطده إنما ساعد عليه الجو الادبي العام في عصره . هذا ما يؤكده الخبر الذي يورده ابن خلكان[1] عن أبي العتاهية في مدحه لعمرو بن العلاء حيث قال :

إن المطايا تشتكيك لأنها قطعت إليك سباسباً ورمالا

فاذا وردن بنا وردن مخفة وإذا رجعن بنا رجعن ثقالا

فعندما أعطاه عمرو [٧٠٠٠٠] درهم على هذه القصيدة ، حسد الشعراء الآخرون أبا العتاهية ، وبخاصة مروان بن حفص فجمعهم ابن العلاء وقال : يا معشر الشعراء ! عجباً لكم ، ما أشد حسد بعضكم بعضاً ، إن أحدكم يأتينا ليمدحنا بقصيدة يشبب بها بصديقته بخمسين بيتاً فما يبلغنا حتى تذهب لذاذة مدحه ورونق شعره أما أبو العتاهية فقد شبب بأبيات قليلة ثم قال : « إن المطايا ... » [البيتين السابقين] .

إن المراحل اللاحقة تمتلك أيضاً اختلافها وتميزها . فالشعراء في معظم الحالات ـ لم يبكوا دياراً موهومة ، لا أساس لها ، ولا ارتباط بينها وبين الشاعر ، بل وصفوا وبكوا دياراً قريبة من نفوسهم ومشاعرهم،

---

١ ـ ابن خلكان ، ح . ١ ، ص ١٠٠ ـ ١٠١ .

تملأ عليهم ذواتهم لما حل بها وأصابها ، وأصاب أهلها من المصائب وهول الزمان . إنها أشعار مملوءة بالحزن والالم والحسرة والشوق والحنين ، والمشاعر الحقيقية الصادقة . وهذا ما نراه من صدق عاطفة ، وتعبير واقعي في شعر آل منقذ ، وبخاصة في شعر أسامة ، ذلك لان الديار شيئاً في أنفسهم ، لوعتهم ، ونغصت حياتهم .

الخيمة :

في مطالع القصائد ، وبشكل مفصل ، توصف أماكن مسكن العرب أي : البيت البدوي ـ الخيمة الطبيعة البسيطة القاسية ، بصحرائها الواسعة المترامية ، المحرومة من الغابات والجبال والبحار ، بموجات رملها التي تحتضن أسرار أبنائها ، الذين يعيشون فيها ؛ بسمائها الصافية العميقة المفتوحة ؛ الشمس نهاراً ، والقمر ليلاً ؛ هذه الطبيعة ساهمت بشكل فعال في تشكيل أخلاق البدوي وطباعه وفي طبيعة حياته . في هذه الطبيعة ما كان بيت البدوي أكثر من خيمة تضرب في عرض الصحراء ، وتتألف هذه الخيمة ـ كما وصفت في أشعار الجاهليين(1) ـ من عدد من الأعمدة غير

---

1 ـ انظر : المنازل ، أشعار المرقش الأكبر ، ص ٣٣٧ ؛ الذبياني ، ص ٣١٣ ، ٣١٥ ، وديوان الذبياني ، ص ١٠٩ ، ٣٣[القاهرة] ؛ الربيع ابن أبي الحقيق ، ص ٢٩٣ : عنترة ، ص ٣٥١ ، وديوان عنترة ، ص ١٤٢ ؛ ابن الدمينه ، ص ٣١٨ ؛ أبوداؤد الايادي ، ص ٢٨٢ ؛ الجعدي ، ص ٢٩٣ ، وديوان الجعدي ، ص٦-١٠ ؛ زهير ، ص ٩١ ، وشرح ديوان زهير ، ٢١٩ .

العالية ، المنشورة عليها قطعة من قماش ، أو محبوكة عليها قطعة من القش والاغصان اليابسة ، المأخوذة من الثمام [نبت صفيف تتخذ منه الحصر ، وكانوا يلقونه على أعواد الخيمة ليستظلوا به] . وبالقرب من هذا المنزل ـ الخيمة تقع الساقية التي تحيط بالخيمة من جميع جهاتها ، وبالقرب من الخيمة أيضاً توضع أثافي القدر للطبخ وتهيئة الطعام ، وتوجد الأواري التي تربط إليها الخيول والحيوانات . والبدوي بارتحاله من مكان إلى آخر يأخذ معه « بيته » ـ خيمة ، تاركاً مكانها فقط « الآل : [العود ذا الشقين الموضوع عليه عود آخر والمنشور عليهما الثمام ـ والأوتاد [الأواري] ، التي كان يربط إليها حيواناته ، ويشد إليها حبال الخيمة ، والعمود مع قطعة القش المنشورة علية . وإلى جانب كل هذا يترك الأثافي بحجارتها الثلاثة ، السوداء الضاربة إلى الغبرة ، المتوثبة ، التي تشبه حمامات جاثية : والرماد الخامد المغبر ، الذي تلبد ، واسود من أثر المطر والزمان، وأحياناً يترك وراءه فقط آثار هذا كله[1] .

القصور :

« الدار » و « المنزل » ـ هذه (خيمة) من أجل البدوي ، و (قصر) للحاكم في الشعر الجاهلي ، وعندما يدور الحديث عن الأمراء ، سكان المدن ، لن يقصد الشعراء بتسميات « منزل » ، « دار » ، « بيت » (الخيم) المضروبة في الصحراء ، لكن (قصوراً) تحتوي على جميع مريحات ومرفهات الحياة . لقد وصلت إلينا أشعار تذكر بقصور

---

١ ـ انظر . المنازل ، ما أشرنا اليه سابقاً .

أمراء بني محرق ، حكام الحيرة ، - قصور الخورنق والسدير ، وبارق والقصر ، وكذلك اشعار عن قصور الغساسنة المنتشرة في دمشق ، وبصرى ، والجولان . ورغم أن هذه القصور قد عفت ودرست في أشعار الشعراء ، ذلك لأنه [جرت الرياح على محل ديارهم] ، كما تجري على منازل البدو في الصحراء ، لكن الشاعر هنا لا يتوقف لتفحص النؤي ، والأوتاد ، وليبكي الرسوم والأطلال ، بل نسمع ألفاظاً مغايرة جديدة ، إنها [قصور ، ونعيم] : [فبليت عيشتهم الرغيدة الهنيئة وانتهت][1] .

هنا نعثر على صورة جديدة للمنازل ، وعلى طريقة جديدة في وصفها ، والبكاء عليها تتناسب مع الجو الاجتماعي والثقافي والحضاري ، وتعبر عن حياة هذه الطبقة المترفة ، وهذا ما أشار اليه النابغة في مدحه لآل جفنة الغساسنة :

رقاق النِعال طيّبٌ حجراتهم يحيّون بالريحان يوم السباسب (٢)

ففي رقة النعل كناية عن الرفاهية والنعيم

---

١ - المنازل ، أشعار : أسود بن يعفر [أعشى نهشل] ، ص ٢١ ؛ حسان بن ثابت ، ض ٢٨٨ ؛ أبو أحمد ، ص ٣٢٤ ؛ الأغاني ؛ ح XIII ، ص ١٦ - ١٧ ؛ ديوان حسان ، ص ٤١٥ (البرقوقي) .

٢ - انظر : ديوان النابغة ، القصيدة البائية . (يوم السباسب : عيد كان لهم) .

ومع نمو حياة الاستقرار قام الخلفاء والأمراء ببناء الحصون ، والدور النفيسة ، والقصور ، ولذا فان ألفاظ « منازل » ، « ديار » مع الزمن أخذت تعني أيضاً ، أكثر وأكثر ، « أماكن السكن » التي ينفق على بنائها كميات ضخمة جداً من المال(١) . أماكن السكن هذه (القصور) ظهرت في الشعر العربي كمادة خصبة لوصف جمالها وروعتها . هكذا يتكلم الشعراء عن هذه « الدور » : « دار أطرابه (الشاعر) وأشجانه » .

دار تفيض بكل خيرٍ وفيها كل شهوات المريض (٢)

لقد غدت هذه « المنازل » مادة شيقة للوصف لما فيها من زينة وزخرفة ، وصور مدهشة من ذهب وفضة . فالسري الرفاء يصف (قصر البرج) للمتوكل بأنه (منزل كالربيع) (يمتع العين في طرائف حسن) (٣) . لروعته تطرق العين عن النظر اليه ، وهو (مجلس يرتاح إليه الخليع والمستور) ،

---

١ ـ نهاية الأرب ، حـ 1 ، ص ٤٠٦ ؛ هناك قصة مفادها أن الخليفة المتوكل قد امتلك خمسة عشر داراً ، أنفق على بنائها (١٥٠٠٠٠)، و (٢٥٠٠٠٠٥٠٠) درهم .

٢ ـ المنازل ، ص ٣٢٢ ، ٣٣٩ ، ٣٥٠ ، ٣٤٨ ؛ أشعار ابن موسى، ابن المعتز ، وابن القاسي .

٣ ـ النويري ، حـ 1 ، ص ٤٠٧ ، ٣٠٦ .

وإذا غارت الكواكب صبحاً   فهو كالكوكب الذي لا يغور

في أيام المعتصم - كما يظهر من شعر زنام الزامر[1] - وعندما يدور الحديث حول منازل الخلفاء ، (القصور) ، التي تعج بالنعيم والعيش المرفه ، وتزخرف بمختلف انواع الزخارف ، تبدو أطلال هذه « المنازل » ثابتة ، دائمة ، غير بالية :

يا منزلاً لم تبل أطلاله   حاشا لأطلاعك أن تبلى

ولم تعد الأطلال مدعاة للبكاء : (لم أبك أطلالك) ، لكن العيش في تلك المنازل ، حياة النعيم فيه (أولى ما بكاه الفتى) . غدا المكان الذي يؤمن الراحة والعيش هو المكان المأسوف عليه ، المستدر للدموع ، وكأن التعلق « بالمنزل » قد غدا تعلقاً بالعيش في ذلك المنزل .

ويتذكر الشريف الرضي[2] منازل النعمان بالحيرة ، فيصفها بانها (تقابلت شم العماد عريضة الأعطان) ، تدل على فضل بناتها ، إذ (يبين بالبنيان فضل الباني) .

لقد وصف شعراء هذه المرحلة « المنازل الخالية » أيضاً التي عفتها ودرستها حوادث القدر والزمان ، ونكبات العصر ، فجعلتها خالية بعد أنس . وتعتبر قصائد البحتري - في هذا المجال - أكثر القصائد حيوية ،

---

١ - المنازل ، ص ١٢ .

٢ - النويري ، ج 1 ، ص ٤١٢ .

وتأثيراً ، وروعة حس وتصوير » إذ يقول في قصر (الكرمان) الخالي، الذي بناه أنو شروان :

لو تراه علمت أن الليالي جعلت فيه مأتماً بعد عُرس
وإذا ما رأيت صورة انطاكية ارتعت بين روم وفرس
والمنايا مواثل وأنو شروا ن يزجي الصفوف تحت الدِرفس (١)

يصف البحتري بروعة تلك التماثيل التي كانت على جدران القصر ، رمزاً لانتصار كسرى على الروم ، مستعملاً هذه القافية الخافتة (السين المكسورة) ، وكأنها توحي للقارىء بالحزن والأسى . ولا تقل قصيدته في رثاء المتوكل(٢) وقصر الجعفري روعة في البراعة والتصوير عن سابقتها. أما ابن الداني فيخصص قصيدته لا لوصف قصر منفصل ، مستقل ، بل لرثاء مدينة بكاملها (اشبيلية) عندما أخذها « تاشفين » الملثم من « ابن عباد » ، وقضي على ملكه . إن هذه القصيدة من أجود ماقيل في رثاء اشبيلية وبيوتها ، فالسماء تبكي بدمع رائح غاد « على البهاليل من أبناء عباد » . كانت مدينة حصينة ، فيها الأسود الأشاوس والأبطال ، « وكعبة » يقصدها المحتاجون ، فغدت لا عاكف فيها ولا بادي . فما على الضيف إلا أن يشد الرحل ، ويجمع فضيلة الزاد ، ويرحل ،

---

١ ـ النويري ، ح ١ ، ص ٤١٢ .

٢ ـ النويري ، ح ١ ، ص ٤١٢ ـ ٤١٣ .

فقد « أقفر بيت المكرمات » ، وخلع بنو عباد ، وزال عزهم ، ولا بأس في هذا فقد خلع بنو العباس من قبلهم ، وخلت ، قبل ، حمى أرض بغداد :

تبكي السماء بدمعٍ رائحٍ غادي — على البهاليل من أبناء عبادِ
عِرّيسةٌ دخلتها الحادثات على — أساودٍ منهم فيها وآسادِ
و كعبة كانت الآمالُ تعمرُها — فاليوم لا عاكفٌ فيها ولا بادي
ياضيف أقفر بيت المكرمات فخذْ — في ضمِ رجلك واجمع فضلة الزادِ
ويامؤملُ واديهم ليسكنه — خف القطين وجف الزرع بالوادي
ضلت سبل الندى يا بن السبيل فسر — بغير قصدٍ فما يهديك من هادي
إن يخلعوا فبنو العباس قد خلعوا — وقد خلت قبل حمصٍ أرضُ بغدادِ
سارت سفاينهم والنوح يتبعها — كأنها إبلٌ يحدو بها الحادي(١)

لا بد من الاشارة إلى أننا في أشعار المعري ، وأشعار شعراء آخرين غير معروفين نجد لمسات طبقية اجتماعية ، تصف فقر البيوت ، وفقر سكانها . فالمعري يصف بيته الذي كان حبيسه ، ذلك البيت الذي

١ ـ المنازل ، ص ٣٨٤ : [العرّيسة : مأوى الأسد ؛ حمص : مدينة بالاندلس] .

يوكف شتاء ولا يطاق من الحر صيفاً ، وهو فيـــه شيـخ فانٍ أعمي سعيفه في تحمل هذا قناعته :

لزمتُ بيتاً بناه الجدُّ من كأنة بيت شعرٍ ليس يتزنُ
إذا شتوتُ ممن توكافه عنتي وبالحرورِ إذاماصِفْتُ يقترنُ
عدمٌ فحسبي وعينٌ غيرُ مبصرةٍ وشقوةٌ وحليف الشقوةِ اليفنُ
لولا القناعة جاءتني بمملكةٍ لهتكت دوني الأستار والجننُ (١)

البيت الواهي الذي يوكف مطراً ، قد انمحى ، وغدا كقارعة الطريق . إنه كالفهام ، حتى إنة لأغزر منه دمعةً ووكوفاً حين يذرف ، ذلك لوهنه وضعفه . إن ستائره ستائر العنكبوت ، فاذا هطـــل المطر أصبـح في داخله مظلم ضيق حتى ليشبه السجن . والعنكبوت ـ رغم صنفها ـ قد بنت لنفسها بيتاً ، أما الشاعر فليس عنده وطن مثلها ؛ للخنفساء سكن ، وليس للشاعر مثلها إلف ولا سكن . إن هؤلاء الشعراء ـ كما يصورون أنفسهم ـ فقراء ، ليس لهم نوق ، ولا ضأن وماعز وبر وتمر ، حـتى ولا نبات يرعونه كالابل [مبالغة] ، ليس لهم إلا البيت الخالي الفقـــير المعدم ، فعلى الزوجة ـ زوجة الشاعر ـ الاستتار بهذا البيت ـ إن رضيت ـ وأستر منه القبر .

---

١ ـ المنازل ، ص ٤٠٣ ، ٤٠٤ . (اليفن : الشيـخ الفاني) .

وبيت تساوى والغمامُ وأنه لأغزرُ منه دمعةً حين تذرفُ
إذا السحبُ عنه أقلعت فلو كفه سحابٌ هتونٌ ماؤه ليس ينزفُ
فثوبي من توكاف أسودِ سقفه وتربة الحمراء بردٌ مفوفُ
فدعه ونم تحت السحاب فانه سحابٌ ولكنْ طيبُ الجو أنظفُ

وقال آخر :

بيتي شعور العنكبوتِ ستورَه ومطارِحُ الغبراء فيه مطارحي
وإذا أصابتهُ السماء بطلها فسماؤه تهمي بوكفٍ سافحِ
وكأنني من ضيقه وظلامِه ميتٌ دفينٌ في ثرىً وصفائح

وقال آخر :

العنكبوتُ بنت بيتاً على وَهَنٍ تأوي إليه ومالي مثلها وطنُ
والخنفساء لها من جنسها سكنٌ وليس لي مثلها إلفٌ ولا سكنُ (1)

الوقوف على الاطلال :

إن المطالع الغزلية للقصائد ، الحاملة الأساسية لبذور (مفهـــوم

---

1 ـ المنازل ، الشعراء المجهولون (قال آخر) ، ص ٣٨٣ ، ٣٨٥ ، ٣٩١ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ .

الوطن) في الشعر العربي ، عادة ما تبدأ بدعوة ٍ للوقوف على آثار الديار المهجورة ، التي يتعرف عليها الشاعر . ويعتبر امرؤ القيس أول من دعا إلى هذا الوقوف . إنه في معلقته الشهيرة ، باستعماله الفعل (قف) بصيغة الامر – [قفا] ، يدعو ، باختصار وتكثيف ، صاحبيه[1] للوقوف والبكاء :

قفا نبك ِ من ذكرى حبيب ٍ ومنزل

بسقط اللوى بين الدخول فحومل[2]

وفي مكان آخر[3] يدعو صاحبيه إلى التحول عن طريقهما ، والتوجه إلى « الطلل المحيل » لعلهما يبكيان الدار كما بكاها « ابن خذام » . إن

---

١ – الزوبزني في « شرح المعلقات » ص [٧٩] وفي معرض تعليله لأسباب توجيه الدعوة إلى الوقوف بصيغة المثنى يكتب ما يلي : « قيل » خاطب صاحبيه ، وقيل : بل خاطب واحداً وأخرج الكلام مخرج الخطاب مع اثنين ، لان العرب من عادتهم إجراء خطاب الاثنين على الواحد والجمع . خاطب الواحد خطاب الاثنين ، وإنما فعلت العرب ذلك لان الرجل يكون أدنى أعوانه اثنين : راعي إبله وراعي غنمه ... الخ .. » .

٢ – المنازل ، ص ٣١ ؛ ديوان امرؤ القيس ، ٨ ، ٩ ؛ شرح المعلقات ، ص ٧٩ – ٨١ .

٣ – المنازل ، ص ٨٦ ؛ ديوان امرىء القيس ، ص ١١٤ .

هذه الدعوة للتوقف والبكاء ، تستعمل أيضاً بهذه الصوره عند الشعراء اللاحقين لعصر امرىء القيس[1].ويدعو الشاعر ، أحياناً ، خليليه إلى اختيار أحد موقفين : إما الوقوف عند الديار الخالية[2] ، أو البكاء على بقايا الديار :

خليلي هيجا عبرة أوقفا بنا   على منزلٍ بين النقيعة والحبل (٣)

لكن نعثر عند بعض الشعراء على موقف معاكس ، واتجاه آخر ، إنه دعوة للامتناع عن الوقوف على الاطلال ، وآثار الديار الخالية ، ذلك لان الوقوف عندها لا يجدي شيئاً ، إذ لا يشفي المحب من الشوق والالم ، فاللقاء مع المنازل « لا يشفي حاجة المتذكر »[4] .

وصف الحالة الراهنة للمنازل :

يقف الشعراء عند الاطلال وبقايا الديار ، فيصفون الحالة التي عليها ديار الاحبة ، أو موطنهم : كيف غدت هذه الديار بعد هجر سكانها لها ؟! ووصف الشعراء هذا يشتمل على عناصر ضرورية ترد غالباً عند معظم الشعراء :

---

١ ـ انظر : مثلاً ، المنازل ، ص ٨٥ ؛ شعر زهير ؛ وشرح ديوان زهير ، ص ١٤٥ (دار الكتب) .

٢ ـ المنازل ، ص ٧٣ ؛ شعر أبي كبير .

٣ ـ المنازل ، ص ٣٧ ؛ ديوان جرير ، ص ٤٦٠ .

٤ ـ المنازل ، ص ٦٨ ؛ شعر الجعدي .

آ ـ تحديد أماكن السكن :

لقد كان الشعراء عادة يشيرون إلى موقع هذه الاماكن. المنزل الواقع « بين الدخول ، فحومل ، فتوضح ، فالمقراة » (وكلها أسماء أماكن)[1] . وأحياناً أخرى يكتفون بذكر موقعها شمالاً أو جنوباً .. الخ .. بالنسبة إلى موضع واحد . مثلاً : « ديار جنوب أسنمة[2] ؛ « بطن الجو » ، و « في الركن ، والبقيع ، وثهمد»[3] . وفي حالات أخرى يشير الشعراء إلى ملكيه وتبعية هذه المنازل:« منازل آل اسماء»[4]. وباسلوب سؤال العارف يسألون « عن المنازل قد عفون سنينا ؟! » . إنه سؤال الشاعر البكاء عن المنازل المحددة ، منازل قومه المشتتين ، فعفت منازلهم ، وبقيت دمن بجامها الباكي المبكي . ولم يوضح البكاء بصورة مباشرة أنها منازل قومه ، ذلك لشدة الدهشة والاستغراب ، ولن يفهم هذا إلا من البيت الرابع حيث يعزي نفسه قائلاً : « ما كنت أول من تفرق شمله »[5] .

---

١ ـ المنازل ، ص ٣١ ؛ ديوان امرىء القيس ، ص ٨ ، ٩ ؛ وانظر: المنازل ، ص ٤٠ ؛ وديوان النابغة ، ص ٨٥ .

٢ ـ المنازل ، ص ٩٨ ؛ شعر ابن مقروم ؛ معجم البلدان ، مادة « أسنمة » .

٣ ـ المنازل ، ص ٣٩ ، ٩١ ؛ ديوان زهير ، ص ١١٦ ، ٢١٩ .

٤ ـ المنازل ، ص ٣٩ ؛ شعر زهير .

٥ ـ المنازل ، ص ٢٠ ، شعر البكاء .

ب ـ جهل الديار ، وعدم معرفتها :

إن المنازل والديار المهجورة ، القفراء ، والتي تعرضت لمصائب الدهر ، وعوامل الطبيعة ، غالباً ما تغيرت لحد عدم التمكن من معرفتها وتمييزها ، والشاعر برؤيته هذا المنظر المؤلم الحزين لآثار وبقايا الديار ، لم يتمكن من التعرف عليها : « استجهلتك »[1] . أو يسأل الشاعر من يعرف الديار : « لمن المنازل قد عفون سنينا ؟ »[2] . لقد تغيرت المنازل ذلك التغير الذي لشدته كان الشاعر مضطراً ان يستعمل أسلوب الاستفهام، وكأن ما يراه الآن مدهش عجيب ، لا يعرف تبعيته . وفي حالات أخرى يسأل الشاعر سؤال العارف ، ويتوجه بسؤاله للمخاطب قائلاً :

« هل عرفت ديار أم عمرو ؟! »[3] ، ليدل على التغييرات الجذرية التي ألمت بها . ولكن أية فائدة يمكن أن تقدمها هذه الاسئلة ، أو الوقوف الطويل على آثار الديار المعفاة ، التي يصعب التعرف عليها ؟! إذ يستطيل الشاعر وقوفه على [رسوم ديار قفرٍ][4] مسائلها ، وهل ينفع السؤال ؟!

لكن بعض الشعراء يتعرف على هذه الديار ، إنما بعد جهد وكد ،

---

١ ـ المنازل ، ص ٣١ ؛ ديوان النابغة ، ص ٨٠ .

٢ ـ المنازل ، ص ٢٠ ؛ شعر ابكاء .

٣ ـ المنازل ، ص ٣٨ ، شعر عروة بن الورد .

٣ ـ المنازل ، ص ٨٦ ؛ ديوان النابغة ٤١ ، ٤٢ .

ذلك لأنه لم يبق منها إلا قطع الحبال والأوتاد[1] . وظاهر الديار لا ينبىء عنها ، وعن تبعيتها ، إنما من له تجربته العاطفية معها يعلم علم اليقين لمن هي . إنها [دار لسعدى] الحبيبة الجميلة ، التي رحلت ولم تبق إلا ذكرياتها . فالحب عند الشاعر هو واسطته لمعرفة الديار وتبعيتها[2] .

حـ ـ المنازل معفاة

إن أماكن السكن المهجورة التي يبكيها الشعراء تكون في أغلب حالاتها ، معفاة ، دارسة ، خالية ، خاوية ، قد أزيلت من على سطح الأرض ، ولم يبق إلا أثرها ودلالات عليها[3] . « هل تؤنسان ببطن الجو من ظعن ؟! »[4] « فالديار عفت » من أهلها ، عفا منها « السهل والغليظ »[5] . والرياح هي التي عفت معالم هذه الديار ، لقد غطتها بالرمال حتى تنكر منها « كل معرفة » « إلا الرماد » الباقي من آثارها « وإلا دمعي الجاري » الذي ذرف شوقاً وحباً ولوعة . أقفرت هذه الديار ،

---

١ ـ المنازل ، ص ٣٥٢ ، ٣٥٣ ؛ شعر حارث بن بدر الغداني .

٢ ـ المنازل ، ص ٩٨ ، شعر ربيعة بن مقروم .

٣ ـ المنازل ، ص ٣٣٧ ، ٣١٣ ، ٣١٥ ، ٢٩٣ ، ٣٥١ ، ٣١٨ وغيرها .

٤ ـ المنازل ، ص ٣٩ ، ديوان زهير ، ص ١١٦ .

٥ ـ المنازل ، ص ٩٩ شعر الحارث بن خالد ؛ الأغاني ، حـ . III ، ص ٣١٣ (دار الكتب) .

فليس فيها « نار تضيء » (صورة جاهلية) ، ولا « أصوات سهار »[1] .

وبغض النظر عن أن « المنازل » قد تغيرت لدرجة الجهل بها ، فان هذا التغير لم يمسح ذكراها في نفس الشاعر ، فيقف « بالديار التي لم يعفها القدم[2] » في نفسه ، رغم أنها ذاتها قد عفتها الرياح والامطار ، وبقيت آثارها في نفسه .

د ـ الديار بلا سكان ، قفراء خالية :

يتكلم الشعراء عن ديار خاوية ، خالية من السكان : « المنازل أقفرت » ليس فيها « نار تضيء » ولا « أصوات سهار » ، ويسأل الشاعر سؤالاً مؤلماً في بداية شعره يعرف مسبقاً جوابه « هل بالديار من أحد؟! » ويعلل ذاته بعد أن يتذكر ماضيه في هذه الديار ، ويقارنه بحاضره حيث أصبح اليوم « لا أهل ذوو لطف » عنده ، يلهو معهم ، « ولاصفراء بالدار »[3] . إن هذه الصيغ الاستفهامية التي يسكب فيها الشاعر عواطفه وحزنه توحي بشدة اللوعة والألم « أي المنازل بعد الحول تعترف ؟! » ، ويظهر عدم جدوى البكاء على أطلال تلك المنازل « أم مابكاؤك ؟ » ، التي بعد أن كانت آهلة ، غدت مرتعاً لبقر الوحش

---

١ ـ المنازل ، ص ٩٠ ، شعر بيهس ؛ الاغاني ، جـ XIX ، ص ١٠٨ (بولاق) .

٢ ـ المنازل ، ص ٨٥ ، شعر زهير .

٣ ـ المنازل ، ص ٩٠ ، شعر بيهس .

والنمام ، وغدا أصحابها فى شقاء بعد أن كانوا في نعيم ، مما يستوجب البكاء على مصيرهم [1] « الدار قفر »[2] والرسوم لم يبق منها إلا آثارها .

ه ـ مكان عيش الحيوانات :

لقد غدت الديار المهجورة مكان سكن الحيوانات والطيور : المنازل غيرت الناس الكرماء الرائعين بقر الوحش ، وقطعان الطيور[3] . لقد عفت المنازل ، وبقيت دمن بحمامها الباكي المبكي ، تلك الدمن التي أيقظت عند الناس شعور الحزن والألم[4] .

و ـ المنازل صماء بكماء :

إنها ـ رغم ذلك ـ توقظ في الشاعر الحب والشوق ، والحنين والرغبة في تلقي الجواب على تحية الشاعر ، وعلى أسئلته الكثيرة . لكن هذه المنازل تصمت ، وفيما لو تكلمت ـ تكلمت الكثير ، ذلك لأنها تعلم العلم الكثير عن الماضي ، وكذلك عن أسرار الشاعر السائل . ويسأل الشاعر أحياناً ، « هل بالديار من صمم ؟! » «هل بالديارصمم»،«ودعوت

---

١ ـ المنازل ، ص ٩٠ ، شعر بشر .

٢ ـ المنازل ، ص ٨٨ ، شعر المرقش الأكبر .

٣ ـ المنازل ، ص ٤٠ ؛ ديوان النابغة ، ص ٨٥ ؛ وانظر : المنازل ، ص ٦ ـ ٧ ، شعر بشر .

٤ ـ المنازل ، ص ٢٠ شعر البكاء .

أخرس لا يجيب دعائي » ، « لو كان رسم الدار ناطقاً تكلما »(1) . أو أنه يقفي : « ولا بالدار صمم»(2) ، عندما يكلمها الانسان المعنّى صاحب الحاجة ، الذي يبحث عن أحبته . إن (الديار) التي يقف بها الشاعر تهيج أشواقه ، ويتوخى أن تجيبه لكنها «استعجمت» عن الجواب .

ز ـ تشبيه آثار الديار :

لن يبقى بعد خروج السكان من الديار وهجرانها إلا آثارها التي هي أشبه بآثار خط قلم أسود :

أرسومُ دارٍ أم سطورُ كتاب   درسَتْ بشاشَتُها مع الأحقاب

ـ لمن الدارُ كأنضاء الكتابِ   هاجت الشوق وعيت بالجواب (3)

في أشعار شعراء العصر الأموي : [ابن الرقاع ، حفص الأموي ، الأحوص وغيرهم](4) يعثر على عناصر وصف للديار ، وبقاياها ، وتمثيلهم لها بتشبيهات متنوعة : إن الدار الدارسة ، الصامتة أشبه بكتاب خلق عتيق ، قد أهاجت الشوق ، وزادته في نفس المحب [الشوق إلى سكانها

---

1 ـ المنازل ، ص 83 ، 84 ، 88 ، 313 ، 351 ، أشعار عبد ابن الطبيب ، الجعدي ، المرقش ، النابغة ، عنترة وغيرهم .

2 ـ المنازل ، ص 85 ، شعر زهير .

3 ـ المنازل ، ص 327 ، 88 .

4 ـ المنازل ، ص 281 ، 283 ، 284 ، 300 ، 320 .

السابقين الذين عاشوا في رخاء ونعيم] : « أهل أنعام » ؛ آثار هذه الديار ـ مرابط الخيل فقط ـ عملت فيها الرياح فعلها ؛ وأسفتها بالتراب ، فغطتها بأكسية رملية . إن هذه الآثار تهيج الذكرى ، والأسى ، والالم في النفس . وابن قيس الرقيات[1] بعد سلسلة من الاستفهامات التعجبية « هل للديار بأهلها علم ؟! » أم « هل يبين فينطق الرسم ؟! » وبعد سؤاله صاحبه :

يا صاح هل أبكاك موقفنا　　أم هل علينا في البكا إثم ؟!

بعد هذه السلسلة من الاستفهامات يسأل صاحبه مستغرباً عن سبب بكائه المنزل البالي الذي غدا اشبه بالوشم في ظاهر اليد :

أم ما بكاؤك منزلاً خلقاً　　قفراً يلوح كأنه الوشم ؟

وتقارن آثار الديار عند شاعر آخر بآثار القلم ، حيث أضحت الديار بعد رحيل أهلها وكأنها « آثار أقلام »[2] ، وهذا دلالة واضحة على البيوت البدوية ، التي برحيل أهلها لن تدوم آثارها ، ذلك لانها خيم وأعواد .

وإذا كان الشعراء الاقدمون يصفون الديار (بالعي) ؛ بانها صماء بكماء ، لا تقوى على إعطائهم الجواب الشافي على أسئلتهم ، فان ذا الرمة،

---

١ ـ المنازل ، ص ٦٨ ؛ ديوان ابن قيس الرقيات ، ص ٥٥ .

٢ ـ المنازل ، ص ٦٣ ، شعر ابن المضرس .

وهو يطور طريقة التعامل مع المنازل والديار ، يصفها بالبخل في الكلام :

ألا حيِّ المنازل بالسلام   على بُخل المنازل بالكلامِ (١)

والديار عنده [عند ذي الرمة] مقفرة خالية ، دارسة عافية . إنها « خيمات » بليت ، فغدت مكان عيش بقر الوحش والغربان « وحمائم ورق في الديار وقوع » . أهاجت للعين دمعة ، لقد وقف فسلم ، فكادت « دمنه الدار تنطق » لمعرفها صوته(٢) .

ويحتوي شعر شعراء العباسي ، فيما يتعلق بوصف حالة الديار والمنازل ، على تلك العناصر التي قد أشرنا إليها في شعر الشعراء السابقين لهم : فالديار قد حرمت من سكانها الطيبين الصالحين ، وأصبحت « مراداً للنعاج المتخاذلة » ، والربوع لا تقوى على الكلام « فلما سألت الربع ... لم ينطق » (٣). لقد لبست الديار ثوب الفناء ، لا تعرفها من منظرها الخارجي ، لكن بواسطة الشعور والحب ، لانها ديار قد تغيرت لدرجة عدم المعرفة(٤) :

---

١ ـ المنازل ، ص ٤١ ؛ ديوان ذي الرمة ، ص ٥٩٤ .

٢ ـ المنازل ، ص ١٤٨ ؛ ديوان ذي الرمة ، ص ٣٨ ، ٣٩ .

٣ ـ المنازل . ص ٣٢ ؛ شعر أبي الحية النميري .

٤ ـ المنازل ، ص ٦٥ ، ١٥٠ ؛ ديوان أبي نواس ، ص ٤٩٦ ؛ ديوان المتنبي ، جـ ١ ، ص ٤٠ .

سل ديار الحيّ من غيّرها   وعفاها ومحا منظرها ؟!(١)

والمنازل كالناس تعطي الوعود ، وتفي بهذه الوعود ، فالمنازل قد وعدت الحوادث بأن تدرس ، وتستوحش ، فلم تقدر على مطلها ،وإخلاف وعدها(٢) .

لقد«لعبت به[الدار] أيدي البلى   لعب الشكوك بنفس إنسان» (٣)

والبون شاسع بين ماضي الديار الزاهر ، وحاضرها الكئيب ؛ لقد كانت نجوماً لكنها الآن دمن ورسوم ، كانت مصدراً للسرور ، وغدت مبعثاً للحزن والاسى ؛ غدت بعد الفراق (ناحلةً) وكأنها إنسان يضمر ، ويضعف ؛ وغدا الاشراق فيها ظلاماً ، والضحى أصيلاً ، « لقد نادى بهن الموت أهلاً فأسمعا » ، ويتمنى الشاعر أن لا يراها على حالتها الحاضرة بعد أن كان عيشه فيها نعيماً :

يا ديار الأحباب لا أبصرتك العين   من بعد أن حللت رسوماً(٤)

---

١ ـ المنازل ، ص ٧٢ شعر أبي العتاهية .

٢ ـ المنازل ، ص ٩ ، ٣٢ ، ٣٣ ؛ ديوان أبي تمام ، ج I ،ص ، ٣٧٦ ، ٤٠٦ .

٣ ـ المنازل ، ص ٢٤ ، ٣٦ ، ديوان مهيار ، ج IV ، ص ٣٦ و ج . II ، ص ٢٥٩ .

٤ ـ المنازل ، ص ٧٢ ، شعر المرتضى .

« لدار .. لطول بلاها والتقادم صحيفة بيضاء »(٥)

والديار بمحض اختيارها ترفض الكلام ، ذلك لان السكوت شعارها ، ترفضه عن مقدرة ، حيث بامكانها النطق ، ولو نطقت لشفت مرض السائل وحزنه :

«أبَتْ لا تكلّمك الديار....»

فلو نطقت شفت في شعاعاً ولكن السكات لها شعار »(٢)

ح - عوامل تهديم المنازل [الرياح والزمن والأمطار] :

كل هذه التغيرات التي حدثت على الديار وآثارها إنما كانت بتأثير الرياح (الجنوبية ، والشمالية ، وبخاصة الشرقية التي هي من أكثر رياح الصحراء شيوعاً) . إن هذه الرياح ، بتتابعها الواحدة تلو الاخرى ، تمحو ذلك الذي تركه الناس وراءهم ، وتدمر الديار ، وتعفوها ، غير تاركة حتى الآثار التي تدل عليها : إذ إن (رياح الجنوب تزيل ما أثبتته رياح الشمال) . و « المنازل أصبحت للرياح منازلاً »(٣) .

---

١ - المنازل ، ص ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، شعر ابن المولى .

٢ - المنازل ، ص ٧٤ ، شعر القطفاني .

٣ - المنازل ، ص ٣١ ، ٤٠ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ١٨ ، ٤٨ ، شعر امرىء القيس ، النابغة ، ابن الرقاع ، البحتري .

إن حوادث الدهر ، والامطار الغزيرة ، والزمان قد قضـت على الديار ، ودمرتها ، وعفت حتى آثار ورسوم أماكن نزول القبيلة.والشعراء يصورون الحياة البدوية بتنقلها وترحالها الأبديين ، مشيرين إلى هذه الظاهرة الاجتماعية ـ التجاور المنتظم ، والتعايش في أماكن عيش محددة معروفة (أماكن النزول) صيفاً وربيعاً ، على امتداد سنوات عـدة ، (عـام بعد عام) :

عفا عام حلَّتْ صيفه وربيعه وعامٌ وعامٌ يتبَع العام قابلُ

«أي المنازل بعد الحول تعترف؟! (١)» «أخنى عليها الذي أخنى على لُبَدَ (٢)»

لكن قوى الطبيعة لم تعد ـ فيما بعد ـ العوامل الوحيدة التي تدمر « المنازل » ؛ في هذا يشارك الناس أيضاً ، بقيامهم باعتداءات عدوانية ، وهجمات منظمة . فغدت حجارة المنزل تحارب وتقاوم ضربات المعـاول المهدمة ، وكأن « بينهم حرب وائل » ، وكأن المعتدي قـد أراد عن فيه وقصد ـ محو آثار القوم ، فلن يتركها :

« لمستخبر أو واقف أو مسائل » ، ولن يسمح لها بأن تكون رسول حضارة ذلك القوم :

---

١ ـ المنازل ، ص ٣٠ ، ٦ ، ٧ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٣٢٧ ، ٣١٣ ، ٣١٥ ، ٣٣٤ ، شعر زهير ، النابغة ، بشر ، ابن الرقاع ، نصيب ، قيس بن ذريح .

٢ ـ الاسطورة عن النسر المعمر الأبدي [لبد] .

منازل قوم حدثتنا حديثهم ولم نَرَ أحلى من حديث المنازل (١)

ط وصف الماضي :

إن الشعراء بوقوفهم على المنازل والديار ، ووصفهم لحالتها الراهنة ، ولأثر عوامل الطبيعة عليها ، يتذكرون الماضي ، ماضيها ، يصفونه ، ويقارنونه مع الحاضر . فماضي الديار طويل وغني وعامر :

« كم للمنازل من عام ومن زمن ؟! »(٢)

والديار المهجورة قد أيقظت في الشاعر تذكر الأوقات الماضية ، تذكر الحياة الماضية السعيدة الرائعة . ويقارن الشعراء تلك الحياة بالحالية القاسية الصعبة المحزنة :

إذ « لا أهل ذوو لطف » يستطيعون مواساتهم .(٣) والديار المقفرات « بلين وهجن للقلب اذكاراً »(٤) . «وهل الايام الخوالي رواجع » .

أراجعةٌ ياليلُ أيامنا الألى بذي الرِّمْث أم لا مالهنَّ رُجوعُ ؟!(٥)

---

١ ـ المنازل ، ص ١٣ .

٢ ـ المنازل ، ص ٣٩ : ديوان زهير . ص ١١٦ .

٣ ـ المنازل ، ص ٩٠ ، شعر بيهس .

٤ ـ المنازل ، ص ٩٨ ، شعر ابن مفرّغ .

٥ ـ المنازل ، ص ٨٣ ؛ ديوان ذي الرمة ، ص ٣٥٢ ، ٣٥٣ .

لقد كانت الديار فيما مضى (نجوماً) ، لكنها الآن دمن ورسوم ، كانت مبعثاً للسرور والحب ، وغدت مصدراً للحزن والألم(١) .

ي - شعور الشاعر وسلوكه :

إن بقايا « الديار » توقظ في قلب الشاعر الشوق والحنين ، اللذين يشبهان القشعريرة الحادة الخطيرة عند المريض . والشاعر ، بوقوفه بين هذه الاطلال ، وبقايا الديار ، من الحزن والالم ، يشعر وكأنه سكران قد أعطي الخمرة منذ الصباح الباكر(٢) . لم يبق للشاعر بعد رحيل الأهل والأقرباء سوى أن « يتحسر ويتذكر » . وفي تذكره هذا يغدو نشواناً ، وكأنه أعطي خمرة فلسطين . لقد منعت عليه طارقات الهموم النوم « بأسى وإذكار خطب قديم »(٣) . ويبحث الشاعر عن ملجأ عند « المنازل » ، ملجأ من التحسر على المحبوبة ، لكنه عبثاً يبحث ، إذ إن النجاح لن يحالفه في مسعاه . ذلك لأن « المنازل » توقظ في قلبه التذكر والشوق ، فكان كمن يريد « مداواة حر النار بالنار »(٤) . و «الديار» « عفت إلا أثافيها » « فاندفعت فيها مغانيها » ، وجرت الرياح العاصفات أذيالها عليها فغدت وكأنها ثوب بال خلق ، قد وقف الشاعر يسائلها بألم

---

١ - المنازل ، ص ٧٣ ، ٧٤ ؛ ديوان المرتضى ، ج . III ، ص٢٠٤.

٢ - المنازل ، ص ٨٦ ؛ ديوان امرىء القيس ، ص ١١٤ .

٣ - المنازل ، ص ٦٧ ، ٦٨ ، شعر العدي بن الرقاع .

٤ - المنازل ، ص ٨٩ ، شعر مهيار .

كأنه « ساورته حية رقطاء »[1] ولشدة تغـيير وتبدل الديار يبكيها « وقفت عليها ، ففاض الدمع ... »[2] . وهو يائس يطلب منه أصدقاؤه التجلدوالصبر ، لكنه يرى مواساته في بكائه ، ثم يسأل السؤال الاستنكاري اليائس :

وإنْ شِفائي عَبْرَةٌ مُهراقَةٌ
فهلْ عندَ رسم دارس منْ مُعَوَّلِ ؟!(٣)

ولا يجوز لاحد أن يلومه في بكائه أهله ومنازلهم :

إن قومي تتابعوا بعدما كا نواهمالقوم ،فابك غيرملوم (٤)

والشعراء يدعون إلى البكاء على أماكن نزول القدماء ، الذين كانوا أفضل ممن حل محلهم ، إذ كان الاقدمون خير من سكن الديار :

فابكي إذا بكت المنازل أهلها ... معذورة (٥)

وأحياناً لا يدري الشاعر أيهما أجمل بحاله : البكاء أم الصبر ، إذ

---

١ ـ المنازل ، ص ٣١٤ ؛ ديوان الحطيئة ، ص ١١١ .
٢ ـ المنازل ، ص ٣٨ ، شعر عروة بن الورد .
٣ ـ المنازل ؛ ص ٣١ ؛ ديوان امرئ القيس ص ٨ ، ٩ .
٤ ـ المنازل ، ص ٧٠ ، شعر ابن الرقاع .
٥ ـ المنازل ، ص ١٧ ، شعر ابن الرقاع .

بالبكاء شفاء من غصة الشوق ، وبالصبر الرجولة والجلادة[1] . وأحيانا أخرى يؤمن بعدم جدوى البكاء ، ويدعو للامتناع عنه :

« أم ما بكاؤك ؟! »[2] .

ويتمنى الشعراء عادة لاماكن السكن الابدية والخير ، ويدعون لها - على الدوام - بالسقيا ، وينتهون بالخاتمة لمواساة أنفسهم بأنفسهم ؛ بعضهم يجد المواساة والسلوان فقط في البكاء واليأس . واليأس ، من جهة ، عامل من عوامل قطع الحنين إلى الديار[3] ، ومن جهة أخرى - دواء للعين إما : كي تذرف الدموع[4] ، وإما بهجر الديار وتركها ، والتسليم بالمصاب ، والاستسلام للعزاء :

فلما بدا لي اليأس عدّيْتُ ناقتي عن الدار .... »[5]

حتى إن الشاعر ، أحياناً ، يشير إلى إطالته في بكاء الديار وزيارتها ، ويلمح في الاطاله ممنى الملل :

طال في رسم الديار بكائي وطال ترددادي بها وعنائي[6]

---

١ - المنازل ، ص ٣٣٩ ، شعر ذي الرمة .

٢ - المنازل ، ص ٦٣ ، ٦ - ٧ ، شعر ابن المفرس ، وبشر .

٣ - المنازل ، ص ٨٣ ، شعر ابن الطبيب .

٤ - المنازل ، ص ، ٨٢ ، شعر ذي الرمة .

٥ - المنازل ، ص ٦٤ ، شعر أبي نواس .

٦ - المنازل ، ص ٦٤ ، شعر أبي نواس .

المواساة والعزاء يكمنان ، أحياناً ، في العبرة والعظة بما مضى : فالفراق محتم لا مفر منه ، إنه قدر جميع الناس بلا استثناء . والفراق واللقاء قانونا الحياة ، وليس الشاعر أول من تفرق شمله وتهدمت دياره[1] ، لكن هذا عمل القضاء والقدر الذي يصيب الجميع :

كذلك الدهر إن الدهر ذو غيرٍ   على الأنام وذو نقض وإمرار[2]

ـ وهي الدنيا إذا ما دَبَرَتْ   جعلتْ مَعروفَها مُنكرَها

إنما الدنيا كظلٍ زائلٍ   أحْمَدُ اللهَ كذا قدّرها[3]

أماكن السكن عند العذريين والعمريين :

إن الدور الخاص في تطوير موضوع « المنازل » و « الديار » في الشعر العربي قد شغلته مجموعتان من الشعراء ظهرتا أيام بني أمية ، وهما : مجموعة الشعراء العذريين ، ومجموعة الشعراء العمريين . إن الشعراء العذريين (شعراء الجزيرة العربية من قبيلة عذرة) ، ومن تماثلهم بطرق هـذا الغرض كقيس بن الملوح وغيره ، قد قالوا شعرهم في الغزل العفيف ، وتحدثنا الروايات أن الشعراء البدو ـ العذريين ومحبوباتهم قد تعرضـوا

---

١ ـ المنازل ، ص ٩٠ ، ١٨٥ ، ٢٠ ؛ شعر بشر ، ابـن مقروم ، البكاء .

٢ ـ المنازل ، ص ٩٠ ، شعر بيهس .

٣ ـ المنازل ، ص ٧٢ ، شعر أبي العتاهية .

للكثير من الصعوبات والعراقيل التي وقفت أمام حبهم ، حيث حيل بينهم وبين محبوباتهم . لقد منعوهم من اللقاء والعيش بقرب بعضهم ، فكان شعرهم عاطفة ملتهبة ، وعفة محضه ، وألماً وحسرة . وكانت « المنازل » و « الديار » و « البيوت » معطاة في أشعارهم بقوة خاصة . وبتأثير خاص معين ، حيث إن (المنازل والديار والبيتوت) ، بالنسبة لهم ، مثيرة للشوق ، ومحركة للذكرى . هذا الشوق ، وهذه الذكرى يأخذان على الشاعر مجامعه . ولذا فان مصطلحات « منازل وديار وبيوت » مقرونة بالتهييج والذكرى ، وبأسماء محبوبات معينات . « إن المنازل هيجت إطرابي » :

وذكرتُ عصراً يا بثينة شفّني ... إذ فاتني، وذكرتُ شرخ شبابي (1)

ويقول جميل في مكان آخر أيضاً :

« أهاجتك المنازل والطلول »

نَعَمْ وذكرتَ دنيا قد تقضّتْ ... وأي نعيم دنيا لا يزول ؟!

ولا يخرج عن هذا كثير بن عبدالرحمن الخزاعي إذ يقول : « أ للشوق لما هيجتك المنازل ؟! » ، «تذكرت فانهلت لعيني دمعة » ، « ليالي عيش نعمنا بوجهه زمنا »(2) .

---

١ ـ المنازل ، ص ٣٥ ؛ ديوان جميل ، ص ، ٣١ .

٢ ـ المنازل ، ص ٤٧ ؛ ديوان كثير ، حـ . ١ ، ص ٢٤٤ .

ان مرور كثير على منازل أحبته يثير فيه الشوق ويدعوه للبكاء : « أشاقتك الديار »[1] . ويسأل المجنون أيضاً سؤال العارف « أهاجتك ديار ليلى ؟ » . انه يمر على ديارها ليقبل جدرانها :

أمرّ على الديار ديار ليلى أقبّل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حب الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديارا

وتبلغ عاطفته ذروتها عندما يلتقي بجبل التوباد في أرض حبيبته التي يبحث عنها وعن أهلها بعد أن اختل عقله ـ كما يروى ـ فيدب فيه الحياة[2] ، ويغدو الجبل وكأنه انسان ناطق يحاور مبتسماً ويجيبه على كل تساؤلاته ؛ فالجبل ينادي « نادى بأعلى صوته فدعاني » ، وعندما سأله عن أحبابه قال : « مضوا واستودعوني ديارهم ... » ، ثم يعلل نفسه على لسان الجبل بقوله « وما الذي يبقى على الحدثان ؟! .. »

ويقابل الاتجاه السابق اتجاه آخر ، يسمى في علم الأدب العربي الحديث « بالعمري » ، نسبة الى الممثل الاساسي لهذا الاتجاه ، الشاعر المكي عمر بن أبي ربيعة . لقد نشأ هذا الاتجاه ونما في الحجاز ، منذ تسلم عثمان الحكم ، حيث انعكس لينه السياسي على مظاهر الحياة الأخرى ، ووضح بانتقال الحكم لبني أمية ، وبانتقال عاصمة الخلافة

---

١ ـ المنازل ، ص ٨٠ ، ديوان كثير ، حـ . ١ ، ص ١٢٢ .

٢ ـ المنازل ، ص ٦٦ ؛ ديوان قيس بن الملوح ، ص ٢٧٥ .

من المدينة الى دمشق . هذا الحدث الذي يعتبر هاماً في تاريخ الخلافة ان أثر امتداد الفتوح ، واتساع الملك قاد لاعتبار العرب الطبقة الممتازة في الأمصار الاسلامية ، لأنهم يمثلون الدولة والدعوة معاً . ولهذا كانت لهم امتيازات ، وأصاب بعضهم ثراء وغنى ، وعاشوا نتيجة ذلك ذلك حياة ترف ونعيم ، كما ان حروب بني أمية مع معارضيهم في الحجاز دفعت بعض الناس الى ترك السياسة والانخراط في حياة النعيم . في هذا الصراع قد شاركت أيضاً القوى الشعرية ، لكن بعض الشعراء ابتعدوا عنها وانخرطوا بحياة الترف والنعيم واللهو التي أشرنا الى أسباب ظهورها ؛ ففي نفس الوقت الذي عبر فيه جرير والفرزدق والاخطل في اشعارهم عن الصورة الايجابية للحياة السياسية في دمشق والشام ، كان عمر بن أبي ربيعة وغيره قد ابتعدوا عن الموضوعات الاجتماعية والسياسية ، متغزلين بشعرهم بحياة اللهو والنعيم واللذة ، مشببين بالنساء . وكان الفارق الرئيسي بين غزلهم وغزل العذريين أن العذريين أهدروا الحياة الخارجية ، وأغنوا الحياة الداخلية ، أما ابن أبي ربيعة وجماعة اتجاهه فقد اجتمع لهم المال والشباب والفراغ والجدة ، فأولوا الحياة الخارجية عناية فائقة . إننا نجد عند العمريين قفزة حادة واضحة في اتجاه آخر فيما يتعلق «بالمنازل والديار» انتقال من التذكر وبكاء الديار الى حبها والارتحال اليها . إنهم لا يبكون الديار وآثارها ، إنما يسعون جاهدين للقياها ، ذلك لان الديار عند هؤلاء الشعراء غير مهدمه دارسة بفعل الرياح والامطار والزمن ، بل على العكس انها مصدر الراحة والهناء واللهو والنعيم ، ومكان عيش المحبوبة حيث ترتاح عواطف الشاعر ، وترى كل شيء جميلاً لجمال الحياة بقرب الحبيبة والمشوقة .

المنازل والديار عندهم - هي مكان الراحة ، والسرور والتلذذ مع المعشوقة « قد أرانا بغبطة فيه فلهو ونجذل »[1] . ان هذا النموذج من الاتجاه الشعري والانقلاب الحاد في التوجه الى الديار انما فرضته ظروف حياة هؤلاء الشعراء .

لقد ضاق عمر بن أبي ربيعة ذرعا بالبقاء طويلا في « المصلى » ، وشنى البقيع » ، وسعى جاهداً لزيارة « ديار »معشوقتيه«هندوسعدى»[2]. وكذلك عند العرجي[3] « أما الديار فقاما لبثوا بها » ذلك لحبهم الرحلة والتنقل . وشبا شوقهم بسياط وضعت في أعناق العيس لتحثها على العودة الى ديار الاحباب (الى الاوطان) .

عناصر جديدة في التوجه الى موضوع « المنازل والديار » ومعاملتها

وعلاوة على العناصر والاتجاهات التقليديةالتي انطلقت تعبيراً عن حياة العربي - البدوي الواقعية في الجاهلية ، وكانت مادة أساسية للتقليد في العصور الزمنية اللاحقة ، علاوة على كل هذا فقد ظهرت في الشعرعناصر

---

١ - المنازل ، ص ١٤ ؛ ديوان عمر بن أبي ربيعة ، ص٢٠٧(بيروت)، ص ١٢٥ (ليبزيغ) .

٢ - المنازل ، ص ٩٧ ؛ ديوان بن أبي ربيعة ، ص١٧٤ (بيروت) ، ص ٢٣٨ (ليبزيغ) .

٣ - المنازل ، ص ٩٢ .

جديدة في معالجة موضوع « المنازل والديار » . فالجاهلي مثله وقيمه التي تمسك بها وقاتل من أجل الحفاظ عليها . فالكرامة وحفظ الشرف من أهم ما تمسك به الجاهلي ، وضحى في سبيله بكل شيء . ورغم أن الاتجاه الغالب حتى الآن عند الجاهليين هو الوقوف على الديار ، والبكاء عليها ، وتذكر الأحبة من خلالها ، أو تذكرها من خلال الأحبة ، والدعوة لها بالسقيا ، والتأسف على ماضيها ، وماضي الحياة مع الحبيبة ، فاننا في شعر قيس بن الخطيم (شاعر قروي مات عام ٦١٢ م) نلمح عناصر تجديد واضحة ؛ انها دعوة ، إن لم تكن مباشرة صريحة لكنها تلمح بوضوح من خلال الأسطر ، إنها الدعوة إلى الرحيل وترك الديار التي لا تؤمن فيها للمرء كرامته :

وما بعض الاقامة في ديار يهان بها الفتى إلا عناء(١)

ولقد كان ذكر المنازل عند بعض الشعراء الآخرين في المراحل اللاحقة تقليداً للجاهلية حتى ان الشاعر يعيش بين أيدي الملوك ، في القصور الفخمة ، واذ به يذكر المنازل القديمة في الصحراء والحجاز وليس بينه وبينها أية صلة . تقليد الشعراء هنا جاء مفتقراً للعاطفة التي كانت تشيع في شعر الجاهلية ، معوزاً لصدقها . ثم لم يعد ذكر المنازل احياناً مثيراً للأحزان والأسى بل تشعر بأثر الحضارة في التوجه الى

---

١ ـ المنازل ، ص ٩٣ ؛ ديوان ابن الخطيم ، ص ٩٥ (القاهرة) ، ص ٥٣ (بغداد) .

المنازل وذلك بتحيتها عند جرير «حي المنازل بالبردين قد بليت » ، «حي المنازل اذ لانبتغي بدلا » ، «قل للمنازل ... حييت»[1] (بصيغة المجهول).
تلك التحية التي تظهر عليها بوادر التكلف . ان جريرا هنا ، في اختلاف عن الشعراء الآخرين ، غالباً ما يستعمل الفعل (حي - أبلغ التحيه)... الخ .. حتى إن شعر الهجاء بدوره قد أثر على الشعراء في توجههم الى أماكن وقوف القبيلة . انهم يتوجهون الى هذه المواقف والمنازل بذم بعضها لاظهار مكانة الأخرى :

ذُمَّ المنازل بعد منزلة اللوى والعيش بعد اولئك الأقوام[2]

وتظهر آثار الحياة الجديدة بوضوح فى شعر أبي الحية النميري [من محضرمي الدولتين] ، (القرن الثامن الميلادي) . إذ يصف في مقطوعته ظعائن حبيبته التي أعولته اعوالاً لا يجدي ، لكنه يعدها بأن لا ينساها (ما دعت مطوقة ورقاء شجوا على غصن)[3] . فالذي يذكره بحبيبته هنا هي الحمامة على غصن الشجر المجاور ، وهذا ما يشبه قول أبي فراس الحمداني الأسير :

أقول وقد ناحت بقربي حمامة أيا جارتا لو تشعرين بحالي

---

١ - المنازل . ص ١٦ ، ٣٢ ، ٣٧ ؛ ديوان جرير ، ص ١٥٣ ، ٥٩٣ .

٢ - المنازل ، ص ١٤ .

٣ - المنازل ، ص ٤٤ .

وكعادة القدماء فان ذكرى الأيام الخوالي في المنازل والديار تهيج الشاعر ، لكن هذه الذكرى ان لم تهجها قوافل الظاعنين فان شيئاً جديداً يهيجها، انها « حمائم ورق في الديار وقوع »(١) . هذه الحمائم التي تنوح فتبكي الأحبة المعذبين الذين يتذكرون أيامهم الخوالي .

أما عمر بن أبي ربيعة الذي اعتاد التغزل بالجميع ، والتنقل من عشيقة الى أخرى ـ خلافاً لغيره ـ فانه ينهال باللوم على العاشق الذي يطير لبه (إن دار الرباب تباعدت أو انبت حبل الوصل) ، ويدعو للصحوة من السكرة (أفق) ، إذ إن العاشقين قد أفاقوا وتركوا الهوى، واستحكموا عزيمتهم ، (وكف النفس) ، واستقن الحياء (التزم) ، فان المقادير المحتومة هي التي تباعد وتقارب ؛ (أمت حبها) (واجعل مكان وصالها) أمثالها ، الذين تجاورهم فان كنت قد تعلقت بها ، فلا تكن مادة حديث ولوم البدو والحضر . ثم يدعوه دعوة صريحة الى نسيانها والتخلي عنها :

وهبها كشيء لم يكن، أو كنازح   به الدار ، أو غيّبته المقابر (٢)

التجديد في شعر أبي تمام من هذه الناحية انما يتمثل بدعوته بالسقيا ، ليس فقط لبقايا آثار الديار ، كما هي العادة ، ولكن أيضاً لتلك

---

١ ـ المنازل ، ص ٨٢ ، ٨٧ ، شعر ذي الرمة .

٢ ـ المنازل ، ص ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ديوان عمر بن ربيعة ، ص ٩٨ (بيروت) و ص ٧ ـ ٨ .

الامكنة التي يصل اليها الاهل والاحبة .

اذ إن التصابي قد حسن لديه (دار البؤس) فصارت (جنات النعيم) . إنها في الوقت الذي أصبحت فيه ميدان السوافي ، صارت أيضاً ميداناً لهمومه ، لقد شكا الى مشتاك إليه غير رحيم ، ودموعه في بكائه على الرسوم ستترك في خده آثاراً ورسوماً[1] .

والبحتري الذي كان في معظم المجالات مقلداً في هذه المطالع (بمعانيها) وباستخدام (المنازل) فتارة (البلى لم يبق من عراصها سوى أرسم) ، (المنازل أضحت للرياح منازلا) ، (منازل ما تجيب من خرس ومن صمم ، تظهر آثار الحياة الجديدة في مطلعه الطللي ، كما وتظهر عنده بعض الاستخدامات الجديدة ، فلم تعد المنازل في صحراء مقفرة ، بل ترى « بين ملتف الأراك منازلاً » ، والصبابه تقسم قسمين : « فشوقه للظاعنين ، ودمعه للمنزل » ، والمنزل شامخ ثابت رغم تعاقب نكبات الزمان عليه - لم تعد معالم المنازل بالية قديمة لا تقوى على الجواب ، لكنه يحيي « منزلاً جدداً معالمه » ، « حتى يكاد يرد رجع جوابي » . والبحتري لا يقل ثورة عن بشار عندما يعلن بصراحة :

ومن السفاهة أن تظلّ مكفكِفاً دمعاً على طللٍ تأبَّدَ مُقفِرِ (٢)

---

١ ـ المنازل ، ص ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٣١١ ، ٣١٣ ، ٣٢٩ ، ٣٣١؛ ديوان أبي تمام ح . II ص ، ٣٥١ ، ٤٥٦ ، ح . I ، ص ، ٣٤٦ ، ٢٦٩ ، ح . III ، ص ، ٢٢٢ .

٢ ـ المنازل ، ص ٤٨ ، ٤٥ ، ٤٣ ؛ ديوان البحتري ، ح . II ، ص ٢١٢ ، ٢١٧ .

أما في شعر المعري فاننا نعثر على فصل كامل من عناصر التجديد. فعندما يخاطب خاله محمداًالذيهاجرمن الشام الى المغرب يدعوه(لحبالوطن، والحنين ، والعودة إليه) :

« علام هجرت شرق الارض ؟ (حتى) أتيت المغرب » ؛[يقصد بشرق الارض ـ سورية الشام ؛ أي قسم من الارض الواقع شرقاً بالنسبة لقسم آخر (المغرب) الواقع غرباً] ؛ إنك لن تجد « الديار » ـ البلاد الجديدة ـ المهاجر اليها كما يتوخاها لك الصديق ، فأنت فيها غريبوحيد. ثم يدعوه للعودة إلى الشام وأهلها إن لم يعجبه المقام قائلاً : وعلى كل حال، حتى ولو طاب لك العيش في غير الشام فانما يطيب لك ظاهـره ، ذلك لانك فيه غريب لا يستقيم أمرك كما يستقيم في بلادك ، بين عشيرتك . لماذا رحيلك إذاً ؟ أترحل لتجد في الغرب أخاً يفي بحق الاخـوة ؟! لكنك بذلك تضيـع أخاك القديم الذي كان قد حصل لك من عيشك في في أرضك ووطنك :

علامَ هَجرْتَ شرْقَ الأرض حتى أتيتَ الغَرْبَ تختبرُ العِبادا

فان تجد الديّار كما أرادَ الـ غريبُ فما الصديق كما أرادا

إذا الشِّعْرى اليمانِيَةُ استقلّت فجددْ للشآمية الوِدادا

فللشامِ الوفاء وإنْ سواهُ توافى مَنْطِقاً غَدَرَ اعتقادا

ظعَنْتَ لتستفيدَ أخاً وفيّاً وضيعتَ القديمَ المستفادا(١)

---

١ ـ المنازل ، ص ٦٥ ؛ سقط الزند ، حـ ١ ، ص ٢٢٣ .

وبغض النظر عن ذكر المعري لعناصر الحياة البدوية (الجمل ، الناقة ، الأطلال ، الأعلام . الخ) ، فانه يسوقها في صورة جديدة ؛ فالناقة من ضعفها أشبه بحرف « نون » ، والآثار ، وبقايا الاطلال ومعالم الديار أشبه بسطور إبهام وألغاز ، ويدعو لدار الحبيبة أن تسقى ، ويتفاءل لها بالسعادة ، وبغفران ذنوب أهلها ، فلحبيبته وأهلها رحلة في كل شتاء هي سبب التنائي والفرقة ، ويدعو على الشتاء الذي هو سبب الفرقة ، ويتمنى أن يعاقب بجدع الانف ، ويبكي في ديار الحبيبة التي لم تورق أوتادها إلا بعد أن سقاها مطراً من الدمع . إن حنينه الحقيقي لوطنه الأم [المعرة] ، إذ وهو في الكرخ حيث الناس فرحون ، يشتاق للمعرة ؛ فلا شأن له بالكرخ وبغداده :

فيابرق ليس الكرخ داري وإنما رماني إليه الدهر منذ ليالِ

ويتمنى وهو بالكرخ أن يحصل ولو على قطرة ماء من ماء المعرة تروي ظمأه ، وهو الانسان الذي يحن الى الوطن :

وماء بلادي كان أنجع مشرباً ولو أن ماء الكرخ صهباءُ جربالُ

فيا وطني إن فاتني بك سابقٌ من الدهر فلينعم لساكنيك البالُ

وإن أستطع في الحشر آتِك زائراً وهيهات لي يوم القيامة أشغال

وقال أيضاً في مناجاة البرق :

فهل فيك من ماء المعرة قطرةٌ تروّي بها ظمآن ليس بسال

فليت سنيراً بان منه لصحبتي بروْقَيْ غزالٍ مثلُ قرن غزال

(سنير : جبل بالشام على طريق العراق ، روقي غزال : موضع على شط العرب[1]) .

إن طبيعة الحياة المستهترة ، في بعض المجالات ، بما فيها من مجالس شراب ولهو كانت صفة لحياة مجموعة من الشعراء الشبان ، ولاقت انعكاساً واسعاً في مجالات شعرهم . « فالديار » التي ببرقة قد :

أصبحن بعد نعيم عيش مونق قفراً ، وبعد نواعم أدغانا (٢)

وإنه لمن المثير أن نلاحظ أن آثار الديار البالية لم تعد وحدها الباعث على بكاء الاطلال والديار ، بل على العكس فان حياة النعيم والترف واللهو وحياة اللذة الشخصية هي التي تثير البكاء ، وتحرك المشاعر . ففي أيام المعتصم ، وعندما يكون الحديث حول منازل الخلفاء [القصور] ، التي

---

١ ـ المنازل ، ص ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٣٣٠ ، ٣٤٣ ؛ اللزوميات ، حـ . I ، ص ٢٦٧ ؛ سقط الزند ، حـ . I ، ص ١٩٨ ، حـ . II ، ص ٤١ ، ٩٩ ، ٥٩ .

٢ ـ المنازل ، ص ٩١ ؛ ديوان جرير ، ص ٢٨٠ (أو المنازل ، ص ١١٩ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣) ، شعر جرير .

تعج بالنعيم والعيش المرفه ، وتزخرف بمختلف أنواع الزخارف ، تبدو أطلال هذه المنازل ثابتة دائمة غير بالية :

يا منزلاً لم تبلَ أطلاله حاشا لأطلالك أن تبلى

ولم تعد الأطلال مدعاة للبكاء « لم أبك أطلالك » ، لكن العيش في تلك المنازل ، حياة النعيم فيها هي « أولى ما بكاه الفتى » . وغدا المكان الذي يؤمن الراحة والعيش هو المكان المأسوف عليه الذي يستدر الدموع ، وكأن التعلق « بالمنزل » قد غدا تعلقاً بالعيش في ذلك المنزل :

يا منزلاً لم تبلَ أطلالُه حاشا لأطلالِك أن تبلى
لم أبكِ أطلالَك لكنَّني بكَيْتُ عيشي فيك إذ ولَّى
والعيش أولى ما بكاه الفتى لا بُدَّ للمحزون أن يسلى
قد كان لي فيك هوىً مرَّة غيَّرَه الدَّهرُ وما ملاّ (١)

فابن زريق الكاتب عندما يتحدث عن فراقه لحبيبته في الكرخ ، وآثار ذلك في نفسه لا يبكي الاطلال والمغاني ، ولا يصور عيها ، وعدم جوابها ، إنما يستحلف « منزل اللهو الذي درست آياته » بالله ، ويسأله:

---

١ ـ المنازل ، ص ١٢ ؛ قصة باسم زنام الزامر .

« هل الزمان معيد فيك [في المنزل . و . ط] لذتنا ؟! »[1] .

إن البكاء على مواقف القبيلة ، والاطلال ، وآثار الديار قد تحول عند الشريف الرضي إلى التغني ، ووصف الازهار الرائعة ، التي تفوح منها أجمل العطور ، وأروع الروائح ، والتي تنمو على آثار «المنازل القديمة » ، المملوءة بزهر الأقحوان الخلاب :

يقَرُّ بعيني أن أرى لك منزلاً   بنعمان يزكو تُربُه ويطيب
وأرضاً بنُوَّارِ الأقاحي صقيلةً   ترددُ فيها شمألٌ وجنوبُ (٢)

والخطوة الجريئة في التناول الشعري « للمنازل والديار » وآثارهما يمكن العثور عليها في شعر الكميت بن زيد [توفي ١٢٦ / ٧٤٣ - ٧٤٤] ، إذ إنه يقف ضد المطالع الطللية ، وبكاء آثار الديار ، وبقايا أطلالها رغم أنها تذكره بسكانها السابقين :

مالي في الدار بعد ساكنها   وإن تذكرتُ أهلها أربُ
لا الدار ردّت جواب سائلها   ولا بكت أهلها إذ اغتربوا (٣)

---

١ - المنازل ، ص ٣٣ - ٣٤ ؛ طبقات الشافعية » ح . ١ ص، ١٦٥ .

٢ - المنازل ، ص ٣٨ ؛ ديوان الرضي ، ص ٨٠ - ٨١ . [نعمان : وادٍ كثير الاراك] .

٣ - المنازل ، ٢٨١ ؛ هاشميات الكميت ، ص ٧٤ .

إن الدعوة الواضحة الصريحة للامتناع عن بكاء الاطلال ، وعن المطالع الغزلية - كما أشرنا سابقاً - إنما ظهرت بشكل جلي في شعر بشار [توفي عام ١٦٨ / ٧٨٤ - ٧٨٥]) وفي شعر أبي نواس [توفي عام ١٩٨ / ٨١٣ - ٨١٤] . لكن الطليعي الاول لهذا الاتجاه في الشعر - كما نرى الآن - إنما هو الكميت الذي عاش قبل بشر وأبي نواس بحوالي نصف قرن . إنه يمتنع عن بكاء لا الرسوم وحدها ، بل الديار بأكملها وهذا تأكيد لما ذهبنا إليه من وجود البذور الجنينية للتجديد منذ القديم ، حتى في قول عنترة : هل غادر الشعراء من متردم ..] وهذا تأكيد بيّن على أن الوقوف ضد المطالع وبكاء الديار كان اتجاهاً فرضته ظروف الحياة الاجتماعية والاقتصادية بعد أن استقر العرب في المدن ، وبعدوا عن الصحراء ، وليس بدافع الشعوبية فقط عند أبي نواس وبشار كما يرى بعض الباحثين العرب[1] . وقريبة من دعوة الكميت دعوة أبي عبدالله بن الحجاج الذي يحن إلى خلانه كما تحن « النيب العطاش إلى الورد » :

«فلا مرحباً بالدار لا تسكنونها   ولو أنها الفردوس أو جنة الخلد» (٢)

إلى جانب مناحي التجديد هذه - المشار إليها سابقاً - في تناول موضوع « المنازل والديار » شعرياً ، والتي ظهرت تحت تأثير الحضارة ، وتغير الشروط المادية للحياة في العهد الاسلامي ظهرت معانٍ جديدة أيضاً

---

١ - الكفراوي ، ص ٧٣ - ٧٧ .

٢ - المنازل ، ص ٣٢٣ .

لالفاظ « دار » ، « بيت » واستعملت هذه الالفاظ بمعانيها الجـديدة في الشعر العربي .

إن لفظة « دار » ، مثلاً ، قد امتلكت ـ بعد ظهور الاسلام ـ معانياً إضافية أوسع مما كانت عليه في العصر الجاهلي . المدينة [مدينـة الرسول] سميت « دار » سكن المؤمنين ، و « دار الهجـرة »[1] . وبعد ، فان كل الارض التي امتلكها المسلمون ، وشاع فيها الاســـلام سميت « دار الاسلام ، ودار الايمان » ، أما أرض غير المسلمين ـ «دار الحرب ، أو دار الكفر »[2] . ولقد دعوا الجنـــة « دار الله » ، و« دار المؤمنين »، أو « دار السلام »[3] . أما « بيت الله » أو «البيت الحرام» فقد قصد بهما « الكعبة » ، و « آل البيت »ـ«أهل الرسول»[4]. وكذلك فان لفظة « دار » قد استعملت بمعنى « القبر » ، وهذا ما يؤكده الحديث النبوي عن زيارة القبور ، وبمعنى « الدنيا »[5] وأطلق على الحياة الآخرة « دار الفناء » أو « دار الهلاك » كما يرد في شعر أبي العتاهية .

---

١ ـ المنازل ، ص ١٦ .

٢ ـ 2) H. Krus, Studies in Islam, Vol. VI, No 1, 1965, p.8.

٣ ـ لسان العرب ، حـ . ٧ ، ص ، ٣٨١ وما بعد .

٤ ـ لسان العـرب ، حـ ١١ ، ص ٣١٧ ؛ تاج العروس ، حـ . ١ ، ص ٥٢٩ .

٥ ـ هكذا استعملها سعيد بن حميد الكاتب . انظر : المنازل ، ص ٢٧٧ ـ ٢٧٨ ؛ والمرتضى ، انظر : المنازل ، ص ٧٤ .

السعادة في الدار [الحياة الدنيا] - قصيرة ، والناس يعيشون في « دار الفناء ، دار الهلاك » (الدنيا) حيث سينتقلون بعدها إلى « دار الأزل، الدار الابدية » - (الحياة الآخرة) .

إن أبا العتاهية يدعو الانسان لأخذ عبرة وعظة من الماضي ، كي يفعل الخير والاعمال الصالحة ، ذلك لان الحياة قصـــيرة ، وما هي إلا « دار الفناء ، ودار الهلاك ، ودار الخـــداع ، ودار العذاب »[1] . و « المنازل » المهجورة عند أبي فراس ليست فقط أماكن سكن،ودوراً ، بل إنها أحياناً « جوامع » « ومراكز العبادة والصلاة » (« فالمسجـد الجامع المروءة والمجد عفا »)[2] . وهذا أثر من آثار الاسلام حتى ولو جاء على لسان أبي نواس الذي لم يكن كثيراً متقيداً بشرائع الدين الجديد. وإذا كان أبو نواس قد قصد بلفظة المنزل « المسجد » ، فان أبا العلاء ، بنظرته التشاؤمية الفلسفية ، قد قصد بالمنزل « القبر » ، لاليبكيه ، بل ليجعله مكاناً لراحة المرء : « أعفى المنازل قبر يستراح به » .

« داري ، من يقول،وأعبُدي   مَـهْ فالعبيد لربنا والدارُ »[3]

كما استعمل اصطلاح آخر هو « دار الغربة » : المـوت - إنـه

---

١ - المنـــازل ، ص ، ٢٨٤ ، ٢٩١ ، ٢٩٧ ، ٢٩٩ ؛ ديوان أبي العتاهية ، ص ، ١٠٦ ، ٧ ، ١٢٢ ، ١٢٣ .

٢ - المنازل ، ص ١١ .

٣ - المنازل ، ص ٢٣ ، ٢٩٤ .

الباب إلى « الدار ـ الجنة » ، فيما إذا كان الانسان تقياً ورعاً ، أما إذا كان عكس ذلك فالى «النار» ؛ وحياة المرء في دار الهلاك والحقارة ضعف ؛ والدار ـ ما هي ، أحياناً ، إلا الحياة الدنيا بكاملها ، المتغيرة المتبدلة .

أما في أشعار الشعراء الذين لم نتمكن نسبتهم إلى عصر أدبي معين ، والشعراء المجهولين (قال آخر ...)[1] فاننا نعثر على ذات الاطر العامة المطروحة سابقاً : « فالدار » استعملت في هذه الاشعار بمعنى (الدنيا) ؛ الزمان يذهب بالناس ، وتبقى ديارهم كالرسوم . ويعثر أيضاً على ألحان ونغمات الحنين إلى «الدار» التي خلق فيها الانسان ، وعلى النغمات الزهدية ، إذ عبثاً يطلب الانسان الخلود في دار الفناء (الدنيا) ، وما (الدنيا) للناس بدار إقامة ، وليس أهل الدنيا للناس بأهل ، ولادار الحياة لهم بدار ، والدنيا دار فرقة ومصائب ..

ولا بد من الاشارة إلى ظهور التلاعب بالالفاظ ، واستعمال المعاني المجازية عند مهيار :

« ديارالحيِّ من خَبتِ اللوى عُدت ظناً بعدما كنت حقيقة »

(إذ يقصد أن الناظر إلى هذه الدار يشك الآن في معرفتها ، بعد أن كان يعرفها فورا) .

---

١ ـ أنظر : المنازل « الفصل عن الدار » . (الخبت : ما اطمأن من الارض واتسع) .

(لقد أخذ الدهر قشيباً رائعاً من مغانيها وأعطاها سحوقه) .
ولقد ظن أن الدمن ستطيق حمل النوى ، في الوقت الذي لم يطق هـو ذاتـــه تحمله ، لكنه عندما رآها ناحلة كنحـوله أيقن أنها مشتـاقه كشوقه :

خِلْتُ لمّا لَمْ أُطِقْ حَمْلَ النَّوى   أن تلكَ الدِّمَنَ الصُّمَّ مُطيقه
لم أكنْ أعلَمُ حتى نَحلتْ   كنحولي إنّها مثلي مشوقة
أينَ جيراني بها لَهْفي لهم   لَهْفَةً سَكْرَتُها غيرُ مُفيقه (١)

وكذلك فان لفظه «بيت» تستعمل أيضاً بمعنى مجازي ، وإسلامي .
كما أن الشمردل وجرير يستعملان اللفظة بمساعدة المرافقات اللفظية الاخرى الموضحة بمعنى « قبر » ـ « دار الهجرة » ، « بيت الهجر »(٢) . أما عند ابن المغربي فتستعمل بمعنى «الكعبـــة»(٣) . وفي المرحـلة التي امتـازت بقوة العصبية القبلية ونحوها (العصر الاموي) ، فان لفظـة « بيت » تصادف في أشعار الفرزدق وجرير بمعنى « شرف القبيلة » :

---

١ ـ المنازل ، ص ٧١ ، ٨٣ ؛ ديوان مهيار ، حـ . II ص ، ٣١٧ ؛ و حـ . IV ، ص ٥٥ .
٢ ـ المنازل ، ص ، ٣٨٥ ، ٢٨٢ .
٣ ـ المنازل ، ص ، ٣٨١ .

إن الذي سمك السماء بنى لنا　　بيتاً دعائمه أعزّ وأطول
بيتاً بناه لنا المليك وما بنى　　حكم السماء فانه لاينزل(١)

العناصر الفلسفية والوعظية :

في الشعر الجاهلي - كما هو الحال ايضاً في الشعر الاسلامي - يمكن العثور على عناصر تحمل الصفات الفلسفية والوعظية . ففي توجه الشاعر الجاهلي « لبيد » إلى « الديار والمنازل » مناجاة للديار من وجهة نظر أخرى مغايرة جديدة - إذ لم يبك « الديار » كما بكاها الآخرون، ولم يبك آثارها وبقاياها ، بسبب نظرته الفلسفية إلى الامور :(لماذا بكاء الديار ، إننا نحن الزائلون أما المنازل والديار فهي الباقية) .

« بلينا ...　　وتبقى الديار بعدنا والمصانع(٢) »

ولن يجزع لبيد إن فرقه الدهر عن أحبابه إذ « كل فتى يوماً به الدهر فاجع » ، « وما الناس إلا كالديار » حلها أهلها اليوم ، ولكنها

---

١ - النقائض ، ص ، ١٨٢ ، المنازل ، ص ٤١٠ .

٢ - يلاحظ هنا أثر الجاهلية في المعنى ، فالمصانع ما يصنع لجمع الماء نحو البئر والصهريج ، وفي اللسان : مادة « صنع » ، ما يصنعه الناس من الآبار والأبنية وغيرها [ويورد بيت لبيد شاهداً على ذلك] .

غداً منهم بلاقع خاوية ، والمرء كالشهاب الذي يضيء ، وهو ساطع يبدأ بالتحول إلى رماد ، فكأنه بسطوعه يسير إلى هلاكه، وكذا الانسان ، وهو يحيا ، يموت ، إذ يقترب من نهايته[1] .

أما في شعر أبي العتاهية فتصادف عناصر الوعظ والارشاد بكثرة: الحياة الدنيا غير أبدية ، إذ إن الموت هو نهاية الانسان المحتمة ، وكل بيت لا بد وأن يسير إلى الهدم والدمار مهما طال به الزمن ... الخ ...

ويسمع أبو العتاهية الجميع في مناجاته أن البيت والمنزل إلى زوال، والمرء في أواخر أيامه كالثوب يخلق بعد جدته ، ومصيره من بعد أنسه بالناس « ظلمة بيت وحدته » ، بيت وحدته هو قبره [2] . إن هذه الصفات التي أشرنا إليها مع عناصر ولمسات التجديد يمكن أن يعثر عليها في أشعار البحتري حيث يذكر الديار ، لا للبكاء عليها ، إنما ليعطينا من خلالها نظرته الفلسفية إلى الحياة : فمن يزداد عمره يزداد غرفه من مصائب الحياة ، والانسان المضلل هو الذي يسر « لعمران الديار » إذ إن عمرانها يدنوبها من خرابها[3]. وكذلك المتنبي الذي يصور خراب منازل أقربائه : « أبداً غراب البين فيها ينعق » ، لا يبكيها ، بل يأخذ عبرة من الحياه ، فالأكاسرة - من جمعوا الكنوز - قد فنوا ، وفنيت معهم تلك الكنوز[4] .

---

١ - المنازل ، ص ، ٩٩ ؛ ديوان لبيد ، ص ١٦٨ - ١٧٢ .

٢ - المنازل ، ص ٧٣ ؛ ١٨٣ ، ٢٩١ ، ٢٩٩ ، ٣٨٢ ، ٣٨٨ ؛ ديوان أبي العتاهية ، ص ٢٤٧ ، ٧٣ .

٣ - المنازل ، ص ٧٠ ؛ ديوان البحتري ، جـ . I ، ص ٤٧، .

٤ - المنازل ، ص ، ٨٢ ؛ ديوان المتنبي ، جـ . I ، ص ٤٧٨ .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

أماكن السكن في شعر القرن الثاني عشر، وبخاصة في شعر أسامة واهله

إن دراسة موضوع الوطن - [المنازل والديار] في شعر القرن الثاني عشر ، وفي أشعار بني منقذ ، وخاصة في شعر أسامة تعطينا إمكانية توضيح تطور أنغام وألحان معاملة أماكن السكن ، مع تطور مفهوم الوطن ، وتعطينا الأساس لمتابعة بحث ودراسة هذا الموضوع في شعر المراحل اللاحقة على امتداد العصور حتى أيامنا هذه .

لم يكن ذكر الديار عند القاضي المهذب - عصر أسامة - للبكاء على على ماضيها ، ورسومها ، إنما وسيلة لاثارة مشاعر الشاعر تجاه الديار وأهلها ، فخيال أحبتة ثابت أبداً أمام ناظريه ، وذكراهم قائمة في قلبه . وهو ، وإن بكى ، فانما يبكي من الحنين والشوق :

« وإلى دياركم نحنّ صبابة ... ونفضُّ أوعية الدموع ونرسل (١)

ولمن تمطر سحابة تلك المنازل إلا وتنسكب دموعه مدرارة من حنين إليها .

ويعثر على المشاعر الصادقة أيضاً في شعر طلائع بن

---

١ - المنازل ، ص ٦٧ .

رزيك[1] ، الصديق الحميم لاسامة الذي تناهت إليه أخبار نكبة بني منقذ، فلا حول ولا قوة له إلا أبيات شعر يضمنها صدق حبه ، وتأثره ، باكياً حيناً ، بمشاركة وجدانية صادقة ، مواسياً احياناً ، جاهداً نفسه لايجاد العزاء لخراب (ديار بني منقذ) - بلدهم شيزر ، عن بكرة أبيها ، وبتعابير بسيطة واقعية ، وألفاظ توحي باللوعة يعبر عن عظم المصيبة لدمار الاهل والديار :

لهف نفسي على ديار من السكـّا ن أقوت فليس فيها عريب

تلك الديار التي كثيراً ما حلها الغرباء ، فلطيب لقيا اهلها ،وحسن معشرهم ، أنستهم حتى أوطان صباهم وأهلهم . وليس لاسامة - حسب قول ابن رزيك - إلا الصبر على حادثات الدهر إذ : « حكمه الجور والعدل وفيه المكروه والمحبوب » . وإن تخصصت النوائب آل منقذ فلأنها تأخذ العقلاء المقدمين ، كالقنا في ساعة الروع « تكسر منها صدور وتبقى كعوب » .

وعندما يتناول والد أسامة الحديث عن الديار - ربما ليظهر براعته في هذا المجال ، ومجاراة الاقدمين ومباراتهم ، إذ لم تكن النكبة هي الدافع لشعره هذا ، حيث توفي قبلها بمدة - فهو في غالب الاحيان لا يخرج عن مناحي مناجاة القدماء . فلا يلوم الواقف على الديار على وقوفه، بل يدعوه بصيغة الامر : « فأفض شؤون العين » للبكاء على « أربع

---

١ - المنازل ، ص ٨٠

درست » ، ولم يبق منها للناظر أي مجال للتمتع والنظر لولا هواه الذي شغفه ، ويباهي الاقدمين في التعبير لكن باسلوب المبالغة . فقد شبه الباكي بالحمامة « كهاتفة تنوح وتسجع »[1] . والمواسون لا يفيدونه شيئاً ، ولا ينقذونه من لوعة كامنة في النفوس ، ذلك لان مقدار أسفه وحسرته – حتى ولو تقطعت منه الاحشاء – يبقى قليلا تجاه شوقه لها . وعلى كل حال فله عذره – على حد تعبيره – في البكاء لانه الحي الباقي المعذب بعد الديار الهالكة الدارسة . إذ قد رغب بحياة جميلة مع الاحباب في الديار ؛ فان لم تكن فراحته بالموت تؤمن .

وكذلك الامر في شعر أقرباء أسامة [جده ، وعمه ، وأخيه]. « فالدار » هي « دار الاقامة » ، إنها « دار التصابي والتصافي »، «عفاها كل منهمر» غزير رائح غاد .

« والعيش بعد الاحبة لؤم » . وتقترن عندهم الدار بالاخوة والاهل وذوي القربى :

يا إخوتي وذوي ودي وخالصتي حزني عليكم مدى الايام متصل

إن ديارهم التي كانوا فيها كشمس النهار خلت وأقفرت ، لان الزمان لا أمانة له : « ولا تدوم به الايام والدول »[1] .

وما اللفظة في أشعار بني منقذ إلا واسطة التعبير عن مشاعرهم ،

---

١ – المنازل ، ص ٧٥ .

٢ – المنازل ، ص ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٨ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٦٥ ، ٦٦ .

وآلامهم المبرحة . فمشاعر الالم والحزن هذه تطغى على جميع المشاعر الاخرى في شعرهم . وانعكاس [تراجيديا] بني منقذ وتشخيصها في هذه المصطلحات « دار » ، « بيت » ، «منزل» يظهر أيضاً بشكل خاص في أشعار علي بن مرشد ـ أخي أسامة ، وبشكل واضح في أشعار أسامة ذاته .

لقد تأخر علي بن مرشد عن أسامة وأخويه اللذين خرجا إلى دمشق ثم مصر ، وأسف كثيراً لبعدهما ، وخلو منازلهما منها . وبعاطفة الابن الذي فقدأباه ، والاخ الذي تأسف فرقة أخوية اللذين كانا في حكم المنفيين نتيجة قرار عمه بتركهم مسقط رأسهم شيزر ، بهذه العواطف الصادقة الاليمة بكى منازلهم الخالية منهم دموعاً صادقة :

« فاسق الربوع من الدموع سجالَها   إن الرسوم لها عليك رسوم »

وليست المنازل عنده صماء بكماء ، بل ناطقة تجيب [وعظاً بلا لفظ]، لانها كانت شاهداً عياناً على اصطراع (آمال ساكنيها مع المنايا) ؛ ساكنيها بني منقذ ، الذين رغم إن الدهر فرقهم عنه : « فهم نفسي بكم ماعشت مجتمع » .

إنه يبكي الديار ولا يخشى في هذا لومة لائم « فهل بعد الديار أكاتم ؟! » ، ويتذكر ماضيه في الديار مع أهله . « إخوان صدق كالثريا نفوسهم سمت » ، لاحقد في نفوسهم ولاضغينة ، بات بينهم مسروراً لاهم لديه ولا غم « حيث » « الربع للشمل جامع » ، ولكنها الكارثة قد حلت فغيرت كل شيء :

« أقفرت منهم الديار وأضحت دارسات كأنهن رقوم »

ولم يعد له ، وهو المحزون ، إلا البكاء والذكرى ، حتى إذا تذكر ظن وكأنه حالم ، يتمنى الموت « فعيشي بعد الاحبة لؤم » .ولياليه طوال من الارق والسهاد والحزن والالم ، ومن البكاء والتذكر.إنه يعتب على الزمان ، ويواسي نفسه بأن لاحول ولاقوة أمام القدر[1] .

أما أسامة فهو ذلك الشخص الذي يحب وطنه (شيزر) حباً كبيراً ، وأهله ، بالرغم من أن بعض المقربين الاقرباء ناصبوه العداء (عمه سلطان) . وشعره هو ذلك الشعر الذي يفيض حزناً وأسى ، ويفعم بعواطف الألم والمرارة والصدق ، دون تقليد متقدم ، أو وصف قصر عز ونعيم ، إنما هو شعر صاحب الرزية الذي ابتلي بالمصائب ، هو ذلك الشعر الذي أنطقته المصيبة بشوق إلى منازل عاش بحكم المنفي عنها ، بعيداً ، وعاد اليها ليجدها هباءً منثوراً ، كأن لم تكن بالامس . لم يبق منها حتى الاطلال يبكيها ، وحتى القريب يواسيه في المصيبة . هذا مايشير إليه أسامة إذ يقول : « قلت : لي على ما تقدم ذكره من الشعراء فضل المزية ، إذ كنت دونهم صاحب الرزية ، وإن كنت وهم كما قال ذر لأبيه : يا أبه ! مالك إذا تكلمت أبكيت الناس ، وإذا تكلم غيرك لم يبكهم ؟ قال : يابني !ليست النائحة المستأجرة كالثكلى » [2] .

---

١ ـ المنازل ، ص ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٨ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٦٥ ، ٦٦ .

٢ ـ المنازل ، ص ٢٥ .

إن أسامة يصور الكارثة العامة التي حلت بأهله (بني منقـــذ عامة) ، وبمنازلهم حيث كانوا فيها « في نعمة محروسة » [العــز كان مقترنا بالسيف والمال مقروناً إلى الكرم] ، كانوا كالاسود في عرينها ، وصعبوا على كل ذي ملك ، وذي قدرة :

« ماسطاعها ذو ملك ، ومن الذي يلج العرين على الهذبر الخادر؟!» (١)

لقد كان وقع الكارثة كبيراً على أسامة ، وهو الانسان الذي أحب شيزر ، وجعلها محطة يعبرها كلما سنحت له الفرصة ، تربى فيها ، وأخذ كل عدته للحياة منها ـ الثقافية ، والحربية ، والسياسية ـ ، وإذ بالكارثة تقضي على كل شيء : على ذلك الماضي الجميل بما فيه « ديار الهوى » التي كانت « أفقاً للسعود » «وغياثاً للمهوف ، وذخراً لفقير » ؛ وعلى ساكنيها « الانجم الزهر » ، أما عصرها ـ فـ « فصل الربيـع نضارة » . وإذ بالكارثة تقضي على عشيرته بني منقذ ، الذين لم ينقذوا من زمانهـم ، « وكم أنقذوا من مرهق وأسير » ، فتغدو الديار وقد خلت من أهلهـا ، وتوحشت ، يعلوها البلى ، وتعفو رسومها ، فلم يعرفها بالرؤية البصريـة إنما بالرؤية الروحية « أنكرها طرفي وأثبتها القلب » . لقد أصابها العـذر المحتم الذي أهلك كل من فيها . وحول شامخها إلى رسم دارس ، ولم يبق منهم إلا الحديث عنهم « كما تحدث عن عادٍ وعن إرم » ، وآثارهم عظة لمن يتوسم :

---

١ ـ المنازل ، ص ، ٢٧ .

أنظر منازل آل منقذٍ إنها عظة اللبيب ، وعبرة للناظر

وتبلغ الحسرة ذروتها ، والصدق غايته في مقطوعته حيث يبكي دياره ، وبكاء أي انسان داره وأهله إنما يكون سبباً لبكاء أسامة أهله وأوطانه وخاصة وقد غدا بلا دار ولا مسكن :

إذا بكى لديار باد ساكنها ذو وحدةٍ ساءه في داره الزمنُ

بكيت أهلي وأوطاني وآسفني أن ليس لي بعدَهم دارٌ ولا سكنُ

لقد قضى الزمان على قومه أجمع ، وملك أوطانه سواهم ، فغدا شريداً غريباً ، لا يجد من يشتكي إليه حزنه إن حاول الشكوى :

أخنى الزمان على قومي وملّك أو طاني سواي، فلا أهلٌ ولا وطنُ

ولم تدع لي المنايا مُشتكى حزنٍ أبثُه كمدي إن عادني حزن

والبون شاسع بين ماضيه وحاضره ، فما أجمل ذلك الماضي ، وما أقبح هذا الحاضر :

ياحُسن أول ذلك الدهر الذي قد كان فيك وقُبْحَ هذا الآخر!

لقد عفت هذه المنازل ـ منازل بني منقذ ، لكنها ، إن سألتها عنهم :

تخبرك أن الأرض قد وارتهمُ وأبت لهم أن يسمعوا أو ينطقوا

كان وقع الكارثة عظيماً على أسامة ، فلا يبكي الديار بقدر مايبكي أهل الديار ، وكارثة فريدة من نوعها ، فقد غدا بلا دار ولا أهل ، ولم الديار إن لم يكن الاهل فيها :

وماذا انتفاعي بالديار وقربها إذا أقفرت من كلِّ مَنْ أنا آلف

ويبكي أهل الدار تارة :

وقالوا: أتبكي للمنازل؟ اقلت: لا ولكنّما أبكي لأهل المنزل(١)

لقد نظر إلى دار الاحبة القفراء التي لم يبق له بها إلا الوجد والحنين فبكى ، ورأى صحبه هذا ، فشاركه بعضهم ، وعنفه بعضهم الآخر :

وقالوا : أفِق ، للأرض تبكي ؟ فقلتُ لا
ولكنني أبكي لمن وارت الأرض

ويبكي حيناً آخر المنازل وأهلها ، وشبابه الضائع ، ويعبر عن هذا باستفهام العارف المؤثر المحزن ، يعبر عن حيرة مؤلمة ، ووجد فائق :

أبكيك ؟ أم أبكي زماني فيك ؟ أم
أهليك ؟ أم شرخ الشباب الزائل ؟

---

١ - المنازل ، ص ٢٧ .

من شدة الوجد والاسى ، وفقدان الحيلة أمام الـكارثة المروعة ، لا يقوى أسامة على فعل شيء ، وهو كانسان مؤمن يتوجه بشكواه المؤلمة الى الله ، عله يجد في ذلك مواساة لروعته ، لمنازله ، ووجده على أهل تلك المنازل . والتوجه إلى الله عند المؤمن غاية المطاف .

إلى الله أشكو روعتي لمنازل خَلَتْ ، وجوى قلبي لأهل المنزل

ويدعو أسامة الباكي على الديار « دموعاً تسجم » أن لا يقف عليها لانها بكماء لا تجيبه بشيء عن أهلها :

ماذا وقوفك في الديار مسائلاً عن أهلها ، ومتى يجيب الأبكم ؟!

وأخذت المنازل على أسامة كل دموعه ، وأفقدته صبره ، وجعلته في رقاد مستمر ، فان لم يبكها فكأنه غدر بعهد من سكنها . ويدعو لها بالسقيا - سقيا المطر - كعادة الشعراء العرب « وسقتك وطفاء »[1] ، ويبكيها دموعاً مدرارة تفوق غزارة المطر ، إذ إنه لا يريد أن يحمل هذه الأطلال منة السحاب :

أأحمل الأطلال منّة عارض وسحابُ دمعي مستهل ماطر ؟!

لا يبكيها دمعاً فقط ، بل لشدة الألم والحرقة يدعو إلى البكاء عليها دماً :

فاسفح دموعك في ثرا ها أو يمازجها الدم

---

١ - المنازل ، ص ٢٧ ، ٢٦ .

ويسبها أحياناً ، ويدعو لها بعدم السقيا [على غير عادة الشعراء الأقدمين] طالما أنها أقفرت من أهلها :

وما كنت أهوى الدار إلا لأهلها وبعدهم لا جاد ساكنها القطر

فما الدار تلك الدارُ بعد قطينها ولا الدهر فيها بعدهم ذلك الدهر

– «لا جادر بعك من ديار أَقْفرَتْ من أهلها صَوْبُ الغمام الماطر»

أصبحت حياته بعد أهله بدون معنى : فلم «أحظ بعدهم من العيش الطويل بطائل » . وصعب عليه العيش ، فتمنى اللحاق بهم : « أرجو اللحاق بهم » . إذ لا شيء يعزيه لفقدهم ، ويواسيه :

وإذا فرغتُ إلى العزاء دعوت من لا يستجيب، ورمتُ نصرة خاذل (١)

ويعود أسامة ليواسي نفسه طالما أن مواساة الناس خائبة لا تجدي، فهذه باعتقاده – سنة الكون منذ كان الكون ، يد تبني وأخرى تهدم :

هي شيمة الأيام : كفٌ تبتني – مذ كانت الدنيا – وكفٌ تهدمُ (٢)

وكان واعياً للمصير المحتم إذ يخاطب صاحبه :

ما أنت أول من تناءت داره فعلام قلبُك ليس تخبو ناره ؟!

إما السلو أو الحمام، وما سوى هذين قسْمٌ ثالثٌ تختاره (٣)

---

١ – المنازل ، ص ، ٢٦ – ٢٨ .

٢ – المنازل ، ص ٢٦ .

٣ – المنازل ، ص ، ٣٠٢ – ٣٠٨ .

والموت عند أسامة مصير كل انسان ، ورحلته ستنتهي إلى تلك القبور التي انتهت اليها عشيرته :

وغداً تخيمُ حيث حلُّوا في القبور وخيّموا(1)

فالمنازل والديار عنده محددة ، إنها منازل آل منقذ الكائنة في شيزر ، أصابتها كارثة ، وهزها الزلزال فدمرها بكاملها . وكل كلمة قالها أسامة في هذه الديار كانت تنفيساً وحرقة وحسرة ، إنها سلوان عن مصابه وألمه .

١ ـ المنازل ، ص ، ٢٩ .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

٢ ـ المعنى الاوسع لمكان السكن

(المغاني والربوع)

تستعمل في اللغة العربية أيضاً بعض الالفاظ التي تمتلك معنى أكثر اتساعاً وشمولاً ، وتدل على رقعة من الارض أكبر ، حيث ينتشر عليها أكثر من منزل أو دار أو بيت أو خيمة . هذه هي :

آ ـ « المغاني » :

« المغاني » جمع ، مفرده « مغنى » ، و « المغنى » : المنزل الذي كان به أهله ، وقيل : المنزل الذي أقام به أهله ، أو الذي أقام به أهله ثم رحلوا[1] . «والمغنى» مصدر واسم مكان من الفعل الثلاثي «غَنِيَ» بمعنى [أقام] . قال الراغب : غني في مكان كذا ، إذا طال مقامه فيه مستغنياً به عن غيره »[2] . وتأتي «غني» بمعنى [عاش] [نقله الجوهري] ، وبمعنى (بقي) : غنيت لك مني مودة = بقيت ؛ وبمعنى (كان) ، إذ يقال الشيء إذا فني : كأن لم يغنَ بالأمس ، أي كأن لم يكن . وغنيت المرأة

---

١ ـ لسان العرب ، حـ . XIX ، ص ، ٣٧٢ ومابعد ؛ تاج العروس، حـ . X ، ص ، ٢٧١ وما بعد .

٢ ـ انظر هناك أيضاً .

بزوجها غُنْياناً وغناءً ، أي استغنت به عن غيره . ومنه اشتقاق الغانية. وأغن عني شرك : اكفيني شرَّك .

ب ـ « الربوع » :

« الربوع » جمع ، مفرده « ربع » ، «والربع» المنزل ودار الاقامة والوطن متى كان وبأي مكان كان . « ربع القوم » : محلتهم ، وجمعه (أربع ، رباع ، ربوع ، أرباع) . يقال : أراد بيع رباعه ، أي منازله ، ومنها (الرباع) : الرجل الكثير شراء الرباع وهي المنازل. « والربع والربوع » جماعة الناس . « والربع » مشتقة من «ربع» بالمكان يربع ربعاً إذا اطمأن وأقام ، والاصل «ربع» : أقام في الربيع ، ثم أطلقت على كل إقامة ، وكل وقت حتى سمي كل منزل « ربعاً » ، وإن كان ذلك مختصاً في الاصل بالربيع . « والربعة » أخص من«الربع»: (وهي قسم من المنزل تشبه « المنزول »)[1] .

العناصر التقليدية :

في التوجه إلى المغاني و الربوع كما عند الشعراء الجاهليين ، كذلك عند معظم الشعراء في المراحل اللاحقه ، نعثر على نفس تلك العناصر التقليدية التي أشرنا اليها سابقاً . فأماكن السكن الواسعة ـ نسبياً ـ مقفرة ، معفاة ، والربع « ... قفر كأنه لم يله في ساحته سامر » ؛ قد ألبس

---

١ ـ لسان العرب ، ح . IX ، ص ، ٤٥٥ ؛ تاج العروس ، ح . V ، ص ، ٣٣٧ .

ثوب البلى ، حتى إن علاماته أو آثاره خلقة بالية بعد أن كان قبل الكارثة التي حلت به : «يعجب من بهجته الناظر»[1] .

إن هذه المغاني والربوع خالية من الاهل ، ومسكن الوحش والطيور ، وملعب الرياح ، ومدعاة للبكاء وهي أحق بقلب الشاعر « وإن هجن لوعة وزفيراً »[2] .

لم يبق من هذه الربوع غير الأثافي (حجارة القدر) الثلاثة المهتدمة التي تشبه ثلاث حمامات سود متلاصقة بالارض ، بلا حركة ولا حراك ، ولا شيء يخبر عن العيش الجميل في الربع البهيج البديع - فيما مضى - ، حيث « الحي الحلول بسلوة » عاشوا فيه بنعيم ورخاء[3]. « إن قشيب ربعهم دريس » ، « حبس على البلى » ، فحبس الشاعر دمعه ، وغدت « ربوع الربع موحشات » ، بعد أن كانت مألوفة ، مأنوسة ، إذ حققق الفراق مراده في الربع الذي ارتحل سكانه ، فلايلام الشاعر في الوقوف ، لأنه يسأل الربع عن خبرهم . لم يدم في الربع العيش المرفه السابق بل إن الرياح في هبوبها السريع قد أثرت على هذه الربوع فغيرتها « هرمت بعدي » : « إن ربع موسم اللذات قد غالته

---

١ - المنازل ، ص ، ١٣٩ ، شعر حفص .

٢ - المنازل ، ص ١٠٦ - ١٠٨ شعر مهيار .

٣ - المنازل ، ص ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، شعر ذي الرمة والبحتري .

النوى فغدا للصبابة موسماً »[1] .

« المغاني » و « الربوع » عند الشعراء العرب واسطة البكاء على الأوطان والأهل . وتذكر هؤلاء الأهل ، وهذه الاوطان يقود بدوره إلى تذكر الحياة الماضية السعيدة ، ويصور الوضع المؤلم المر الحالي :
« أشجاك الربع أم قدمه ؟»[2] .

ويستفهم الشاعر عن سبب حزن صاحبه : « أشجاك الربع أقوى والديار ؟ »[3] . وبنظرة ألم وحزن أفهمته المغاني كل شيء : العز الغابر والحاضر المرير . وبلوعة مريرة لفقد جماعته من إخوانه يدعو بالمرض والسقم لكل عين تنظر الديار :

« أي عين أصابت الدار أقذى الله بعدي أجفانها وأضرا » .

وبكاء المغاني ليس بغريب على الشاعر ، إنما الغريب أن يعيبوا عليه ووفاه لمن يحب ، فكل عاشق يبكي عندما يطالع مغنى أحبته :

كأنني أول عاشق طالعه مغنى الأحبة فارفضت مدامعه ؟ (٤)

والربوع والمغاني لا ترد جواباً إذ :

---

١ ـ المنازل ، ص ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٤٥ ، ١٥٣ شعر أبي تمام .
٢ ـ المنازل . ص ١٤٦ ، شعر طرفة .
٣ ـ المنازل ، ص ١٣٨ ، شعر الفند .
٤ ـ المنازل ، ص ١٠٦ ـ ١٠٨ ، شعر مهيار .

لو أنّ ربعاً راجع القول قبله لردّ السلام ربعُ سعدى وسلّما (١)

والرياح الشديدة الهائجة تعصف في هذه الربوع والمغاني ـ دورياً ـ : رياح تنثر الرمال فتلبس الربع ثوباً أبيض قشيباً ، وأخرى تذري تلك الرمال ، فتسحل عنه هذا الثوب القشيب .

من الضروري أن نشير إلى أن « الربع » و « المغنى » عند الشعراء العذريين مقرونان باسم المحبوبه (ربع عزة ، مغنى بثينه) . وإن كان جميل(٢) قد عبر في أبياته عن ذلك بصورة غير مباشرة ، إذ إن الربع الذي كان يسكنه لم يعد يزار « وكيف يزار الربع قد بان عامره » ، « أتصرم هذا الربع أم أنت زائره : ففي لفظة [هـذا] تحديد للربع ، فان كثيراً(٣) يحدد هذا مباشرة إذ يقول :

خليليَّ هذا ربع عَزَّة فاعقلا قلوصيكما، ثم ابكيا حيث حلّتِ

وخلو الربع من عزة كان المحرك لأحزان كثير وبكائه ، ومن العجب اصطبار قلبه على الفراق الذي لا يرجى بعده لقاء ، إذ إنه كالمرتجي ظل الغمامة ، كلما أراد الهدوء تحتها زالت وانقشعت ، أو كسحابة رجاها المحل أن تسقط عليه لكنها لما جاوزته أمطرت .

---

١ ـ المنازل ، ص ١٥٣ ، شعر نصيب .

٢ ـ المنازل ، ص ١٤٦ ، شعر جميل .

٣ ـ المنازل ، ص ١٤٧ ، شعر كثير .

أما عند ابن أبي ربيعة فان الربع والمغنى مرتبطان لا باسم امرأة محددة ، بل « بربع الحي » ، ـ حيث عاشت عدة نساء ، كان قد تغزل بهن .

عناصر التجديد :

إلى جانب العناصر التقليدية هذه ، وبصورة خاصة بعد ظهور الاسلام ، يلاحظ تجديد واضع في معالجة وتناول المغاني و الربوع . إذ نعثر على التناول الادبي ـ الشعري الجديد للربع عند قبيصة المهلبي[1]: إنه يصف ربوع مدينة حضرية (واقعة في الرصافة والكرخ بغداد) ، لا أماكن تقليدية منتشرة في الصحراء القاحلة ؛ القوى المؤثرة [الرياح] ليست عاصفة ، مذرية للرمال ، إنما هينة لينة ، ناعمة لطيفة الهبوب ؛ لم يصور نؤيها وأثافيها وأطلالها العافية ، بل صورها تعبق بالروائح الطيبة ، وتتفتح فيها الزهور فهي كالدار أيام الربيع :

إذا ما كساهُنّ الربيع رياطه   تأرّجْنَ مسكاً أو تضاحكْنَ عن درّ

وإذا كان الشعراء غير قادرين على التحكم بدموعهم عند رؤيتهم بقايا الربوع العافية فان هذا البكاء عند البحتري إرادي حسب مشيئته ، إنه طريقة مصطنعة :

إذا شئتُ أجرتْ أدمعي من شئونها   ربوعٌ لها بالابرقين وأرسم

---

١ ـ المنازل ، ص ١٤٠ ؛ المخطوطة ، ٨١ ب .

ويدعو المطر للسقوط في المحل رغم إقواء « مغانيه » ، ويوحي لنا ايحاء بعز الماضي ، حيث ان « الايام » الحاليه « والاليالي » ، «يضحكن» نيابة عن أيامه ولياليه الماضية ، وهذا كناية عن فرحة المغنى الماضية . لقد تغيرت عند البحتري صفات المحبوبة المناجاة فغدت ـ تحت تأثير تجديد العصر [غانيـة] ، وهذه صورة من صور التجديد عنـــد الشاعر . والمغاني عنده لم تعف من الاهل والاقرباء ، كما إنه لا يحن إلى هؤلاء ، بن إلى [الغواني] ، الاواتي كن في هذه الديار ، حتى إن المطر الذي لا يشعر بالالم والعذاب يبكي على هذه الغواني « وإن كان خلياً » من كل ما يعانيه الاحبة . جاء الغيث بنفسه على هذه المغاني فأكسبها « حللاً جمة الالوان»(١) . والمغاني لم تقو لرحيل أهلها فقط ، إنما أقوت لعدم وجود الشاعر فيها أيضاً : « شهدت لقد أقوت مغانيـكم بعدي » ، ويخـــص الشاعر السقيم بالسلام والتحية دون الاطلال [أطلال المغاني] التيلا يشركها في وجده وبكائه :

« فعليه السلام لا أشرك الاطلال في لوعتي ولا في نحيبي »ويصرح أنه ليس ممن يقف على الاطلال ، وسواء عنده أن يجيب من غير أنيدعى أو يدعو من لا يجيب :

« فسواء إجابتي غير داعٍ ودعائي بالقفرغير مجيب(٢)

---

١ ـ المنازل ، ص ١٠٠ ، ١٤٠ ، ١٤٦ ، ١٤٥ ؛ ديوان البحتري ، ج II ، ص ٣٢١ ، ٢٨٥ .

٢ ـ المنازل ، ص ١٠٣ ؛ ديوان أبي تمام ، ج . I ، ص ، ١٢٢ .

من عادة الشعراء العرب الدعاء بالسقيا لديار الاحبة ، أما المتنبي فانه يدعو على الربوع بالعطش ، ويسأل المطر إن لم يعطشها فعليه أن يسقيها سماً قاتلاً ، ويدعو على كل ما فيها عدا ما كان له فيها من « زمن الانس ووصف الخود » . وليست المغاني عند الشاعر بقايا مساكن القوم الذين رحلوا ، إنما هي أماكن الاقامة المسكونة ، التي لم يرحل أهلها ، إذ إن « مغاني الشعب أطيب المغاني » ، وهي بالنسبة للأرض المحيطة بها « بمنزلة الربيع من الزمان » نضرة ، خضراء . إنها مغانٍ عامرة ، تغني فيها « الحمائم الورق » وتردد أصداء غناها « القيان » الحسناوات الجميلات (١).

التناول الأدبي الشعري الجديد لموضوع « المغاني والربوع » نعثر عليه أيضاً عند المعري . فالمغنى عنده لم يقتصر على المعنى التقليدي فقط ، إنما هناك « مغنى من خيال » الحبيبة « محلال » . إن هذا نوع من التعبير والاستخدام الجديدين ، وفيه كناية عن التفكير الدائم بالمحبوبة . والمعري من خلال حنينه لحبيبته (المزعومة) ، وهو مقيم في بغداد ـ دار السلام ، يحن إلى وطنه ـ مسقط رأسه المعرة ـ . فان فارق بغداد وأهلها ، ورحل ، وإن اشتاقوا إليه ، وسألوا عنه فليس عنده سؤال عنهم ، ولا شوق إليهم ، لأن شوقه كله منصب نحو أهله ووطنه ، لا يعدل بهم غيرهم :

متى سألت بغدادُ عني وأهلُها ... فاني عن أهل العواصم سال

شوقه لأهلة ووطنه لا يفارقه ليل نهار ، يكابد ، ويعاني منه

---

١ ـ المنازل ، ص ١٠٥ ؛ ديوان المتنبي ، ح . II ، ص ، ٤٨١ .

دائماً ، فماء بلاده أفضل من ماء دجلة ، وأنفع وأمرأ ، وإن كان ماء دجله صافياً عذباً لذيذاً :

وماء بلادي كان أنجع مشرباً ولو أنّ ماءالكرخ صهباءُجريالُ

ويتناول الربوع بتحديد لم يسبق إليه ، إذ بمخاطبته حبيبته يصرح بان الواجب يقضي عليه بتحية ربعها ، لكنه لا يحييه هذه المرة تحية تقليدية بالدعاء والسقيا ، بل كما يحيي الملوك (ملوك العجم والعرب). يعظم الربع ويكبره كتعظيمه ركن الكعبة والحجر .

«أقرُّ بربع كنتُ فيه كأنما أمرّ منالاجلالِ بالحجروالركن» (١)

في بقايا الربوع تعيش الضباع :

«ورباعٌ كانت عرين أسود أصبحت للضباع مأوى ومغنى (٢)

إن هذه الصورة إنما تحمل شيئاً جديداً بالنسبة للعلاقة مع الربع ، ذلك لأنه لا يعثر على الضباع في الحالات المشابهة عند الشعراء الآخرين .

---

١ ـ المنازل ، ص ١٥١ ، ١٤٣ ، ١٠٥ ؛ سقط الزند ، ح . II ، ص ١٣٩ ، ٦٠ ؛ ح . I ، ص ٢٦٠ .

٢ ـ المنازل ، ص ١٤٩ ؛ شعر المرتضى .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

٣ - بقايا أماكن السكن

المعاني اللغوية :

آ ـ « الطلل » : ما شخص من آثار الديار بخلاف « الرسم » : ما كان لاصقاً بالارض ، و « طلل » كل شيء شخصه ، جمعها « أطلال وطلول » . وقيل : «طلل الدار» موضع من صحنها يهيأ لمجلس أهلها كالدكانة يجلس عليها (دكانة : مصطبة) ، عليه المشرب والمأكل. ويقال: طللك وأطلالك : أي : دكانةشخص من جسدك . وطللك وطلالتك : أي شخصك ، وأطلال السفينة : أشرعتها(١) .

ب ـ « الدمن » جمع مفرده « دمنه » . « والدمنه » : آثار الدار والناس ، وما سودوا من آثار البقر وغيره ، و « الدمن » : البعر أو الزبل المتلبد ،ومنه دمنت الماشية المكان تدميناً : بعرت فيه وبالت فهو متدمن . ودمن القوم الموضع : سودوه وأثروا فيه بالبعر ، قال ذو الرمة :

منزلٌ دمَّنَه آباؤنا الـ   مورثون المجد في أولى الليالي

ومثلها « الدمان » بمعنى الرماد أو الزبل أو عفن النحلة وسوادها

---

١ ـ لسان العرب ، جـ XII ، ص ٤٣ ؛ تاج العروس ، جـ VII ، ص ٤١٩ .

« والدمنة » أيضاً : الموضع القريب من الدار . قال الرسول : « إياكم وخضراء الدمن » أي المرأة الحسناء في منبت السوء . وقال زفر بن الحارث :

وقد ينبت المرعى على دِمَنَ الثَّرى ... وتبقى حزازات النفوس كما هي

ومن المجاز « الدمنه » : الحقد القديم الثابت المدمن للصدر ، وقيل : لا يكون الحقد « دمنه » حتى أتي عليه دهر ؛ ومنه « دمن عليه » : حقد .

ومن المجاز أيضاً : دمن فلان المكان تدميناً ، إذا غشيه ولزمه . قال كعب بن زهير :

أرعى الأمانه لا أخونُ ولا أرى ... أبداً أُدَمّنُ عَرْصة الدار

ومنها « مدمن الخمرة » : شاربها وملازمها[1] .

ج - « الأثر » : هو بقية الشيء ، أو ما بقي من رسم الشي ، وجمعها « آثار وأثور » . « آثار المنزل » : بقاياه ، « والآثار » : الأعلام يستدل بها . ومنها « أثر السيف » : ضربته ؛ « وأثر الجرح » : مايبقى بعد برئه . « أثر » في الشيء ، أي ترك فيه أثراً ، ومنه الأثرة من الدواب : أي العظيمة الأثر في الارض بخفها . وتأتي «الاثر» بمعنى الاجل، الموت ، ذلك لانه يتبع العمر . قال زهير :

---

١ - لسان العرب ، حـ . II ، ص ١٤ ؛ تاج العروس ، حـ I ، ص ٢٠١ .

والمرءُ ماعاش محدود به أمل   لا ينتهي العمر حتى ينتهي الاثرُ

وأصله من « أثر » مشيه في الارض ، فاذا مات لا يبقى له أثر ولا يرى لاقدامه ذلك الاثر . «والاثر» : سمة في باطن خف البعير يفتقر بها أثره ، وجمعها « أثور » . « والاثر » : بمعنى الخبر ، جمعها «آثار» . ومنها « الآثر » : المخبر ، وهي اسم فاعل من الفعل أثر الحديث عنه أي أخبر . « وقول مأثور » اي يخبر الناس به بعضهم بعضاً وينقلونه وهـو اسم فاعل من الفعل المذكور . ومنه « المأثرة » : المكرمة ذلك لأنهم يأثرونها أي يتحدثون بها . « وأثرة العلم » : بقية منه تؤثر أي تروى وربما تفضل[1] .

د ـ « الرسم » : هـــو الاثر ، وقيل : بقيته أو مالصق بالارض منه ، «ورسم الدار » : ماكان من آثارها لاصقاً بالأرض ،وجمعها « أرسم ورسوم » ، وفعلها « رسم » . رسم الغيث الدار : عفاها وأبقى فيها اثراً لاصقاً بالأرض ، « ورسم في الأرض » غاب فيها ، ويكنى بها عن الموت ، ورسم على كذا : بمعنى كتب . « ترسم الرسم » : نظـر إليه بتمعن ،«وترسم » : نظر إلى رسوم الدار بتأمل « تفرس » . قـال ذو الرمه :

أأن ترسَّمْتَ من خرقاءَ منزلةً   ماءُ الصبابة من عينيك مسجوم

---

١ ـ لسان العرب « حـ ٧ ، ص ٦٠ ؛ تاج العروس ، العروس ،حـ III ، ص ٤ .

ومن المجاز : « ترسم » القصيدة : أي تبصرها ودرسهاوتذكرها، ومنها : ثوب مرسم : أي مخطط بخطوط خفيفة ، وناقة رسوم : تؤثر في الأرض من شدة الوطء . وبظهور الاسلام اكتسب الأصل معنى إضافياً ، فارتسم الرجل : « أي كبر ودعا وتعوذ » .والارتسام : التكبير والتعوذ ، « ورسوم الدين » : طرائقه التي تبقى ، « ورسوم الخلافة » : عاداتها التي توارثت(١) .

هـ - وهناك مصطلحات أخرى منها : المعهد ، جمعها « معاهد » . و « المعهد » اسم مكان من الفعل « عهد » الشيء عهداً بمعنى عرف ، والمعهد : هو الموضع كنت عهدته أو عهدت هوى لك فيه أو شيئاً ، وأيضاً المنزل الذي لا يزال القوم إذا انتأوا عنه رجعوا إليه . ومنه العهيد : القديم العتيق الذي مر عليه العهد(٢) .

- «علم» : « أعلام » ؛ « معلم » : « معالم » . علم الشيء علما : أي وسمه . يقال لما يبنى على الطريق من المنازل يستدل بها على الطريق؛ و « المعلم » ما جعل علامة وعلماً للطرق والحدود مثل أعلام الحرم ومعالمه المضروبة عليه . وقيل : المعلم : الأثر ، والعلم : المنارة .

قال ابن سيدة : العلامة والعلم : الفصل يكون بين الأرضين ؛

---

١ - لسان العرب ، جـ . V ، ص ١٣٢ ؛ تاج العروس ، جـ . VIII، ص ٣١٢ .

٢ - لسان العرب ، جـ . IV ، ص ٣٠٥ ؛ تاج العروس ، جـ ، II، ص ٤٤٢ .

والعلامة والعلم : شيء ينصب في الفلوات تهتدي به الضالة ؛ والعلم : العلامة . ومعلم الطريق : علامته . ومن المجاز : أعلام القوم = ساداتهم[1] .

ـ عَرَصة الدار : وسطها ، وقيل : وهو ما لا نباء فيه . سميت بذلك لاعتراص الصبيان فيها ، أي لنشاطهم فيها . « والعرصة » : كل بقعة بين الدور واسعة ليس فيها بناء ، وجمعها عراص وعرصات[2] .

لا بد من الاشارة إلى أن أشعار الاطلال في فصلي الأطلال في كتاب أسامة إنما مختلطة مع أشعار الرسوم ، والأعلام ، والآثار ؛ وفي الواقع فانه في الاستعمال المعنوي المحدد الدقيق لا يعثر إلا على اختلاف بسيط بين هذه المصطلحات .

إن أماكن وقوف البدو تتغير بعد خروج سكانها ، وتبقى منها فقط الآثار ، والرسوم ، والاعلام والأطلال ، ولهذا فمن الصعوبة بمكان التعرف على أماكن الديار المهجورة . والشاعر وهو لا يتمكن من التعرف على أماكن الديار يسأل : لمن طلل بذي خيم قديم؟[3] .

---

١ ـ لسان العرب ، حـ V ، باب «عَلَم» ؛ تاج العروس ، حـ VIII. ، ص ٣١٢ .

٢ ـ لسان العرب ، حـ . VIII ، ص ٣١٩ ؛ تاج العروس ، حـ VI. ، ص ٤٠٥ .

٣ ـ المنازل ، ص ١١٢ ، شعر طفيل .

لمن دِمنةٌ أقفرتْ بالجَنابِ　　إلى السَّفْحِ بَين المَلا فالهِضابِ (١)

وإن تعرف عليها فانما بجهد وتوهم ، فلم تعد تعرف (الأطلال إلا توهما) ،وهل يمكن أن تعرف أطلال ونؤي (كخطك في رقٍ كتاباً منمنا)(٢). ويتذكر الشاعر جيداً مكان أماكن السكن المهجورة ، وبالتالي ، فعلى هذا المكان لا بد وأن تكون « بقايا الخيمة ، والمعالم ، حتى والرسوم الدوارس». لكنه بوقوفه هناك وبسؤاله لا يتمكن من العثور عليها ،وإن قدر له التعرف على هذه الاطلال فلن يكون ذلك إلا بمساعدة ضوء الشمس الساطع في وضح النهار . والسكان القاطنون بعد خروجهم ورحيلهم عن ديارهم إنما يتركون وراءهم « الرسوم الدوارس » ، حيث يقف الشاعر عندها مندهشاً سائلاً : « لمن طلل برامة عفا ؟ » . « أمن آل سلمى عرفت الطلولا ؟! »(٣) .

الرياح والأمطار والزمن قد غيرت الديار وأبقت منها فقط الأطلال، وبدلت الحياة السعيدة الهنيئة السارة بالآلام والحسرات والعذاب . والمصائب غيرت « الرسوم الدوارس » .

وتتابعت الرياح والامطار الواحدة تلو الاخرى على الديار ففنتها : « عفت الجنوب مع الشمال رسومها » .

---

١ ـ المنازل ، ص ١٧٣ ، شعر لقيط بن زرارة .

٢ ـ المنازل ، ص ١١٢ ، شعر حاتم الطائي .

٣ ـ المنازل ، ١٢٣ ، ١٢٨ ؛ شرح ديوان زهير ، ص ٢٠٦، ١٩٣ .

وغدت الدمنة قفراً بعد أن كانت « محلة محلالاً » . إنه الدهر : «يبدل الابدالا » . « وآثار الاحبة بلين » ، وبقيت الهموم عليها في صدر الشاعر ، ويناجي الشاعر الربع :

« محوت آثارنا » وتركت « آثاراً بربع الحبيب لم تكن »(1) .

بقايا هذه الاطلال : [علامات خفيفة كـــوشي على ثوب يماني مزركش] ، « هاج الفؤاد معارف الرسم قفراً .... كالوشم » .

أو « كخطك في رقٍ كتاباً منمنماً » ، أو « يلوح كأن باقيه وشوم » ، أو [ككف فتاة أعيد صنع الوشم فيها أكثر من مرة لعدم وضوحه] ، أو [كجلد رقيق يكتب عليه فتبقى آثار الكتابة غامضة]، (والربع غدت آثاره كترقيش الأفاعي) ، (والطلل البالي غدت فيه مرابط الخيل المهدمة كأنها التراب القليل الذي تخرجه النمال من بيوتها)، (وأطلال مية قد غدت كالرقش في الثياب (2) استمرت الرياح العاصفة في هذه الرسوم حتى عفتها ، ولم تترك إلا كل صلب قاس من الحجارة - (الاثافي الثلاثة - التي تبدو وكأنها حمامات متقابلة متوثبة للمعاركه)(3).

---

1 - المنازل ، ص ۱۳۲ ، ۱۰۹ ، ۱۱۰ ، ۱۹۲ ، ۱۸٦ ، ۱۸٥ ، ۱۷٥ وغيرها . أشعار ، طفيـــل ، النابغة ، بشر ، جرير ، علي الكاتب وغيرهم .

2 - المنازل ، ص ۱۱۸ ، ۱۱۲ ، ۱۲۸ ، ۱۲۳ ، ۱۱٤ ، ۱۲۹ ، ۱۷۸ ؛ أشعار طرفة الطائي ، زهير ، ذي الرمة ، أبي نواس .

3 - المنازل ، ص ۱۷۸ شعر الصمة القشيري .

لقد عفت الرسوم رغم بشاشتها فغدت وكأنها (سطور كتاب) :

أرسوم دار أم سطور كتاب   درست بشاشتها مع الأحقاب؟(١)

وشبه المتنبي دمنتي (ريّا) في الصحراء بخالين في خد فتاة ، والطلول في العراص الداكنة بالنجوم في الليلة الظلماء ، إنها الدمن التي تكاثرت الهموم على الشاعر في عرصاتها كتكاثر اللوام :

قِفْ على الدَّمنَتين بالدَّوِّ من رَيّا   كخال في وَجْنَةٍ جَنبَ خالِ

بطلولٍ كأنهُنَّ نجومٌ   في عراصٍ كأنّهن ليالي

وقال :

ذِكَرُ الصِّبى ومرابعُ الآرام   جَلَبتْ حِمامي قبل وقت حِمامي

دِمَنٌ تكاثرت الهموم عليّ في   عَرَصاتها كتكاثر اللوّام(٢)

إن الشعراء يبكون هذه البقايا والاطلال دموعاً غزيرة مدرارة ، رغم يقينهم بعدم جدوى البكاء :

يأبى الخليُّ بكاء المنزل الخالي ،   والنوح في أرسم أقوت وأطلال (٣)

---

١ ـ المنازل ، ص ١٧٧ ، شعر البحتري .

٢ ـ المنازل ، ص ١٦٦ ، ١٦٧ ، شعر المتنبي. [ذكر: جمع ذكرى] .

٣ ـ المنازل ، ص ، ١١٣ ، شعر البحتري .

ورغم أن الوقوف على الرسم لا يغني [لو أغنى الوقوف على الرسم !!] فان الشاعر يقف ويبكي الرسوم والديار « بكاءً على الاسى» ، « بكيت فما أبقيت للرسم من رسم » ، إنها الديار الحزينة مثله لفقد أهلها ، كلاهما ناحل سقيم ، سقاها المطر ، لكنها لم تزهر إلا عندما سقاها هو دموعه :

هو الرّسمُ لو أغنى الوقوفُ على الرسم
هو الحزمُ لولا بُعْدُ عهدكِ بالحَزْمِ
عشية جُنّ القلبُ فيها جُنونه
ونازعني شوقي منازعةَ الخصْمِ
فلمّا أبى إلاّ البُكاءَ على الأسَى
بكيتُ فما أبقيتُ للرسم من رسمِ
سقاها الحيا قبلي فلما سقيتها
دموعي رأتْ فضل الولي على الوسْمِ (١)

إن هذه البقايا [الآثار والاطلال والرسوم] بكاء ، تكون واسطة إيقاظ الشوق والحنين ، والحزن والالم والحسرة . ويدعو لها الشعراء – كالعادة – بالسقيا والمطر ، وأحياناً ،« بالسلام والخلاص»(٢) .

---

١ – المنازل ، ص ١٧٧ ، شعر ابن الخياط .

٢ – المنازل ص ١١٩ ، شعر عمارة بن بلال .

من الضروري أن نشير إلى أن الاطلال والدمن والرسوم والآثار المعفاة ، المقفرة ، التي درستها الرياح والامطار المتقادمة تبقى دوماً ـ كما كانت المنازل والديار ـ مبعثاً للشوق ، ومهيجاً للمحبة ، ومصدراً للذكرى عند الشعراء العذريين .

فكل من جميل وكثير يكثر من استعمال ألفاظ [تهيج ، أشتاق، تذكر] : [فالمعارف والطلول] اللواتي [عفون وخف منهن الحمول] قد (أشاقت) جميلاً (وذكرته دنيا قد تولت) ، ولكن سؤال هذه الطلول لا يجدي أحياناً أخرى إذ :

[كيف سؤال خيمات ٍ بوال ٍ ونؤي عهد أحدثه محيل؟! (١)]

وكذلك الامر عند كثير (لعزة أطلال تهيج مغانيها الطروب) ، (أهاجك من سعدى طلول) ، (طلل أقوى من الحي) ، (تهيج) المنازل (أحزان الطروب) ، وإذا ما سأل عن سعدى فان (حمائم أو أطلال دار ٍ مواثل) (يهجنه لذكرها) ، تلك الاطلال التي أضرت بها (الأنواء والريح والندى) وغير مغناها تعاقب الايام(٢) .

وكذا الحال ـ في هذا المجال ـ عند الشعراء العمريين [فالاطلال المقفرة التي [تعفت] حتى [رسومها] ـ وهناك تفريق بين الطلل

---

١ ـ المنازل ص ١١١ ، ١٢٦ . شعر جميل .

٢ ـ المنازل . انظر . أشعار كثير وجميل في فصلي « الاطلال ، والرسوم » .

والرسم – ، والتي غدت مع تعاقب الايام وكأنها وشم خافت في كـــف الفتاة قد [هاجت الذكرى والشوق] للحبيبة عند عمر بن أبي ربيعة[1].
وعلاوة على تلك النغمات والعناصر التقليدية في التوجه إلى أماكن السكن ، وفي استعمال هذه المصطلحات الدالة على بقايا الدار تمكن الشور على عنـاصر أخرى جديدة .

يورد أسامة من أشعار ذي الرمة ثمانية مقاطـع [٤٢ بيتاً] ، فيها وصف للطبيعة والصحراء البدويتين . ولا عجب في هذا وذو الرمـة الشاعر الذي برز في وصف الطبيعة الصحراوية خاصة ، حيث نشـــأ في الصحراء . ثم نزل في البصره والكوفة ، فتلقن ما كان فيهما من ثقافات ، وبقي رغم ذلك شغوفاً بصحرائه القديمة ، يرحل إليها ، ليتأملها ويصور جمالها وسحرها تصوير الهائم المفتون ، وبهذا الهيام دبـج لوحات رائعة لصحرائه ، محملاً شعره في كثير من جوانبه رؤى وأحلاماً بهيجة . إن هذا الاكثار في وصف الاطلال والدمن كان في رأي الفرزدق سبباً في عدم ذكر ذي الرمة في طبقة الفحول[2]. تغنى بصديقته (ميّ) فكثر ورود اسمها في هذه المقطوعات ، وارتبط بالاطلال والرسوم والآثار . وهـــو

---

١ – المنازل ص ١٢١ ، ١٣٢ ، انظر . أشعار عمر بن أبي ربيعة .

٢ – انظر . ابن قتيبة ، طبقات ، ص ، ٣٣٣ . (جاء الفـــرزدق فوقف عليه (على ذي الرمة) فقال له : كيف ترى ما تسمـع (من شعر ذي الرمة) يا أبا فراس . قال : ما أحسن ماتقول . فقال : ما بالي لا أذكر مع الفحول ؟ . قال : قصر بـــك عن غاياتهم بكاؤك في الدمن والاطلال، وصفتك للعطن والابعار) .

باستخدامه طرائق جديدة في المعاملة ـ معاملة هذه البقايا ـ إنما يعطينا لوحة فنية حية عن بقايا ديار البدوي ـ المسلم . يدعو إلى التسليم (على الطلل) البالي : « عليكن يا أطلال ميّ سلام » ، رغم حداثة عهده مع إيمانه بأن الربع الذي غدت آثاره كترقيش الافاعي لن يرد على التسليم ، كما أن الطلل صامت لا يجيب . ويدعو خليليه إلى المرور على (الطلل) البالي الذي غدت فيه مرابط الخيل المتهدمة وكأنها شبيهه بالتراب القليل الذي تخرجه النمال حول بيوتها .

الصورة الحية الكاملة لبيوت وأطلال وبقايا البدوي الاسلامية يعطيها ذو الرمه بلمسات جديدة في التناول والوصف : طلب من صاحبه أن يقف فى (أطلال مية) ليسأل الرسوم الخرقة ، دموعاً لا ألفاظاً : فلم ير إلا الدمن التي هاجت شوقه ، إذ لم تبق إلا مرابط الدواب (وجوانب المسجد) ومناصب القدر ، التي هي رواجل للمرجل ،والريح الحارة تجر فيها التراب الرقيق كأنها تسكبه من ثقوب المنخل .

وتعرف بصعوبه على (أطلال ميه) التي غدت كالرقش في الثياب، فغلبه الهوى ، وتذكر ، وهل له عذر في التصابي ؟! لم يجد عذراً « بعد عشرين حجة ، مضت لي وعشر قد مضين إلى عشر » ، فكان ذلك مسبباً لاخفائه شوقه عن رفيقة ذي العقل الراجح ، لكن لا حول بذلك ، فالدار هيجته رغم أنه يخادع قلبه بالنسيان .وعندمايتذكر«يتكاف النسيان ويتظاهر بالسلوان»(١) .

---

١ ـ المنازل ، انظر شعر ذي الرمة في :«فصل فى ذكر الاطلال» .

والدموع والامطار قد سقت « الاطلال والدمن والرسوم » ، وغطتها بالاعشاب الخضراء الجميلة ، وبالازهار المتفتحة العطرة[1]. ولم يتوان أبو نواس ـ وهو الذي وقف ضد التقليد والمطالع الغزلية والأطلال ـ عن استعماله لتعابيره المتصنعة بوخز الاطلال والتهكم عليها : « لمن طلل عافي المحل دقيق ؟! » .

« لمن طلل لم أشجه وشجاني وهاج الصبى أو هاجه لأوان؟ » (٢)

وعبر أحياناً أخرى بوخز شديد ـ وهو في معرض التأسف عليها ـ إذ شك في معرفة الرسم الذي لغرابته تتأذى منه العين ويلفظه الوهم :

ألا لا أرى مثلي امترى اليوم في رسم تَغَصّ به عيني، ويلفظه وهمي (٣)

لكنه ، أحياناً يعود لمناجاة هذه الاطلال مناجاة لطيفة جديدة بعناصر جديدة ، إذ لاول مرة نسمع ان الدمن حسنة الرسوم ، وطيبة النسيم ، كما أننا لاول مرة نرى ان الدمن لا تبلى ، وباقوائها من سكانها لبست ثوب النعيم :

---

١ ـ المنازل ، ص ١٦٦ ، ١٧٩ ، ١٨٢ ، ١٥٩ ، ١٥٨ ، ١٦٧ ، شعر بيهس ، جرير ، ابن خباب ، أبي تمام .

٢ ـ المنازل ، ص ١١٤ ، ١٢٩ ، ديوان أبي نواس ص ٤٦٨ ، ٦٨ .

٣ ـ المنازل ، ص ١٧٦ : ديوان أبي نواس ، ص ٨٧ .

تجافى البلى عنهنّ حتى كأنما لبسْنَ على الاقواء ثوبَ نعيم(١)

أما « الايادي » فانه يدعو إلى ترك الحنين والبكاء على هـذا الرسوم :

أمِنْ رَسْمٍ تعفّى أوْ رَمادِ وسُحْمٍ كالحمامات الفرادِ
أطاعتك الشؤون فظلْتَ صبّاً كأنّ وكيفها وَهْيُ المَزادِ
وهل يشتاقُ مثلُك في ديارٍ عفتْها الرّيحُ والدّيم الغوادي
ذكرْتَ بها سُعادَ فُعجْتَ جهلاً على رسْمٍ تُسائلُ عن سُعاد (٢)

لم يمر الربيع مرة « على الاطلال » عند أبي تمام إلا وسقاها أمطاراً كثيرة . والجديد عنده أنه ـ بعكس باقي الشعراء ـ يوضح آثار فعل هذه الأمطار ؛ فهي في كل مرة تنهمر فوق الاطلال تغطيها بالاشجار الكثيفة ، والازهار الكثيرة الفواحة(٣) .

بقايا آثار أماكن السكن

عند أسامة

لم يكن أسامة ، في استخدام الانغام الشعرية المرتبطة ببقايا

---

١ ـ المنازل ، ص ١٦٨ ؛ ديوان أبي نواس ، ص ٤٤٧ .
٢ ـ المنازل ، ص ١٨٥ .
٣ ـ المنازل ، ص ١٨٢ .

أماكن السكن ، إلا مقلداً للشعراء الجاهليين ، بغض النظر عن كون حياته مرتبطة بأكبر مدن الشرق وقتها (حلب ، دمشق ، القاهرة وغيرها) . إن « الرسوم » التي أيقظت مشاعره وأهاجته فوقف عليها لم تكن حضرية بل بدوية : إنما [وقفت على رسم ببيداء بلقع] . بقايا أماكن السكن عنده « بكماء لا ترد على الدعوة » ، والرسم [صموت إذا دعي] ، لم تعرفه عينه إنما البلى أفهمها أنها دار الاحبة . ولا تستغربي من الدهر (اخلاق جدة وتشتيت آلاف وإيحاش مجمع) ، إذ (الموت سكان الديار ، والبلى منازلهم ، وشملهم للتصدع) .

فما على المرء إلا الصبر على هذه الفواجع الاليمة لأنها سنة الكون(١) . أما فيما تبقى من أشعار فان أسامة لم يذهب بعيداً عن هذا بل كان مقلداً .

لكن من الضروري أن نؤكد على التالي :

آ ـ « الآثار » عند أسامة لم تقتصر على معناها المادي فقط ، فقد ذكر بمعناها المعنوي إذ كي يؤكد رأيه يورد خبراً : بان أرسطاطاليس كتب إلى الاسكندر كتاباً يوصيه فيه بمصالح ملكه ، ثم قال فيه : (اعلم أن الايام تأتي على كل شيء ، فتخلق الافعال ، وتميت الذكر ، إلا مارسخ في القلوب بمحبة تتوارثها الاعقاب ، فاجهد أن تظفر بالذكر الذي لا يموت ، بأن تودع الناس محبة يبقى بها ذكر مناقبك) . وكأن (الذكر) هو الجانب المعنوي (للآثار) . ثم يورد أبياتاً للمعري

١ ـ المنازل ، ص ١٨٢ .

يدعو فيها إلى ترك الآثار بوادي ملحوب ، إذ باتباع طريق الهـدى يبقى الذكر الحسن :

اتبعْ طريقاً للهدى لاحباً وخلّ آثاراً بملحوب(١)

ب ـ إن الشعراء على امتداد جميع العصور لم يوردوا تغيـيرات واضحة ملحوظة في استعمال مصطلحات (بقايا أماكن السكن)وفي التوجه اليها ، رغم تطور الحياة الاجتماعية والحضارية . فقد كان تقليد الماضي شائعاً في هذا المجال ، وصفة واضحة بارزة . ولقد نتج هذا ـ برأينا ـ لأن المطالع الغزلية للقصيدة إنما تعتبر عناصر تقليد أساسية في بناء القصيدة ، وحافظت بذلك على هذا التقليد والنهج .

---

١ ـ المنازل،ص١٩٥؛ديوان اللزوميات ،حـ I ، ص١١٧.[اللاحب:الواضح].

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

٤ - معنى الوطن الواسع

كما أشرنا سابقاً ، للدلالة على « أماكن السكن » في الشعر العربي قد استعملت عدة مصطلحات ، تعود بمعانيها إلى الحياة البدوية . وتوجد أيضاً مصطلحات أخرى تعني « أماكن السكن » ، لكنها توسع هذا المعنى حتى تصل إلى مفهوم الوطن ، وهذه هي :

آ - « المدينة » . « مدن بالمكان » : أقام فيه . فعل ممات ، ومنه « المدينة » ، وجمعها « مدائن » أو « مُدْن » أو « مدن » وهو الاكثر استعمالاً . ومدن الرجل : إذا جاء المدينة . « والمدينة » :الحصن يبنى على مرتفع الأرض ، والنسبة له (مدائني) ، جمعها : مدائن . « والمدينة » : اسم مدينة بجانب الكعبة (مدينة الرسول) ، ويقال للرجل العالم بالأمر هو (ابن مدينتها) ، وللأمة : مدينة أي مملوكة ، وللعبد : مدين[1] .

ب - « الوطن » : المنزل تقيم به وهو : موطن الانسان ومحله . جمعها « أوطان » وأوطان الغنم والبقر : مرابضها واماكنها التي تأوي إليها ، كقول الاخطل :

كرّوا إلى حرّتيكم تغمرونها ... كما تكرُّ إلى أوطانها البقر

---

١ - لسان العرب ، حـ XVII ، ص ٢٨٨ ؛ تاج العروس ، حـ . IX ، ص ٣٤٣ .

فعله (وَطَنَ بالمكان) (وأوطن) : أقام به واتخذه وطناً أو محلاً ومسكناً . وأوطنت الارض ووطنتها توطيناً واستوطنتها أي اتخذتها وطناً ، وكذلك الاتطان . ومن المجاز : مواطن مكة: مواقعها . والوطن: المشهد من مشاهد الحرب . وواطنه على الامر : أضمر فعله معه ووافقه ، ووطن نفسه على الشيء وله فتوطنت : حملها عليه فتحمت[1] أما في اللغة الحديثة فان المعنى الاساسي للفظة (وطن) إنما يدل على المفهوم العصري الحديث الشامل .

حـ ـ « البلدة والبلد » : كل موضع من الارض عامر أو غير عامر ، خال أو مسكون . « والبلد » من الارض ، ما كان مأوى الحيوان وإن لم يكن فيه بناء . جمعها بلاد وبلدان . وقال بعضهم : « البلد » : جنس المكان كالعراق والشام ، « والبلدة » : الجزء المخصص منه كالبصرة ودمشق . « والبلد الحرام » : مكة والمدينة (معنى اسلامي) .«والبلدة»: الارض أو الفلاة . « والبلد » : المقبرة من الفعل « بلد » بالمكان ، أي أقام به ولزمه . «والبلد» : الاثر ، جمعها أبلاد . قال القطامي : (في النحور كلوم ذات أبلادِ) . وقيل للمتحير متبلد لانه شبه بالذي يتحير في فلاة من الارض لا يهتدي فيها[2] .

---

١ ـ لسان العرب ، حـ XVII ، ص ٣٤٢ ، تاج العروس ، حـ IX ص ٣٦٢ .

٢ ـ لسان العرب ، حـ IV ، ص ٦٢ ؛ تاج العروس ، حـ II ، ص ٣٠٥ ـ ٣٠٦ .

د ـ « الارض » : التي عليها الناس ـ مؤنثه وهي أسم جنس تأتي بمعنى الموضع والمكان نادراً . والارض : سفلة البعير والدابة وماولي الارض منه . وأرض الانسان : ركبتاه فما بعدهما ، وأرض النعل : ما أصاب الارض منها . فعلها « تأرّض » بمعنى ثبت ، وقيل :التأرض : التأني والانتظار(١) .

إن حياة التنقل والترحال عند العرب ـ البدو ، وعدم الاستقرار ، وضرورة الانتقال من مكان وإلى آخر سعياً وراء الكلأ والمرعى ـ كل هذا ينعكس في الشعر الجاهلي . ولهذا فان مفهوم«الوطن» منذ الجاهلية كان مرتبطاً بظروف الحياة المادية : الحياة في مكان ما تستمر ، طالما أن هذا المكان يؤمن للشخص حفظ كرامته ، وحياة هنيئةسعيدة ؛ أما إذا لم تكن الظروف تناسب هذا وإن نباهتالمقام ، فعلى الشخص أن يدعه ، وينتقل إلى مكان آخر جديد إلى الوطن الجديد الذي تؤمن الحاجات فيه . وبغض النظر عن هذا ، فان الانسان (البدوي) بحياته الجديدة في مكان آخر جديد ـ [وطن] ، يحن إلى « الوطن القديم» . إن زامل بن عفير الذي غادر وطنه مكرهاً إلى الشام ، والتقى به الحارث الغساني الاكبر ، وأكرم مثواه ،حن إلى وطنه الاول ، إلىمواطن طي في الحجاز . ورغم نزوله عند الحارث ذي المجد والمكرمات الواسع الشهرة والملك ، رغم نزوله بمثوى كريم ناعم البال بقي وطنه الحجاز يجتذبه :

---

١ ـ لسان العرب ، ج . VIII ، ص ٣٧٩ ، تاج العروس ، ج . V ، ص ٣ .

غير أنّ الأوطان تجتذبُ المر ءَ إليها الهوى وأن عاش كدّا

ورغم حياته الناعمه بالشام ، فان حسراته على وطنه تقد قلبه قداً. إذ :

ليس يستعذب الغريب مُقاماً في سوى أرضه، وإن نال جَدّا[1]

ذلك لأن الاوطان جواذب .

« وطن » الانسان هو مسقط رأسه ، ومكان سكن أهله وأقربائه ، أكان خيمة أو منزلاً ، ربعاً أو مغنى ، إنه المكان الذي أمضى فيه المرء طفولته وفتوته[2] . وتألف النفس الوطن حتى كأنه [لها جسد إن بان غودر هالكاً] ، ومحبة الرجال الأوطان لأنها تذكرهم بمآرب قضوها فيها في فتوتهم :

إذا ذكروا أوطانهم ذكّرتهم
عهود الصبّى فيها فحنّوا لذلكا[3]

وأغلى « البلاد » على الانسان ، ذلك « البلد » الذي ولد فيه ، وترعرع ، وتلك الأرض التي أول ما لمسها[4]. « والوطن » هو موطن

---

١ ـ المنازل ، ص ٢٢١ ، ٢٢٢ ، شعر زامل بن عفير .

٢ ـ المنازل ، ص ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٢٩ .

٣ ـ المنازل ، ص ٢٢٢ ؛ ديوان ابن الرومي ، حـ I ، ص ١٣ .

٤ ـ المنازل ، ص ٢٦٦ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ .

قبيلة الشاعر[1] .

قد نالت نجد والحجاز بشكل عام ، والمدينة ومكة بصورة خاصة اهتماماً أساسياً عند الشعراء . وهم موجودون في بعد عن هذه المواطن ، يحنون إليها ، رغم أن بعضهم ـ احياناً ـ لم يعش فيها :

ذهب الرجال فلا أحس رجالا   وأرى الإقامة بالعراق ضلالا
وأرى المرجّي للعراق وأهله   ظمآنَ هاجرةٍ يُؤمِّل آلا
وطربتُ أنْ ذكرالمدينةذاكر   يوم الخميس فهاج لي بَلْبالا
وجعلت أنظرُ في السماء كأنني   أبغي بناحية السماء هلالا
طرباً إلى أهل الحجاز وتارة   أبكي بدمعٍ مسبل إسبالاً[2]

فالمدينة هي مدينة الرسول في الحجاز وموطنه ، ومما زاد حنين الشاعر هنا وشوقه إخفاقه في العراق ، فالارتباط بالوطن قرن بالحالة الاقتصادية المادية حتى إنه يتلمس المساعدة من السماء .

أما فيما بعد ـ في الوقت اللاحق المتأخر ـ فان لفظه « وطن » عني بها « مدينة » مع التي تربط الشاعر روابط معينه ؛ فالمتنبي وهو بمصر يشتاق إلى حلب ، إلى بلاط سيف الدولة ، حيث كان عزه ورفاهيته ،

---

١ ـ المنازل ، ص ٢٥٠ ، شعر المازني .

٢ ـ المنازل ، ص ٢٤٥ . شعر ابن المولى . [البلبال : شدة الهم].

فبأي شيء يعلل نفسه ، وهو بعيد عن وطنه وأهله ، وليس له ما يلهو به ، ولا أحد يسكن إليه ؟ . مواساته في أن ظروف الزمان القاسية زائلة ، ولا بد من عودة إلى الوطن(١) . وعلية بنت المهدي ، في صحبتها لأخيها الرشيد الخليفة : وهي مغتربة بعيدة عن بغداد ، بالقرب من همذان ، اشتاقت وحنت إلى بغداد ، حتى إذا ما أتاها [الركب من نحو أرضها تنفست تستشفي برائحة القرب] ، فأرضها - بغداد ، لا أرض الخلافة كلها ، وحنينها للساكنين المحبين هناك(٢) .

أما اليمنية ، التي زوجها عمها إلى شآمي نقلها إلى الشام ، فان الشوق يأكلها إلى بلادها ، داعية لتلك البلاد بالسقيا ، حيث قومها مجتمعون ، رغم يقينها أن لامجال للقاء . وداعية على كل يمنية تترك اليمن (إذ لا بارك الله في وجه كل يمانية تحب شآمياً)(٣) .

و « الوطن » عند أبي العباس الأعمى هو سورية عامة ، ودمشق بصورة خاصة ، حيث يعيش أهله وأبناء قومه بنو أمية . وهو في الحجاز يحن إلى دمشق والأقرباء(٤) . وأبو العلاء ، وهو في بغداد ، يحن إلى سورية وخاصة إلى مدينته الصغيرة ، مسقط رأسه المعرة(٥) .

---

١ - المنازل ، ص ٢٢٥ ؛ ديوان المتنبي ، ح II ، ص ٤٦٧ .

٢ - المنازل ، ص ٢٠٨ - ٢٠٩ .

٣ - المنازل ، ص ٢٤٩ .

٤ - المنازل ، ص ٢٥١ ، وانظر : أيضاً ص ٢٥٢ ، شعر ابن حمدان .

٥ - المنازل ، ص ٢٥٨ .

إن عمران بن حطان ـ برأينا ـ نموذج لشعراء العقائد الدينيـــة والسياسية ، الذين كثروا في عصره ، وكانوا محط اضطهاد الخليفة وولاته، فلا مكان إقامة دائمة له ، أزدي مرة وأوزاعي أخرى ، متنقل في الاقطار الاسلامية علّه يجد مأمناً على حياته ، إلى أن نزل بعمان بين قوم من عقيدته فاستقر وطابت له الحياة ، إذ نزل في خير أسرة ، بقوم يجمع الله شملهم من الأزد إن الازد أكرم معشر يمانية إذا انتسب البشر ، وأهله وقبيلته هم رجال معتقده ، «وموطنه» المريح هو مكان سكناهم :

فنحن بنو الاسلام والله واحد وأولى عباد الله بالله من شكر (١)

« والوطن » عند مجموعة من الشعـراء « ليس مكان لعب الصبي، حيث ولد الانسان وترعرع » ، لكنه ذلك البلد الذي يؤمن الحياة الاقتصادية الكريمة للمرء . إذا كان الانسان في بعد عن وطنه ، ونال معاشاً ، فلا عليه أن يكثر نزاعاً إلى الوطن ، فما هذا «البلد الجديد» إلا وطناً كالقديم، لكن خيرهما ما كان عوناً على الزمن ، وكم تنقل في البلاد ، لا يعبأ بالحنين ليؤمن راحته وحياته إذ (وأحب أوطان البلاد إلى الفتى أرض ينال بها كريم المكسب) . لقد غدت الدعوة صريحة لملازمة المكان الذي (يكسب) فيه بشكل جيد (٢) .

إن موافقة البلاد وطيب العيش فيها هما معيار ارتباط بعض الشعراء

---

١ ـ ـ المنازل ، ص ٢٣٢ ، ٢٣٥ ؛ المبرد ، الكامل ، ٥٣٠ ـ ٥٣٤ ؛ انظر أيضاً ، ص ٢٣١ ، شعر ابن حيوس .

٢ ـ المنازل ، ص ٢٣٧ ؛ ديوان البحتري ، ج . I ، ص ٦٠ .

بالوطن .(وشر البلاد بلاد) لا يوجد فيها من يستراح إليه ، ويؤنس بوده ، وشر ماكسبه الانسان هو ماعاب به وأذله ، وشر صيد صاده ماشاركته فيه اللئام ، و «بلد الانسان» هو ما يوافقه ، وأقاربه هم أصدقاؤه، وكل مكان وافقه ، وطاب فيه عيشه « بلده » ، وكل قوم صادقوه،وأصفوا له المحبة هم رهطه الأدنون . فاذا ما أعجزته صداقة صديق لم يعجزه الرحيل عنه ، إذ فى سعة الأرض بشرقها ومغربها مكان واسع للذهاب والمجيء ، وبسهولة يستعيض عن هذه البلاد ببلاد أخرى[1] .

أما عند إياس بن قبيصة الطائي فيعثر أيضاً على عودة الى الارتباط العام « بالارض الرحبة الفسيحة » ، التي لا يعجزه إدراك أية بقعة من بقاعها . ينكر انتسابه إلى أم ربعية أو مضرية ، ويؤكد أن وطنه « هو الأرض بأكملها ».في هذا تنعكس وحدة الارض الكاملة ، هذه الوحدة التي تماكس التصور القبلي المحدد[2] . وعلى العكس من هذا فان حب وجيهة بنت أوس للأرض يتعلق لا بالأرض بأكملها ، لكن بأرض عشيرتها فقط :

فما لي أن أحببت أرض عشيرتي وأبغضت طرفاء القصيبة من ذنب؟![3].

إن هذا المفهوم الانساني العام للأرض « كوطن » معبر عنه بشكل ساطع في شعر شاعر متأخر عاش في عصر لاحق ، هو ابن الفرات .

---

١ ـ المنازل ، ص ٢٥٧ ، ٢٥٨ .

٢ ـ المنازل ، ص ٢١٧ .

٣ ـ المنازل ، ص ٢٠٨ .

إنه في تنقل وترحال دائمين ، في شرق الأرض ومغربها ، فان بان عـن وطنه ، فله من أكوار العتاق النجائب موطن . ولا ضير عنده في هذا فطالما أصله من تراب [فكلها (كل الارض) بـلاده ، وكل العـالـين أقاربه] . إنها دعوة انسانيه مفتوحة(١) .

في المفهوم الجديد « للوطن » والحنين إليه تظهـر آثار دينيـــة اسلامية . « فالكعبة » ـ « البلد الحرام » « موطن » المسلم ، حتى لو لم يولدفيها أو يعش . إنه يحن إلى الكعبة ، وإلى شعائر الحـــج ، وإلى « المساجد هناك » .

أعلمتَ كيف تصبُّري عن رؤية البلد الحرامْ
والَمشْعَرَيْنِ ومسجدٍ بالخيفِ يُشْهَدُ كلَّ عامْ
وعن التزام المَشْعَرَيْنِ وعن صلاة بالمقامْ
وعن زيارة للنبي المصطفى خير الأنامْ
كتصبُّرِ المدْفوعِ بالأسْقامِ عن طيبِ المنامْ(١)

« وطن » الانسان هو « بلده » ، إنه الحياة الدنيا (دار الفناء) . والانسان بتركه الحياة الدنيا يبقى على الدوام في الغربة :

---

١ ـ المنازل ، ص ٢٢٣ .

٢ ـ المنازل ، ص ٢٤٧ ؛ شعر « الرجل المريض » .

تيَقَّنَ أنّ اللهَ أكرمُ جيرةً   فأزْمَعَ عن دار الفناء رحيلا
فان أقفرتْ منه العيونُ فإنّه   تعوّض منها بالقلوب بديلاً (١)

إن بعض الشعراء يأخذ العبرة والعظة من « المدائن » الخالية ؛ فمصير الجميع إلى زوال ، ونهاية الجميع الموت ، ويتساءل أبونواس عمن كان قبله من ذوي البأس والخطر :

أين مَنْ كان قبلنا   من ذوي البأس والخَطَرْ
سائلوا عنهم المدا   ئن واستخبروا الحَجَرْ
سبقونا إلى الرحيـ   ـل وإنّا لبا لأثَرْ
مَنْ مضى عِبرَةٌ لنا   وغداً نحن مُعْتَبَرْ (٢)

ويسأل أبو تمام المدينة الخربة على شط الفرات لماذا أصبحت خراباً ؟ على الرغم من كونها عجماء ، لا تنطق . فالبلى والتغير بينان فيها ، معربان عن هلاكها ، كأنما سكن الفناء في فنائها ، أوصال فيها الدهر صولة مغضب :

---

١ ـ المنازل ، ص ٢٤٨ ، ٢٢٩ ، شعر ابن حداد الأندلسي .
٢ ـ المنازل ، ص ٢٤٢ ؛ ديوان أبي نواس ، ص ٦١٢ .

قد قلتُ للزَّبّاء لما أصبحتْ		في حدّ نابٍ للزمان ومِخْلَبِ
لمدينة عجماءَ قد أمسى البلى		فيها خطيباً باللسان المُعْربِ
فكأنّما سكن الفناء فناءَها
أوصال فيها الدهرُ صولةَ مُغضَبِ (١)

ويدعو أسامة لسؤال (المدائن) عمن كان يملكها ؟ وهل علمت من بعدهم خبراً ؟ فلو أجابت ـ وهي عالمة بشأن الماضين الغابرين ـ قالت : لقد أرتهم الدنيا العبر ، فما اعتبروا ، فصيرتهم لقوم بعدهم عبراً :

سلِ المدائنَ عمَّنْ كان يملكُها		هل أنستْ منهمُ من بعْدِهم خَبَرا
فلو أجابتك قالت وهي عالمةٌ		بسيرة الذاهب الماضي ومن عَبَرا
أرتهمُ العِبَرَ الدنيا فما اعتبروا		فصيّرتْهمُ لقوم بعْدَهم عِبَرا (٢)

في أشعار شعراء المراحل المتأخرة غالباً ما نصادف ألفاظ (غربة وغريب وغرباء) . ويصف الشعراء في هذه الاشعار عذاب وحسرة الانسان وهو في ديار الغربة ، ويعبرون عن شوقه وحنينه للوطن .

---

١ ـ المنازل ، ص٢٤٣ ؛ ديوان أبي تمام ، ح . I ص ١٠٢ .(الزباء: مدينة خربة على شط الفرات) .

٢ ـ المنازل ، ص ٢٤٣ .

ـ «الغريب ليس يستعذب مُقاماً   في سوى أرضه وإن نال جَدّا»

ـ «لاتنهرن غريباً طال غربته   فالدهر يضربه بالذل والمحن

حسب الغريب من الدنيا ندامته

عضّ الانامل من شوق إلى الوطن» (١)

ـ «مامن غريب وإن أبدى تجلّده   إلاّ سيذكر بعد الغربة الوطنا» (٢)

ـ «فكل حرّ إلى الأوطان ملتفت   إذا ألحّ عليه الدهر بالمحن؟» (٣)

ـ «لايُذْكَرُ الرَّمْلُ إلاّحَنَّ مغترِبٌ

لهُ بذي الرّمْل أوطارٌ وأوطانُ

تهفو إلى البانِ من قلبي نوازعُهُ   ومابيَ البانُ بَل مَنْ دارُهُ البانُ

أسُدُّ سمعي إذا غَنَّى الحمام بها   كي لايُبيِّن سرّ الوجد إعلانُ» (٤)

« ومُغترِبٍ ينقضي ليلُهُ   فُنُوناً ومُقْلَتُه تَدْمَعُ

يؤرِّقُه نأيُهُ في البلادْ   فما يستقر به مضْجَعُ

---

١ ـ المنازل ، الفصل عن الوطن .

٢ ـ المنازل ، ص ٢٢٢ ؛ ديوان الراضي ، ص ٥٢٤ .

٣ ـ المنازل ، الفصل عن الوطن .

٤ ـ المنازل ، الفصل عن الوطن ، شعر الشريف الرضي .

إذا الليلُ ألبسه ثوبَه تقلّبَ فيه فتى موجعُ (١)

لقد أمضى أسامة معظم حياته في «الغربة» ، وهو في مصر ، يحن إلى شيزر وأهله هناك ، ويشير إلى أن الوطن الحقيقي أغلى ما على الدنيا إلى قلب المرء ، ولو توفرت للمرء في «الغربة» كل ملاذ الدنيا ، فالحياة في الوطن تبقى دوماً أفضل وأنجع :

هبْ أن مِصْرَ جنانُ الخُلْدِ ماشتهت
النفوس فيها من اللذّات موجودُ
مافيك لي سلوةٌ يامصرُ عن بلدٍ في أهله الفضلُ والإقدامُ والجودُ
ماذا انتفاعي إذا كانت زخارفُها موجودةٌ وحبيبُ النفس مفقودُ
وما الحياةُ لمن بانتْ أحبتُه رضِي ولا هو في الأحياء معدودُ (٢)

لكن من جهة أخرى يبرر «غربته» ويؤكدها ، ويزيد من فضلها ، ذلك لأنه في « الغربة » قد أمتلك المجد والشهرة وعلو المنزلة :

أظنَّ العدى أنّ ارتحالي ، ضائري ؟!
ضلالاً لما ظنّوا ، وهل يَكْسُدُ التِبْرُ ؟

---

١ ـ المنازل ، فصل في ذكر البلاد ، شعر أشجع السلمي .
٢ ـ المنازل ، ص ٢٥٣ .

وما زادني بُعْدي سوى بُعْدِ هِمَّةٍ
كما زاد نُوراً في تباعُدِه البدرُ

وهل في ارتحالي عن بلادٍ تنكّرَتْ لمثلي أو للساكنين بها فخرُ
وإن بلاداً ضاق عنّي فضاؤُها لأرحبُ من أكنافِها للعُلَى فِتْرُ

وأرضاً نبتْ لي وهي آهلةُ الرُّبى
هي القفرُ لا بل دونَ وَحْشَتِها القفرُ (1)

انطلاقاً من الأشعار المختارة في « كتاب المنازل والديار » ، في فصول : [المدن ، والبلاد ، والوطن ، والأرض] ، يمكننا تقسيم الشعراء إلى المجموعات التالية حسب ارتباطهم وعلاقتهم بالوطن :

آ - بعضهم يأبى الرحيل من مكان إلى آخر ، ويناضل ضده ، ويدعو إلى المقام في الوطن مهما كانت الظروف . والبحث عندهم عن الحياة المنعمة في بلاد غريبة إنما هو دعوة غير عقلانية :

يطيب خبيث الأرض بالقرب منكم ويخبث عندي بعدكم كل طيب (2)

« وقيل لبعض الحكماء : ما اللذة ؟ قال : الكفاية مع لزوم الأوطان ، ومحادثة الأخوان ، قيل :

---

1 - المنازل ، ص 260 .

2 - المنازل ، ص 252 .

ما الذلة ؟ قال النزوح عن الأوطان ، والتنقل بين البلدان »[1] .

وبعيد الدار يبكي دائماً وطنه ، وكلما طالت به المسافة ، طال به الشوق والوجد :

« وارحمتا للغريب في البلد النا زح ماذا بنفسه صنعا
فارق أحبابه فما انتفعوا بالعيش من بعده ولا انتفعا»

ـ « نأيتُ بشخصٍ في البلاد مُشرّقٍ
وقلبٍ إليكمُ بالحنين مُغرّبِ
لحى الله رأياً زيّن البُعدَ عنكمُ
وهِمّةَ قلبٍ رخّصَتْ في التقلّبِ »[2]

ويظهر هذا الاتجاه أيضاً بصورة واضحة جلية في شعر الموصلي :

ماذممتُ المُقامَ في بلدٍ قطْ فعاتبْتُه بغير الرحيل
إن تلقّاني الزّمانُ بمكرو هٍ تلقيّتُه بصبرٍ جميل[3]

وسعادة الانسان ، برأي الخليفة علي بن أبي طالب ، تكمن في

---

١ ـ المنازل ، فصل « الوطن » .

٢ ـ المنازل ، فصل في ذكر البلاد .

٣ ـ المنازل ، ص ٢٥٤ ، أيضاً : ص ٢٥١ ، ٣٥٢ .

حياة الانسان بشكل لائق في وطنه .

« قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب : من سعادة الرجل خمس: أن تكون زوجته موافقة ، وأولاده أبراراً ، وإخوانه أتقياء ، وجيرانه صالحين ، ورزقه في بلده » .

ب ـ وفي الطرف المعاكس لهذا الاتجاه يقوم اتجاه المجموعة الثانية من الشعراء التي ترتبط علاقاتها بالوطن بتوفر الكرامة ، والعزة ، والحياة الوديعة . الانسان سعيد إذا كانت حياته في وطنه كريمة اجتماعياً واقتصادياً، أما إذا كان الأمر خلاف هذا فعليه الهرب من الظلم والدنية ، وهجران الوطن ، والبحث عن وطن آخر حيث تؤمن له الحياة الهنيئة . إذ ـ حسب تعبير الشاعر ـ لا يقبل الهوان إلا الحمار ، أما الناقة الحرة فتنكره . وإذا كانت العداوة في البلد فلا بد من الرحيل إذ لا يرضى بالدنية أحد :

إنَّ الهوانَ حمارُ البيت يعرِفه ... والحرُّ ينكِرُه والرَّسْلَةُ الأُجُدُ

وفي البلادِ إذا ما خفتَ نائرةً ... مشهورةً عن وُلاةِ السُّوءِ مُنْتَفَدُ

إن الدنيّةَ لا يرضى بها أحدٌ ... إلاّ الأذَلاّنِ عيرُ السُّوءِ والوَتِدُ

هذا على الخسف محبوساً بُرمّتِه ... وذا يُشَجُّ وما يبكي له أحدُ (١)

---

١ ـ المنازل ، ص ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، شعر المتلمس . [الرسلة : الناقة السهلة ، والأجد : الموثقة الخلق ؛ المنتفد : المتنحي ؛ الرمة : قطعة من حبل] .

فالأرض واسعة عريضة ، خلقت « ليسكن منها السهل والجبل » ، ولهذا ما على المرء إلا أن ينتقل من مكانٍ إلى آخر طلباً للمكاسب والحياة الحرة الكريمة :

ـ إن كنتَ تزعُمُ أنّ الأرض واسعةٌ
فيها لغيرك مرتادٌ ومرتَحَلُ

فارحلْ فان بلاد الله ماخُلِقَتْ
إلاّ ليُسكنَ منها السهلُ والجبلُ

وابغ المكاسبَ من أرضٍ مطالبها
من حيثُ يحمُلُ حتى يَنْفَدَ الأجلُ(١)

ـ ففي الأرض منأىً للكريم عن الأذى
وفيها لمن رام القِلى متحوَّلُ(٢)

فالأرض واسعة عريضة ، ليس فيها ضيق على المرء الذي يحكم عقله في تسيير الأمور ، والمرء يحارب الجوع ، ولا يقبل الضيم والأذى ، والمضايقة النفسية . لولااجتناب العار والعيب لأقام في المشرب والمأكل المؤمنين له ، لكن هذا لا يكفي ، فالمرء يطلب الكرامة في موطنه ، فان لم تتوفر فما عليه إلا هجران ذلك الوطن ، ذلك لأن الرحيل عن

---

١ ـ المنازل ، ص ٢١٤ ، شعر حاتم الطائي .

٢ ـ المنازل ، ص ٢١٣ ؛ لامية العرب . في ملحق المعلقات ، ص ، ٩٧ ، وانظر . المنازل . ص ٢١٤ ، شعر الكلابي .

مثل هذه الارض ضرورة حتمية لا مناص منها ، لأن الداء العياء لابد من حسمه جذرياً بلا هوادة :

تحمَّلْ عن الأرض المريضة غادياً ولا تَرضَ للدّاءِ العَيّاء سوى الحسمِ
وما فتِئَتْ روحُ الفتى في نوائبٍ تُمارسُها حتى استقالَّت عن الجسم
إذا ما تفرَّقْنا تخلّصْنا من الأذى ولم يحتجِ الراعي المسيمُ إلى الوسمِ (١)

وفي أشعار الشعراء المجهولين تظهر الدعوة صريحة للتنقل والترحال عن الوطن ، فعلى المرء ان :

(لا يصرفنه عن عزم يهم به نزوع إلى أهل وأوطان) .

وهو في الوطن الجديد يلقى الأهل والأخوان :

يلقى بكل بلاد هو ساكنها أرضاً بأرض وإخواناً باخوان

إن مخالفي أوطانهم أشبه بسكان القبور ، لانه بالرحلة والتغرب ـ الغنى والتقدم ، إذ لولا التغرب ما ارتقى در البحور إلى النحور ، وليرحل المرء حتى لو كان إلى الصين أو عدن إذ :

كل خلٍّ إذا صافيته سكن وكلُّ أرض إذا أحمدتها وطن (٢)

---

١ ـ المنازل ، ص ٢١٣ ، ٢١٧ ، شعر المعري ، وانظر ، ص ٢٤٠ ، شعر السلماني .

٢ ـ المنازل ، ص ٢٢٠ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ .

وفي أشعار معاصري أسامة [ابن أبي جرادة ، ص ١٧٠-١٧١ ؛ وأبي نصر ، ص ٢١٩] نعثر على الحنين إلى مساقط الرأس ؛ والشاعران يعيشان حياة كريمة هانئة في «الغربة» يسعيان إلى العودة إلى الوطن ، والموت خير لهما من أن يبقيا على الدوام في «الغربة» :

أصبحَ شملي إلى الشتّاتِ وأصبـ ـحتُ غريباً وما نبا وطني

الناس لاهون في أماكنهم ونحن في رحلةٍ وفي ظَمَنِ

كأننا من مُتيّمي العَرَبِ الـ ـعَرْباءِ تهوى المعاج بالدِّمَنِ

لا صبرَ لي قد خرجتُ من جَلَدي

وقد سُلِبْتُ الحصين من جُننِي

ومجَّ سمعي لَغْوَ الحديث فما يطُورُ شيءٌ منه على أُذُني

جمعتُ ، والهفتاه ! قلبَ فتى يغررُ عن هَمِّ شارخٍ يفنِ

ورتبةً في العلاء تتبعها صورةُ مُستبذلٍ ومُمتهَنِ

[الشارح : الشاب ؛ اليَفَن : الشيخ]

وسديد الملك ـ جد أسامة ، المدافع عن ملكه ووطنه شيزر ، والمستعد لاعطاء كل شيء في سبيل حفظ شيزر ، وصيانة حريتها ، يستغرب تصميم المهاجر على الرحيل ، وقطع الفيافي كأنه قاسي القلب ، لا يقلل حب الوطن عنده من عزمه على الرحيل ، ولا يهدي الحنين إلى رسوم الدار :

لله ماطيفٌ ألمَّ بفتيةٍ تحنو رؤوسهمُ على الأكوار
يطويهم عرْض الفلاة مُسَرْبلٌ حُلَلَ الثناء ممزّقُ الأطمار
لاتفتهُ الأوطانُ عزمتَه ولا يهدي الحنين إلى رسوم الدار(١)

أما أسامة فقد غادر وطنه الام مكرهاً وأمضى قسماً كبيراً من حياته « غريباً » ، وحن إلى وطنه طيلة حياته سواء أعاش في نعيم او في عذاب . لقد كان ارتباطه بأهله ووطنه من الصفات المميزه له ، وهو الذي عاش كالطريد من بلد إلى آخر ، بلاوطن ولا خلان ، عيدالآخرين موسم لعويله بما يثيره من الذكرى ، ومرورهم عنده أحزان ، إذا ما رأى شملاً مجتمعاً زاحمت في قلبه الهموم والاحزان لا حداً بل من الذكرى المؤلمة لماضيه ، لقد أفردته الحوادث فلم يبق له أنيس ، ولا في طارق الخطب أعوان ، حتى لكأنه ليس كباقي البشر ، فقد نبت به البلاد فماله على وجه الارض وطن ، ينقل ويجول بلا استقرار ، فاذا ما حط عصا الترحال ، وحاول الاستقرار دعاه إلى الترحال ظلم وعدوان ، حتى غدا القبر أرفق به من دار سكنها [بصور] . حتى إن مصر التي قضى فيها من حياته عشر سنوات لم تنسه وطنه ، ولم تغنه عنه . إنها ليست أول أرض مس تربتها جلده ، فليس له فيها وطن ولا وطر ، إنما وطنه هو مكان مولده ، لكنه قطن مصر مكرهاً إذ : « إذا حمت الاقدار كان لها قوى تؤلف بين الماء والنار(٢) » .

---

١ ـ المنازل ، ص ٢٣٩ .

١ ـ المنازل ، ص ٢٢٩ ، ٢٣١ ، ٢٣٦ ، ٢٤٠ ؛ ديوان أسامة ، ص ١٠٤ ، ١٠٥ ، ٧٥ .

بعد استقراء هذه المعلومات التي أوردناها فيما سبق ، ونتيجة لدراستنا وصلنا إلى تقرير النتائج التالية :

إن البكاء على أماكن السكن ، [البيوت والدور والمنازل] وآثارها في الجاهلية ما كان إلا فناً شعرياً منفصلاً مستقلاً مفعماً بالحيوية والمشاعر الصادقة . وفي العصر الأموي كان التوجه إلى أماكن السكن بشكل عام ، وإلى آثارها بشكل خاص في الحب العذري ، كما في الحب العمري الواسطة للتعبير عن المشاعر والآلام والمعاناة عند الشاعر . وأماكن السكن هذه عند الشعراء العذريين مرتبطة عند كل منهم باسم محبوبة محددة واحدة ، وعند العمريين ـ بعدد من المعشوقات ، أما شعراء البلاط فكانوا مقلدين في هذه المطالع ـ مطالع القصائد الطللية ، لا يمتلكون أية رابطة مع هذه الأماكن [أماكن السكن] التي يبكونها ، وآثارها وبقاياها ، باستثناء بعض الحوادث عندما وصفوا القصور الفخمة [قصور الخلفاء] ، أو بكوا دمارها وخرابها ، ذلك الخراب الذي أيقظ عند الشاعر المشاعر الحزينة الصادقة . أما فيما بعد ـ في الوقت المتأخر ـ فقد ظهر اتجاه التجديد الذي وقف ضد هذه المطالع ، ودعا إلى نسيانها وإهمالها:

دع الرسم الذي دثرا   يعاني الريح والمطرا

لقد وقفنا على حقيقة جديدة وهي أن الدعوة إلى الكف والامتناع عن بكاء المنازل في المطالع الطللية يجب ربطها باسم الكميت بن زيد الذي عاش تقريباً بنصف قرن قبل بشار وأبي نواس ، لكنها لم تأخذ عنده ، كما لم تأخذ عند من سبقه صورة اتجاه أدبي متكامل .

وبالاستناد إلى هذا فقد قررنا أن الدعوة إلى الامتناع عن هذه المطالع الطللية ، وبكاء المنازل والديار ، كانت قد ظهرت لا بدافع الشعوبية عند بشار وأبي نواس ، بل بسبب الشروط والظروف الاجتماعية والاقتصادية الجديدة في حياة العرب التي كانت قد توطدت في البلاد والامصار الجديدة ، لاستقرارهم الدائم في المدن بعيدين عن الصحراء .

لفظة « منازل » تستعمل ايضاً بمعنى « القبر » و « المسجد » و « القصر » ، أما « البيت » فبمعنى « القبر » و « الحمام » و « شرف القبيلة » ، كما انها امتلكت أيضاً بعض المعاني الدينية الجديدة . وعند بعض الشعراء ، في تناولهم لموضوع « البيت » تنتشر بعض الالحان الاجتماعية الطبقية .

إن العناصر التقليدية في وصف وتصوير أماكن السكن مع بقاياها تركزت في كونها : [معفاة ، غير معروفة ، غير مسكونة ، خالية ، أماكن سكن الحيوانات والطيور ، تغيرت تحت تأثير الرياح ، والامطار ، والزمن ، والقدم ، والفراق ، بقاياها شبيهة ببقايا الوشم في ظاهر اليد ، وبرسوم واهية على ثياب خلقة ، وبآثار القلم الباهتة على الورق ، وبجلد الافعى المزركش .. الخ] .

وتحت تأثير شروط الحياة الجديدة يلاحظ تجديد واضح في وسائل التجسيم والتصوير ، وفي طرائق تناول أماكن السكن ، وبقاياها : لقد غدت المحبوبة [غانية] ، والمغاني تكتسي ألبسة جديدة ، إنها غير خالية، هي الربيع بالنسبة لما يحيط بها من أرض ؛ على أغصان أشجارها يغرد الحمام ، وصدى هذا التغريد تردده الغانيات المدهشات الجميلات . وأصبحت

الربوع مدنية ، يهب عليها النسيم اللطيف العليل الرطب ، وتغطيها – مع بقايا الديار (الرسوم والاطلال .. الخ) – الحدائق الجميلة المزدهرة ، ويرتبط بها بمشاعر أشبه ما تكون بمشاعر الاحترام والاجلال للكعبة ، وتبجل كالملوك والقياصرة ، إنها لا تعفو ، لكنها على العكس ، تلبس مع الايام الثياب الغنية الجميلة القشيبة .

أما فيما يخص المصطلحات التي المعنى المعنى الاوسع للوطن (مدينة ، وطن ، بلد ، أرض) فيلاحظ أن معظم الاشعار إنما تخص شعراء العصر الاسلامي . عندئذ لم يعد « المنزل » أو « المغنى » هما « الوطن » و « مكان السكن » ، إنما غدا « الوطن » هو « المدينة » ، « قطعة من الأرض » ، « بلد » حتى « والأرض » بشكل عام كامل .

ويتكلم هؤلاء الشعراء أكثر وأكثر عن «الغربة» و « الغرباء » في الوقت الذي يعثر فيه على هذه الألفاظ بشكل قليل نسبياً في الشعر الجاهلي . وربما كان هذا مرتبطاً بحياة التنقل والترحال عند العرب – البدو، الذين بتنقلهم في مناطق واسعة من الارض لم يحددوا المعنى بشكل دقيق محدد لكلمتي « وطن » ، و « غربة » .

لقد دعا بعض الشعراء الجاهليين إلى التنقل في كل الأرض ، وإلى ترك ذلك القسم من الأرض الذي يفتقر للعدالة . أما علاقة الشعراء بالوطن فقد كانت على مر العصور مهزوزة غير ثابتة . إذ دعوا في أكثر الحالات إلى التنقل والرحلة ، وإلى عدم الاستقرار في الاماكن التي هم فيها مظلومين ، وكرامتهم مهانة ، ولا عدالة عندهم ، وأحياناً قليلة دعوا إلى الاستقرار الدائم في هذه الأماكن رغم كل المعيقات والظروف .

في شعر بدايه القرن الثاني عشر XII الميلادي لا تلاحظ تغيرات كبيرة في تناول موضوع الوطن ، وتطور هذا المفهوم . فأسامةومعاصروه لم يسيروا هكذا بعيداً عن الشعراء السابقين لهم ؛ اتصف شعرهم أيضاً بذلك الاسلوب ، وتلك التعبيرات اللغوية السائدة سابقاً ، وبتلك المجموعة من أنغام المطالع الطاللية للقصيدة أيضاً . وما « الوطن » في مفهوم أسامة إلا ذلك المكان المحدد ، غير الكبير ، ما هو إلا «شيزر» مسقط رأسه ، حيث ولد ، ويعيش أهله . لكن (دراما) حوادث عصره ، وعمـــق آلامه الشخصية - كل هذا صبغ شعره بالاخلاص والصدق والواقعية . ونحن نقرأ شعر أسامة نشاركه أحزانه ، ونحس بآلامــه ، ذلك لأن ما يخرج من القلب يدخل في القلب مباشرة . إن هذا الاحترام للتقليـد [للشكل التقليدي] ، ولحيوية المحتوى « إنما مدين له شعر أسـامة ، ومدين له أيضاً ظهور هذا الكتاب « كتاب المنازل والديار » .





الفصل الثاني

الأهل والاخوان (المواطنون)



« أهل الرجل » هم عشيرته وذوو قرباه ، وأخص الناس به ، وعلى التخصيص زوجته وربما أولاده فقط . وقيل : من يجمعه وإياهم نسب أو دين . أو مايجري مجراهما من صناعة وبيت وبلد . « فأهل الرجل » ـ من يجمعه وإياهم مسكن واحد ، « وأهل المذهب » و« أهل الاسلام » : من يدين به . « وأهل الأمر » : ولاته . « وأهل النبي » : أزواجه وبناته وصهره علي . « وأهل كل نبي » : أمته . « وأهل القرآن » : حفظته . « وأهل الله » المؤمنون به . جمعها : أهالي وأهلون . مأخوذة من الفعل : أهل الرجل يأهل أهولاً : فهو آهل ، ومأهول به أهله . واتهل وتأهل : اتخذ أهلاً ، وقيل تزوج ، والحيوانات الأليفة : أهلية ، والمستوحشة : برية . وفي الدعاء : أهلاً : أي أتيت أهلاً لا غرباء ، فاستأنس ولا تستوحش ، وأهل به : قال أهلاً ، ومنها آل الرجل : أهله (١) .

أما الاخوان : فجمع مفرده : أخ . وهو من ولده أبوك وأمك ، وأحدهما ، ويطلق على الاخ في الرضاع ، وقد يكون الصديق أو الصاحب وخصص في (التهذيب) « الاخوة » : إذا كانوا لاب في الولادة ، « والاخوان » : إذا لم يكونوا لاب ، في الاصدقاء . وهذا رأي أهل البصرة ، إذ يقولون : رجل من إخواني وأصدقائي ، فاذا كان أخاه في النسب ، قالوا : إخوتي ، ويرى بعضهم أن هذا خطأ إذ [إنما المؤمنون

---

١ ـ لسان العرب ، ج . XIII ، ص ٢٨ ؛ تاج العروس ، ج . VII ، ص ٢١٧ .

إخوة] في القرآن الكريم لا على النسب . وعلى المجاز : « إخوان العزاء » و « إخوان العمل والصدق » : أي أصحابه وملازميه . فعلها - آخى - رجل مؤاخاة وإخاءً : أي اتخذه أخاً ، « آخى » بين المهاجرين والانصار : أي ألف بين قلوبهم . « والاخوّة » : قرابه الاخ ، أما التأخي : اتخاذ الاخوان(١) .

يقول أسامة في مطلع هذا الفصل : [هذا الفصل كان موضعه صدر الكتاب ؛ إذ كانت المنازل والديار إنما تبكى لسكانها من الاهل والاخوان والاحباب ، لكني أخرته ؛ لاختم به الكتاب] .

ومن أشعار اسامة ايضاً - إضافة الى قوله هذا - يظهر انه من اولئك الناس الذين يبكون الديار لسكانها لا لنفسها . فالتعلق بالارض والوطن إنما تعلق من خلال التعلق بأهلها .

« الاهل والاخوان » في شعر شعراء المراحل الاولى (امرىء القيس والجعدي ، وأبي دواد الايادي وربان بن منظور ومقاس بن شريك وابن مقبل ودريد بن الصمة) ما هم إلا أفراد القبيلة ، أو الفخذ ، او العشيرة ، او الاسرة (الاقرباء بالدم) ، فامرؤ القيس في سيره هارباً إلى قيصر باحثاً عن حماية عنده تذكر اهله الصالحين (ابناء عشيرته) ، وهو في بعد عنهم ، في حوران ، وحماه ، وشيزر ، يحن إليهم ، ويفقد الامل باللقاء بهم . إن رحلته شاقة ، تتطلب منه الجهد والصبر . فهو

---

١ - لسان العرب ، ج . XVIII ، ص ٢٠ ؛ تاج العروس ، ج . X ، ص ١٠ .

« أخو الجهد »[1] . و « الاهل » ايضاً في شعر الجعدي هم اقرباؤه اعضاء « فخذ » عشيرته الاقربين ، الذين مرت عليهم عوادي الزمان . إن مقطوعاته الشعرية في رثاء اهله تجسد احزانه واتراحه وتقطر حزناً واسى . إذ لسنوات ثمان خلت قد ألمت بهم الكارثة ، فما الدار الآن كعده بها ، لقد عهد فيها (حياً كراماً) كأنهم الملوك عظمة وفروسية ، فتيان صدق من معدن اصيل ، اغنياء كرماء ، فمرت عليهم عوادي الايام ولم يبق سرى الليل والايام من تلك الديار واهلها إلا (مغانياً) ، مغاني قوم غالتهم المنية ، فغدت اماكن حلولهم تبكي وتبكي ... لقد عفت ديارهم ، فغدت كأغطية السيوف الرقيقة المهزيلة . إنها (دار قومه) الذين حلوا بها قبل ان تصيبهم البلية ، وهم (من خير حي على الارض) ، يغيثون من يستنجد ، ويكرمون الضيف ، ويرتاحون للعطاء والكرم السريع ، ولا يستخفهم الطيش عند الغارة لانهم ذوو رزانة ، علاماتهم واضحة يعرفون على الدوام بفعلهم الخير ، اصحاب مروءة وشرف ، هلكوا فسألته جارته (زوجته) عن (أمته) (اهل قومه)[2] ـ وذو العقل يسأل إذا لم يعرف الخبر اليقين ـ مسألته عن اناس هلكوا ، واكل الدهر عليهم وشرب . إن اولئك الذين يرقدون في القبور ـ هم (ربعة الاقرب ـ اهل داره ، فخذه من عشيرته ورهطه ، إخوته بالدم)[3] .

---

١ ـ المنازل ، ص ٤٣٩ ؛ ديوان امرىء القيس ، ص ٦١ .

٢ ـ هناك ، ص ٤٦٣ ـ ٤٦٧ ؛ شعر الجعدي ، ص ١٦٦ ، ٨٥ ، ١٣ ، ٢٢٣ .

٣ ـ هناك ، ص ٤١٦ ، ٤١٧ ، ٤١٨ ، ٤١٢ ، ٤٤٦ ، ٤٤٥ ، ٤٥٢ .

بعض الشعراء المخضرمين (الخنساء وقس بن ساعدة وأميمة بنت عبـد شمس وابو خراش، وابو زبيد الطائي ، وابو طالب (يستعمـلون المصطلحات « اهل » ، « إخوان » تقريباً بهذه المعانى المشار اليها سابقاً . فالنكبة المؤلمة قد قضت على « إخوة الخنساء » ، « واهل بيتها » ، تاركة لها الالم والاسى ، والقلب الجريح المكلوم[1].

وموت « أخي » قس الصميمين (بالدم) الاثنين جلب له الارق والحزن ؛ يبكيها وهو قائم على قبريها . ولو كانت الفـدية ممكنـة لفداهما بجسمه وحياته[2] وفقد أميمة لقومها ، وابي الخراش لاخوته ايقظ عند الشاعرين شعورالالم والنجوى والحزن على الاقرباء ، والتغني بمجدهم الغابر وكرمهم[3] وفي اختلاف عن هذا فان الخليفة علي بن ابي طـالب يحـن ويبكي بكاء مراً على « رفاقه » ، الذين غادروه واغتالهم المـوت ، « فهو يتذكرهم دائماً ناسياً من يحيطون به حتى لو كانوا اهله ، إنهم بالنسبه له ليسوا رفاقاً ، واصدقاء فحسب ، بل « إخوان في الصـداقة » ، ومن الشوق والحنين إليهم يشتهي الموت ليلتقي بهم[4] .

لقد كانت الصفة الاساسية عند شعراء عصر بني أمية ، كما هـو

---

١ ـ هناك ٤٥٠ ؛ ديوان الخنساء ، ص ١٤٢ .

٢ ـ المنـــازل ، ص ٤٥٣ ؛ الأغاني ، حـ XV ، ص ٢٤٧ (دار الكتب) .

٣ ـ ألمنازل ، ص ٤٤٥ .

٤ ـ المنازل ، ص ٤١٨ .

الحال عند شعراء الجاهلية ، بكاء العشيرة ، والعائلة ، والاقـــرباء ؛ والاصدقاء ، مما جعل أشعارهم مملوءة بمشاعر الألم الصادقة ، والعذاب : يبكي الشعراء هنا فقدهم لأقربائهم ، ويتغنون ، ويمجدون ، ويفخـــرون بـ [أمجاد الشهداء ، ويعزون ويواسون نفوسهم] ، بعزاء ديني : [إن الانسان لايستطيـع أن يهرب من القضاء والقدر ، الذي حسب قوانينه يسـير كل الناس للنهاية ـ الموت . لفظة « الأهل » تستعمل عندهم كما عند من سبق وأشرنا اليهم بمعنى : « عشيرة » ، و « قبيلة » و « عائلة ـ أسرة » ، و « أقرباء » ؛ أما لفظة « إخوان » : فبمعنى « الاخـــوة بالدم » ، و « الاصدقاء » ، و « الرفاق » ، و « الرفاق بالمعتقـد الديـني »] . وأصبـح ابن نويرة الذي يبكي أخاً بالدم (مالكاً) رمزاً للبكاء في الرثاء . ويرثي أضرم بن حميد « بني أسد » ، وحارثة الغداني ـ أهله ، وبصورة خاصة عائلته وأسرته ؛ ويندب ابن مياده « بني ذر » ، وبيهس ـ اخوته المقتولين ، وثوبه بن المضرس : إخوته ، وأصدقاء القتال ، والفرزدق : الاقرباء الموتى ـ أعضاء قبيلته ، وأولاده المقتولين ؛ والعتبي وأبو ذؤيـب يبكيان أيضاً أولادهما ، (عند الاخير قد ماتوا دفعة واحدة بالطاعون)[1].

وكذلك فان السموءل ، ونهار بن توسعة وليلى بنـت طريـف يعبرون عن أحزانهم فى قصائد رثاء يرثون بها إخوتهم ، ووضاح اليمني ـ إخوته وإباه ، أما شبيب البرصي ، وأبو سعيد ، وعبدالله العبلي ، فانهم

---

١ ـ المنازل ، ص ٤٤٠ ، ٤٤١ ، ٤٣٥ ، ٤١٥ ، ٤٥٠ ، ٤٢٤ ، ٤٣٧ ، ٤٥١ ، ٤٥٢ ، ٤٦٠ ، ٤٢٠ ، ٤٢١ ، ٤٢٢ .

يرثون قبائلهم والأقرباء المقربين[1] . ويعطي محمد بن خالد - في رثائه عمر بن عبدالعزيز - المعنى العام والمواساة الدينية ، إذ لا يمكن صد المنون ، فالموت قدر محتم على كل مرء حيث سيموت في وقته دون تأخير أو تقديم . أين الملوك ، وعيشهم ، وزمانهم ؟ إنهم ذهبوا ، ونحن على طريقهم ، فمن مفجوع إلى مفجع ..!

إن معظم الشعراء يبكون أقرب المقربين لهم بالدم ، لكن ، علاوة روابط القرابة الدموية ، فان الناس يرتبط بعضهم ببعض بعديد من الروابط الاخرى القوية المتينة ؛ هكذا ، مثلاً ، المعتقدات الدينية - السياسية التي تجمع حولها الرفاق الاصدقاء بالمعتقد ، أصحاب الرأي الواحد . ومثله في هذا أيضاً عمر بن الحسين ، وأبو عباس الآعمى . عند مرداس ، كما عند جميع شعراء الخوارج ، الشعر ممتلىء بالصدق والاخلاص ، ويعتصر بالالم والحزن والاسى ، ويعكس تلك الروابط القوية بين أبناء مذهب الخوارج ، هذه الروابط التي صبغت بالدم ، والثبات والقتال [2] . وشبيهة بهذه الاشعار أيضاً : أشعار ابن الحسين الذي يبكي فيه مقتل (الاباضية)[3]. لكن أبا العباس الاعمى ، على العكس ، يبكي أعداء الخوارج - الخلفاء السابقين ، بعد أن قضي على ملكهم[4] .

---

١ - المنازل ، ص ٤٣٩ ، ٤١٢ ، ٤٧٤ ، ٤٢٩ ، ٤٢٧ ، ٤٣٠ ، ٤٤٢ .

٢ - المنازل ، ص ٤٦٧ ، المبرد ، ض ٥٨٦ .

٣ - المنازل ، ص ٤٥٨ - ٤٥٩ .

٤ - المنازل ، ٤٤٧ ، ٤٤٨ ، الاغاني ، حـ XV ص ٦٠ (بولاق)، حـ XVI ، ص ٢٩٩ (دار الكتب) .

وفي أشعار شعراء العصر العباسي غالباً ما يعثر أيضاً على بكاء الاقرباء والاهل ؛ لكن في هذا العصر ـ إضافة إلى ذلك ـ وبشكل ناصع واضح يعبر عن بكاء الاصدقاء ـ « الاخوة بالصداقة » ، وبكاء أولئك ، الذين قضت عليهم النوائب . ويعثر على الاشارات الدينية في في أشعار أبي العتاهية ؛ إذ يبكي « الاخوة » ، الذين أتى عليهم الموت ، (فالموت لن يبقي على أحد ، إن الناس لا يعبأون به ولا يهتمون ، لكنه بينهم ، وسيقضي على الجميع[1]) .

إن « تراجيديا » البرامكة مشهورة لنا ، إذ بعد مقتلهم ، غدوا مادة بكاء ورثاء عدد من الشعراء . هذه النكبة قد أبكت جاريتهم : (إن التفرق للاحباب بكاء) ، إذ دارت عليهم عوادي الايام حتى أفنتهم ، فظلت تبكيهم طوراً ، وطوراً تندبهم حتى نضبت الدموع في عينيها[2] . ويقوم الشاعر الزبير بن دحمان بتسجيل هذه النكبة بطرف خفي ، ويعدد أمجادهم ، وحكمتهم وإخلاصهم[3] . أما الخليفة المتوكل ووزيره ابن خاقان فانهما بالنسبة للبحتري كقبيلتي الاوس والخزرج عند الرسول . ولقد عكس شعره نكبتهما « كتراجيديا » مؤلمة[4] . إن بعض الشعراء ـ محمد بن صالح والمرتضى وابن خفاجة يبكون أصدقاءهم ـ « إخوان

---

١ ـ المنازل ؛ ص ٤٣٤ ؛ ديوان أبي العتاهية ، ص ٢٨٥ .
٢ ـ المنازل ، ص ٤٣١ .
٣ ـ المنازل ، ص ٤٤٥ ، ٤٧٧ .
٤ ـ المنازل ، ص ٤٥١ ؛ ديوان البحتري ، حـ I ، ص ١٠٥ .

الاخلاص »[1] . وآخرون ، وهم يحنون إلى الاهل والاقرباء، يمدحونهم ، ويعددون مفاخرهم ومآثرهم ؛ ويندب دعبل قبيلته خزاعة ، وابن الرومي القريبين والاهل (أهل وده) » وابن المعتز - الاهـل ، والراضي - ابناء ابيه[2] . ويعثر ايضاً في المقطوعات الاخرى ، المساقة من قبل اسامة في هذا الفصل على بكاء الاقرباء ، والاصدقاء ، والاهل . وندب الاخوة موجود ايضاً في شعر البراء ، والمفضل ، والبريق الهذلي وفارعة المريه[3]. ندب الاصدقاء في شعر الغزاز (ص٤٣١) والاب في مرثيه فاطمة بنـت الاحجم (ص ٤٤٩) ، والاولاد في شعر في شعر ابي الشغب العبسي (ص ٤٦٧) . إن معظم الشعراء يبكون الاصدقاء ، وافراد القبيلة[4] .

من المواد التي قدمناها فيما مضى ، يرى بأن الشعراء بمراثيهـم ، عادة ، إنما يندبون من الاقرباء الذين اصابتهم المصائب ، والاصدقـاء ، والقبيلة والعشيرة ؛ لكن يعثر على بعض الحالات حيث لا يندب الشاعـر قومه وعشيرته وقبيلته ، بل على العكس يدعو عليهم ، ويطلب لهم الشر . وكمثال على هذا يمكن ان نسوق اشعار عصيمة الثيمي ، الذي يبكي بني غباب ، عندما المت بهم المصيبة ، ويدعو لقبيلته بهذه المصيبة ذلك لانهـا

---

١ - المنازل ، ص ٤٥٦ ، ٤٧٦ ، ٤٣١ .

٢ - المنازل ، ص ٤٤٤ ، ٤٤٣ ، ٤١٢ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧ ، ٤٣٨ ، ٤١٧ ، ٤٧٢ .

٣ - المنازل ، ٤١٣ ، ٤١٤ ، ٤٢٨ ، ٤٤٨ ، ٤٤٩ ، ٤٧٥ .

٤ - المنازل ، ص ٤١١ ، ٤٢٦ ، ٤٦١ ، ٤٧٤ ، ٤٧١ .

لم تكن مخلصة عادلة معه(١) .

إن أشعار الشعراء الآخرين [غير المعروفة أسماؤهم] بمحتواها ومضمونها إنما تشبه المقطوعات التي حللناها فيما سبق . فالأموات عندهم هم « أبناء الأرض » ، ومن بقي حياً لاحق بهم ، وبعد حلاوة الحياة من معاشرة الأحباب لم يبق إلا ذكرياتهم . لقد ذهب سرور الشاعر بعد صحبه كأنما طار به نسر فأرق وتعذب ، وأصبح يعفو عن ذنوب كثيرة ، ويتحمل زلات الاصدقاء . ويتحول إلى الناس في الارض وإليها مرجعهم ومآلهم . أما « أهل القبور » - الموتى ، فلا يسمعون دعوة ، ولا يرجعون جواباً ، ولا يطلبون حاجة . لقد سكنوا ظهر الارض ثم بموتهم باطنها . إنها الأمم تتعاقب على ظهر الارض . وبموت الاصحاب تقوض صبر وتجلد الصاحب ، فلم يستطيع حيلة لدفع الموت ، أما حيلته الوحيدة فهي البكاء ، إذ ان البكاء سلاح كل مصاب ، ويدعون على أنفسهم بالموت الذي أخطأهم وأصاب من يرثونهم (٢) .

لا بد من تركيز الانتباه إلى أنه في شعر الشعراء المجهولين ، والشعراء الذين لم نتمكن من نسبتهم إلى عصر معين ، ولأول مرة ، في الفصل عن « الدار » يعثر على تذكير « بالجيران » .

---

١ - المنازل ، ص ٤٣١ .

٢ - المنازل ، ص ٤٢٠ ، ٤٢٦ ، ٤٣٢ ، ٣٣٤ ، ٤٤٦ ، ٤٦٣ ، ٤٦٩ .

ـ رأيتُ دنوَّ الدارِ ليس بنافعٍ   إذا لم يكن بين القلوب قريبُ

ـ وأنزلني طُولُ النّوى دار غربةٍ
إذا شئتُ لاقيتُ امرءاً لا أشاكِلُهْ

أحامقه حتى يقالَ سجيَّةٌ   ولو كان ذا عقلٍ لكنتُ أعاقله

وقال آخر :

ـ سقى الله داراً وأرضاً تركتُها   إلى جنبِ داريَّ مَعْقِل وتيار

أبو مالكٍ جارٌ لها وابنُ بُرْثن   فيالكَ (جارَيْ) ذِلَّةٍ وصَغارِ

وقال آخر :

ـ إن [جار] السَّوْءِ حِمْلٌ فادِحٌ   فاستعِذْ بالله مِن [سوء الجوار]

ما لجارِ السَّوْءِ عندي حيلة   في جميع الأرض إلا بيع داري (١)

وبرأينا ، فان هذه الظاهرة ظاهرة متأخرة ، ذلك لان الشاعر الجاهلي ـ البدوي ، يعيش في جوار مع أبناء قبيلته وأقربائه ، ومع أفراد عشيرته ، ولذا فانه قليلاً ما يتكلم عن « الجيرة » . لكن ، بعد استقرار القبائل العربية في البلاد المفتوحة ، حتى وبدءاً من المهاجرين إلى المدينة ،

---

١ ـ المنازل ، (طبعة المكتب الاسلامي) ، حـ . II ، ص ١٥٤ ، ١٧٦ .

ووجودهم فيها ، فان « الجار » قد امتلك مكاناً خاصاً في حياة العربي ، والرسول العربي ذاته قد أعطى النصيحة بضرورة بشكل جيد مع الجار .

لقد اصبح الناس يهتمون بالجيرة الحسنة ، وهذا ما انعكس في الشعر العربي ، إذ يدعو الكثيرون من الشعراء إلى حسن اختيار الجار الحسن . والجار السيء يكون سبب بيع « الدار » ، والانتقال إلى جار أفضل[1] .

واصبح الحنين إلى الاشخاص ، فيما بعد ، الموضوع العادي للرسائل الاخوانية[2] . وخلافاً لما قلناه سابقاً يعثر على أشعار لشعراء يقفون ضد « الجيرة » ويرون الخير في الزياره فقط ، لا في التعامل مع الجار باستمرار :

لا تطلُبَنَّ دُنُوَّدا ... رٍ من خليلٍ أومُعاشِر

أبقى لأسبابِ المودَّ ... ةِ أنْ تزورَ ولا تُجاوِرْ

وقال أحمد بن اسماعيل بن الخصيب : شكا إلى ميمون بن هارون بعد داره إذا أراد زيارتي ، فقلت : من هذا المنزل أقصدك إذا زرتك ، ثم كتبت إليه :

---

١ ـ هناك أيضاً ، ص ١٧٦ .

٢ ـ انظر ميتز ، ص ٢٠٧ .

لا تجلسنَّ بُعْدَ داري مُخسِّساً لنصيبي
فرُبَّ شخصٍ بعيدٍ إلى الفؤاد قريبِ
وربَّ شخصٍ قريب إليه غير حبيبِ
ما البُعدُ والقربُ إلاَّ ماكان بين القلوبِ (١)

وبغض النظر عن بكاء أسامة أهله في الكثير من أشعار ديوانه ، فانه في هذا الفصل من كتاب « المنازل والديار » ، قد قدم مقطوعة واحده ، تشرح ـ على حد قوله ـ حالاً صحيحة ، لا على مذاهب الشعراء ، وذلك لانه مر به قول الرسول : [من زار قبر أبويه ، أو أحدهما في كل جمعة غفر له ، وكتب براً] ، فأسفه ما حرمه من زيارتها ، لشتات شملهم أحياءً وأمواتاً فقال :

نافستْني صروف دهري في الفوز زبير الآباء في الرَّجَمِ
لو كنتُ أسطيعُ أن أزورّها مشياً على الرأس لاالقدَمَ
بادرتُ أمشي إلى ثرى جدَتي أعزِّ أهلي عليَّ كالقلم
لكن بمصر قبرٌ وفي شيزرٍ قبرٌ وداري بمنْتأى العَجَمِ
والظلمُ في الأرض ما يفي كلّ ما أبغيه حتى زيارة الرّمَمِ
وماظننتْ الذي لقيتُ من الدْ دنيا تراه عيناي في الحُلُمِ (٢)

---

١ ـ المنازل ، ص ، ٢٧٩ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ـ ٢٩٨ ، ٢٠٩ ـ ٣١٩ ، ٣٢٩ ـ ٣٣٧ ، ٣٤٤ ، ٣٤٧ ـ ٣٥٣ .
٢ ـ المنازل ، ص ، ٤١٩ .

في ختام دراستنا وتحليلنا يمكن القول أن كل المقطوعات المساقة في هذا الفصل « فصل الاهل والاخوان » هي مقطوعات في رثاء أخ ، أو صديق ، أو أهل ، أو عشيرة ، فيها الحسرة على المفقود ، وبكاء مرير ، وتجلد وصبر طالما أن الموت قدر كل انسان ، ونهايته ، وضعف في الصبر أحياناً ، إذ المصاب كبير خطير ؛ ووصف للمرثي بالكرم والشجاعة والمقدرة . الدهر لا يخطىء ، والناس من تراب وإلى تراب يعودون ، مع دعاء بالسقيا للقبور ، وتوجع وتفجع .

ولا يلاحظ اختلاف بارز بين الشعراء ، وعلى امتداد العصور ، في تناولهم هذا الموضوع « بكاء الاهل والأخوان » .

وربما كان التشابه بين الشعراء في هذا نتيجة لوحدة التعبير عن الآلام ، والحزن على الموتى والشهداء ، عند جميع الشعوب ، وفي مختلف العصور .





الفصل الثالث

الحنين الى الوطن والمواطنين



لقد كانت التجمعات الاسلامية الناشئة في المواطن الجديدة نتيجة من نتائج هجرة العرب من جزيرتهم ، ودخول مواطني هذه البلاد الاصليين في الاسلام . ولهذا فان تطور الادب العربي في هذه المناطق مرتبط بانتقال العرب إليها ، وبانتشار لغتهم هناك .

والجزيرة العربية ـ مهد العرب الاول وموطنهم ـ ليست فقط صحراء كما تصور ذلك الاشعار الاسلاميه ، عندما تتحدث عن وطن العرب الاول ؛ الامطار في الشمال غير منتظمة ، لكنها أحياناً كثيرة ، وكانت غزيرة ، بسيول عارمة غالباً ما هددت مكة والمدينة (1) لكنها كانت سبباً في توليد حياة زراعية ضعيفة ، حيث إن القسم الاكبر من الارض إنما كان واحات صالحة لرعي الماشية فقط . أما في الجنوب ، في عسير واليمن ، فان المناخ المطر ، على العكس ، كان سبباً في نشوء حياة زراعية راقية منتظمة .

كل هذا كان سبباً في نشوء نوعين من طراز الحياة عند العرب ـ « اما حياة استقرار ، وإما حياة تنقل وترحال » ، إلى جانب التجارة الناشئة بسبب موقع الجزيرة من العالم القديم المتحضر .

ولم تكن القبائل قبل الاسلام دائماً منعزلة بعضها عن بعض ، ولا متعادية على الدوام ، ذلك لان الحركة الدائمة في انتقال القبائل ، كانت

---

1 ـ البلاذري ، فتوح ، ص ٥٣ ـ ٥٥ . « سيول مكة » ، (طبعة بريل) .

سبباً في تقاربها بالجوار والمواسم والاحلاف . ويعثر على حوادث انتقال الفرد – في التبعية – من قبيلة إلى أخرى[1] ، ومشهور أيضاً الانتقال الجماعي للعرب من الجنوب بعد دمار سد مأرب ؛ « فصار كل فخذ منهم إلى بلد ، فمنهم من خرج إلى العراق ، ومنهم من سار إلى الشام »[2] .

في الماضي القديم ، حيث كان لليمنيين دولتهم الخاصة ، وأدبهم ، وكتاباتهم الخاصة ، عاش العدنانيون ، في الشمال على شكل قبائل متفرعة ، لا تربطها وحدة عامة تؤلف بينها ، وتكوّن منها شعباً متحداً منظماً تقوم به دولة عربية كدولتي الفرس والروم اللتين عاصرتا العرب في ذلك الوقت . لقد عاشت كل قبيلة مستقلة إلى حد ما ، فانحصر الفرد في القبيلة وكانت بالنسبة له كالدولة بالنسبة للانسان الحديث . ولذلك فتبعية العرب الشماليين حملت الطابع القبلي ، لا الوطني الشامل .

وسمى علماء الاجناس والانساب أصل القبائل العربية –[الاصول الكبرى في انساب العرب] – ، كعدنان وقحطان – شعوباً [3] ، وأجذاماً [4] . أما فيما بعد ، في الاعمال العلمية ، فاننا نعثر على الترتيب

---

١ – المسعودي ، التنبيه ، ص ٢٠٧ ، يحدثنا عن حاتم الطائي ، كيف ترك قبيلته ، والتحق ببني فزارة ، ومدحهم .

٢ – الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص ٢٠٦ – ٢١٠ .

٣ – العقد الفريد ، ج . III ، ص ٣٣٣ (١٩٤٠) ؛ النمري ، الانباه ، ص ٤٥ ؛ نشوان ، منتخبات ، ص ٥٥ .

٤ – النويري ، ج . II ، ص ٢٣٥ ؛ ابن حزم ، جمهرة ، ص ٦ .

التالي لطبقات النسب ، [شعب ، قبيلة ، عمارة ، بطن ، فخذ ، عشيرة، فصيلة][1] . وإضافة إلى رابطة الدم المباشرة غدت المصالح ، والرغبات المتبادلة المشتركة ضرورية جداً لحفظ القبيلة ، وتأمين ظروف البقاء ، واستمرارها . ولذا فقد غدا في تعداد القبيلة ، إلى جانب العرب الاصلاء ، الموالي أيضاً ، إذ لم تعد رابطة الدم وحدها كافية[2] .

وغالباً ما تصادف الألفاظ التي تدل على « التجمعات القبيلة » في أشعار الشعراء الجاهليين والاسلاميين لكن الشعراء ، باستعمالهم هـذه الألفاظ ، لم يقصدوا التحديدات الدقيقة التي أكدها علماء النسب[3].

---

١ ـ العقد الفريد ، حـ . III ، ص ٣٣٥ (١٩٤٠) .

٢ ـ انظر : R.S Mith ; P . H_6 . وقف الباحث روبرتسن سميث طويلاً عند رابطة الدم هذه ، ويرى أن الجماعة القائمة على وحدة الدم هي أكثر قدماً في المجتمع السامي ، وأن إطلاق (الحي)على الجماعة التي هي من دم واحد يعلل بالمبدأ السامي القائل بأن حياة الجسد ثاوية في الدم .

٣ ـ النقائض ، حـ . II ، ص ٦١٢ . الفرزدق مثلاً وهو يتكلم عن قبيلته (بني تميم) يدعوهم (عمارة) : (وإني وإن كانت تميم عمارتي) في نفس الوقت في مكان آخر من هذه النقائض ، (حـ. II ، ص ٩١٧) ، وهو يتكلم عن (بني سعد) وهم فرع من بني تميم يسميهم قبائل : لعلمت أن قبائلاً وقبائلاً من آل سعـد لم تدن لأمير .

ومن الشعر العربي يرى بأن لفظتي « قبيلة » و « حيّ » قــد استعملتا أكثر من غيرهما ، وكانتا تدلان على مطلق أبناء القوم ، قلوا أو كثروا، وعني بهما عامة « مجموعة من الناس » تحتوي على أقرباء الدم من الجنسين ، ومن مختلف الأعمار ، وكذلك الأبناء بالتبني ، بغض النظر عن كون عددهم كبيراً أو صغيراً [1] .

وانطلاقاً من التوزع الجغرافي للقبائل العربية يلاحظ أنه كان عند كل قبلة مكان محدد من الأرض ، حيث تعيش [2] وفي حالات انتقال القبيلة ، فانها كانت تتحرك في مجال هذا المكان ، أو تتركه عامة إلى مكان آخر ، حيث يصبح هذا بالنسبة لها موطناً جديداً . وعلى أساس هذه الحقيقة الحياتية يمكن القول بأن الوطن بالنسبة للقبيلة ولشاعرها ماهو إلا ذلك المكان المحدد ، الذي توجد فيه القبيلة في هذه اللحظة التاريخية المعينة .

أهل المواطن ، حسب التحديد القبلي ، هم أقرباؤه على الأغلب : والموالي ، والتابعون للقبيلة ، ونتيجة لهذا كانت القبيلة العربية وكأنها صورة مصغرة للدولة العامة ، وشاعرها ـ « صحيفة القبيلة » الرسمية ، التي تظهر برابطة الدم والمصالح المشتركة ، وتضم أفراد القبيلة في إطار واحد، فيشعر كل فرد في القبيلة أنه مسؤول عن جماعته ، كما أن القبيلة كلها تشعر أنها مسؤولة عن كل فرد ينتمي إليها .

وتذكرنا العصبية في المجتمعات القبلية بالاتجاهات القومية الغالية

---

١ ـ النص ، إ . ، العصبية ص ٦١ .

٢ ـ أمين ، إ . ، فجر الاسلام ، ص ٨ .

المتعصبة في النظام السياسي الحديث [1] ،فكما أن القومية المتطرفة تتعصب لجنسها وتعتقد بتفوقها على سائر القوميات ، فكذلك العصبية القبلية تقوم على هذه العقيده الشوفينية . والعصبية القبلية تنافي الشعور القومي ، لأن من شأنها تجزئة الجنس الواحد (الأمة الواحدة).لكنها رغم كل هـذا كانت متنفساً للعربي في الولاء ، كما يرتبط الانسان المعاصر بفكرة الوطن أو القومية أو المذهب السياسي .

إلى جانب هذا النظام القبلي في الجزيرة العربية قبل الاسلام كان أيضاً نظام اجتماعي آخر ، متمركز في الامارات ، والممالك العربية ، التي أقامها المناذره والغساسنة والكنديون ثم قريش في مكة .في هذه الامارات، بصورة خاصة واضحة ، يظهر المفهوم الاوضح عن [الشعب ، والاقليم ، والسيادة ، والوطن] ، ذلك المفهوم الخارج عن نطاق التصورات القبلية .

وبمجيء الرسول حدثت الهزه العنيفة في هذا التركيب الاجتماعي ، والتوضع الاقتصادي في حياة العرب . فالنظام الذي ظهر بظور الاســلام وبعده ، أنكر ، نصاً وروحاً ، العلاقات والمفاهيم القبلية القديمة ، ووضع البداية ، على أقل تقدير في الأفـكار ، للعلاقات الأخوية بين القبائل . إذ إن أقوال الرسول وأحاديثه وأفـكاره نفت كلها العصبية ، وهـذا ما جر إلى بداية التقارب بين القبائل ، هذا التقارب والالقاء المرتكزين على العقيدة، والدعوة ، ووحدة الله ، ووحدة الطقوس الدينية ، والمساواة والتقوى . لقد قام كل هذا مقام الدم ، والتنافر ، والنسب ، والتشتت والافتراق .

---

١ ـ حتي ، ف . ، تاريـخ العرب . ص ، ٥٣ .

وأخذ الاعتبار القبلي يبدأ بالاضمحلال ليحل محـــله الاعتبار العربي ثم الانساني ، إذ «لا فضل لعربي على أعجمـي إلا بالتقوى ، والناس جميعاً كأسنان المشط ، لا امتياز لقبيلة أو جنس» . حتى إن الرسول نفسه قد ترك قبيلته قريش ، وهاجر إلى الاوس والخزرج وبدأ القتال ضد أقربائه ، ثم إنه بدأ بالمؤاخاة بين المهاجرين والانصار . لكن هذا كله لم يقو على سحق العصبية القبلية ، وهذا ما تؤيده الاشعار المكتوبة إلى الرسول من قبل وفود القبائل المختلفة [إذ لم تدخل الاسلام بعـد] ، إن هـــذه الاشعار ـ أشعار الوفود ـ مثال للشعر القبلي الجاهلي .

لكن ما أن توفي الرسول الكريم حتى اتخذ هذا التناحر طـابعاً آخر : مهاجرين وأنصار ، بني هاشم وبني سفيان .. الخ . إلا أن هذا لم يمنع من توسيـع الاطار ، والمساهمة في الاختلاط بين هـــذه القبائل العربية ، فكان لحروب الردة الاثر الاكبر في هذا الاختلاط ، وفي تقسيم المجتمع ، بشكل جديد . إذ انقسم كل العرب المسلمين بعلاقتهم مع الديانة إلى شطرين كبيرين : [المؤمنـــين والمرتدين] ، في نفس الوقت الذي حوى فيه كل شطر قبائل متنوعة . هذا ما خدم العلاقة الاقـوى بين تجمعات القبائل العربية ، وأدى إلى ظهور نظام جديد في العلاقات الاجتماعية. لكن هذا لم ينف تماماً روح العصبية القبلية ، التي حملتها أيضاً هـــذه الحروب ـ حرب الردة .

هذا الحطيئة يقول :

أطعنا رسول الله ما كان بيننا فيا لعباد الله ما لأبي بكر
أيورثها بكر ، إذا مات، بعده وتلك لعمر الله قاصمة الظهر

الجيوش التي تشكلت بعد وفاة الرسول وجهت من الخلافة الاسلامية إلى اليمن ، والبحرين ، وعمان ونجد ، وظفرت وانتصرت . وإذ بالجنود لا يعودون جميعاً إلى قبائلهم ، كثير منهم بقي بعد الفتح الاسلامي في البلاد المفتوحة ،ومن جديد بدؤوا بتفاعلهم مع هذه المجتمعات الجديدة التي أنشؤوها [1] . وفي هذا المجتمع الجديد حدثت حوادث المزج بين جيوش الخلافة والعرب القدماء ، الذين كانوا مقيمين في هذه البلاد المفتوحة قبل مجيء هذه الجيوش .

نتيجة لهذه الحياة المشتركة (الموحدة) كانت حوادث زواج متنوعة بين مختلف القبائل [2] ،هذا التزاوج الذي قاد إلى تكوين وتشكيل جيل جديد ، ذلك الجيل الذي أثر بشكل فعال على تكوين ذلك المجتمع الجديد .

في مرحلة الدعوة الاسلامية وفي مجرى الفتوحات الاسلامية ، استمر – أيضاً – هذا التمازج بين القبائل العربية . وبغض النظر عن كون التاريخ لم يحفظ لنا معلومات دقيقة محددة ،بغض النظر عن هذه

---

١ – الطبري ، المجموعة الاولى ، ح . IV ، ص ، ١٩٧٤ وما بعد :
[فرجع إلا من أحب المقام] .

٢ – الطبري ، المجموعة الاولى I ، ح . V ، ص ٢٣٦٣ – ٢٣٦٤.

الحقيقة ، فان كل المصادر في حوزتنا تسمح لنا ان نقرر بان الخلافـة لم تعتمد على قبيلة معينة في هذه الفتوح ، والخليفة لم يأمر قبيلة بذاتها ويلزمها على الجهاد ،أي لم يتخذ الانتداب شكلاً قبلياً ، بل اعتمد على التطـــوع الاختياري من القبائل جميعها ، إذ يبعث الخليفة إلى القبائـــل والمدن يستنصرها ويرغبها في الجهاد فتتوافد عليه الجموع ، ويصرفهـا في الوجهة التي يراها[1] .

هذا الجمع بين القبائل (التوحيد) ساعد على امتزاج قبائل مختلفة وتشكيلها مجتمعة قوة عسكرية (واحدة) ، ذلك لأن ظروف الحرب تطلبت تعاونا مشتركاً من قبل جميـع المحاربين ، وترك العصبية القبلية ، والعداء القبلي والسمو بالروح الفالحة من نطاق القبيلة إلى التجمع من مختلف القبائل [2] . لقد أثرت هذه الظروف كلها على تشـكل تجمع جديد [قوم] ، وقادت إلى حياة الاستقرار ، وتأكيد العيش في مناطق محددة ، كما أدت أيضاً الى تدعيم نموذج الحياة في المدن .

ولم تكن غلبة قبيلة على أخرى في جيش خالد بن الوليد ، الذي فتح العراق ، بل على العكس ، فقد تميز هذا الجيش بوحدة القبائل ، وتألف من صفوة المسلمين المقاتلين . ثم ظهرت التجمعات المدنيـة [في المدن] ، القريبة بعضها من بعض ، مما أثر بشـكل أقوى في تدعـــيم العلاقات بينها . إضافة إلى هذا فقد وحد هذه التجمعات من مختلـــف

---

١ ـ الطبري ، المجموعة الاولى I ، حـ . V ، ص ٢٧١٤ .

٢ ـ الطبري ، المجموعة الاولى I ، حـ . V ، ص ١٣٦٣ .

القبائل ؛ المسجد الواحد ، وممارسة الطقوس والفروض الدينية الواحدة . شعر كل الناس بأنهم أعضاء مجتمع واحد ، وأبناء هذه البلدة في وقت واحد . ونتيجة لمثل هذه التوحيد بين القبائل ظهرت مصطلحات ، مثلاً : أهل البصرة ، أهل الكوفه ، أهل العراق .. الخ ..

من الضروري أن نؤكد الحقيقة التالية : وهي أنه بعد كل هذه الحوادث والتغيرات توسعت المصادمات والاتصالات والتمازج مع الشعوب الاخرى ، وبصورة خاصة مع الفرس ، ذلك لأنه بعد انتصار جيوش الخلافة فان معظم البيزنطيين تركوا الاقطار التي فتحها العرب ، لكن الفرس ، بصورة أساسية ، بقوا ، ولم يترك هذه الديار المفتوحة منهم إلا الاغنياء ، والطبقة الحاكمة ...

بعد مقتل عثمان وقع الخلاف بين أهل الشام وأهل العراق ، بين الهاشميين ، والأمويين ، وظهر التشيع السياسي : أنصار علي ، أنصار الأمويين ، الخوارج ... الخ ... هذا التشيع قاد إلى ظهور الاحزاب السياسية فيما بعد ، مما أدى إلى إضعاف الشعور القبلي ، وإلى تقوية التبعية للأحزاب الناشئة والالتزام بها ، لكن رغم هذا فقد كانت العودة إلى الجاهلية في العلاقة قد ظهرت وبقوة في عهد بني أمية، فلم تعد العصبية للبطن أو للرهط بل غدت للشعب ، أو الجذم ـ للعدنانية أو القحطانية ، مما أدى بدوره إلى توسع رقعة الارتباط ـ ارتباط الانسان بغيره ، وساعد على ظهور المشاعر القومية بمفهومها الأولي البسيط ، تلك المشاعر التي كانت تطغى على المشاعر القبلية بصورة قوية حية ـ خاصة عند اصطدام العرب بالعناصر الأعجمية الأخرى .

لقد بلغ الصراع بين العرب والشعوب الأخرى درجة كبيرة من الحدة عندما نهضت الدعوة العباسية ضد الأمويين للاستيلاء على السلطة . وكان [الشعور القومي] يقوى عندما يظهر خطر هجوم شعوب أخرى على العرب، مستلمي السلطة ، او على السلطة العربية.

من المثير أن نلاحظ أنه عند بعض الشعراء العرب تظهر علامات التنبه واليقظة ضد خطر الصراع الداخلي ، ودعوة العرب جميعاً للوحدة ضد العدو . هذا مثلاً ، ما قاله القائد العسكري نصر بن سيار ، عندما توجه إلى القبائل المتقاتلة فيما بينها :

أبلغ ربيعة في مروٍ وأخوتهم فليغضبوا قبل أن لا ينفع الغضب

وا ينصبوا الحرب إن القوم قد نصبوا

حرباً يحرّق في حافاتها الحُطَبُ

مابالكم تلحقون الحرب بينكم كأن أهل الحجا عن رأيكم عزب

وتتركون عدواً قد أظلكم مما تأشّب لادين ولاحسب

فمن يك سائلاً عن أهل دينهم فان دينهم أن يُقتل العرب

لقد قام حكم بني العباس على أنقاض التناحرات العصبية ، وعلى أكتاف الفرس ، وزاد ظهور العنصر الاجنبي في الحكم بعد أن كان شبه عربي خالص.واتصف العصر العباسي بتمازج وتبادل الثقافات - ثقافات الشعوب المختلفة . وطبعت الخلافة بطابع إسلامي بدرجة واضحة ، أكثر

من الصفة العربية . وتوسعت حدود الخلافة ، وغدا الناس ينتقلون بكل حرية من طرف إلى آخر ضمن هذه الدولة ،

كل هذا قد ترك أثراً على معتقدات ، وتطلعات الناس ، وحياتهم الاجتماعية ، أو على فهم الوطن ، والوطنية ، والمواطنة ، كوحدة جامعة اجتماعية ، وهذ أوجد انعكاساً وصدى في الشعر العربي .

إن ارتباط الانسان مع الأرض يمكن رصده من ارتباط مادي عضوي ، كارتباط النبات بها ، إلى ارتباط معنوي ، حين اتصل بقضايا الحرية : « لا وطن بلا حرية ولا حرية بلا وطن » . وأحياناً يصبح شعور الوطن بشكل مباشر متعلقاً بمفهوم الفقر والغنى ؛ « الفقر في الوطن غربة ، والغنى في الغربة يزيل شعور الاغتراب عن الأرض » . لكن ، بغض النظر عن هذا ، فان الأرض التي ولد عليها الانسان وفيها نشأ وترعرع ، تشده إليها دوماً ، مهما تطورت مفاهيمه عن الوطن ، ومهما حاول الاغتراب والتنقل والارتحال .

إن جذور هذا الاغتراب قديمة في الشعر العربي ، إذ إن العربي قد حمل ضروباً من الاحساس بالغربة في هذه الصحراء المترامية ، وربما كانت اسطورة الحارث الجرهي - التي يذكرها وهب بن منبه في كتاب التيجان ، وتصور زوال الجراهمة ، وبقاء ، الحارث وحده في التيه والغربة - في الواقع رمزاً لحياة العربي التي تضرب في المتاهات بلا انقطاع ، ورحيله الذي لا يهدأ وراء المطر والكلأ . ولذلك كانت مطالع القصائد

---

١ - العقد الفريد ، ج . ١٧ ، ص ٤٧٨ ، القاهرة ، ١٩٤٠ .

الجاهلية في كثير من الأحيان حديثاً عن الأطلال – بقايا وطنه المهجور، وإحساساً بالغربة بعد الأنس ، وحنيناً طويلاً إلى ديار أحبابه الراحلين ، الذين هم بالنسبة له كأبناء ، الوطن بالنسبة للمعاصر .

إن الشاعر الجاهلي « مواطن » قبلي يسخر كل شيء في سبيل قبيلته والدفاع عنها ، ويتجلى هذا في المعلقات وبخاصة معلقتي عمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة ، فكلتاهما سجل للقبيلة ، ومرآة لمآثرها ، وهذا عبيد بن الأبرص يقول في معلقته :

أقفر من أهله محلوب فالقُطبيّاتُ فالذَّنوب
وبُدّلت منهم وحوشاً وغَيَّرت حالها الخطوب
فكل ذي نعمة مخلوس وكل ذي أمل مكذوب

لا شك أن الاقفار والجدب هنا صورة لانعكاس المنظر على نفسية الشاعر الذي أحس بتبدل المكان ، وامتلائه بالوحوش . فهو ينقل الطرف، مستوحشاً ، بين محلوب فالقطبيات ، فلا يجد إلا الامل الضائع . وتتكرر نفس الصورة فيما حللناه من مطالع ومقدمات طللية : فعند لبيد قد عفت الديار ، وبذلك تقطعت الاسباب بينه وبين نوار ، وانطفت الحياة في هذه الارجاء :

عَفَتِ الديار مَحلُّها فمقامُها بِمِنًى تأبَّدَ غَوْلُها فَرِجامُها
فمدافِعُ الريّان عُرِّيَ رسمُها خَلَقاً كما ضَمِنَ الوُحيَّ سِلامُها

بلْ ماتَذَكَّرُ من نَوارَ وقدنأتْ وتقطّعتْ أسبابُها ورمامُها (١)

وفي معلقة النابغة أقوت الدار ، وما بالربع من أحد ، وأضحت خلاء بعد الانس ، والحركة ، والحياة ، لا رجعة لكل هذه الاحلام ، لانها جزء من الماضي ، الذي ابتلعه العدم :

يا دار ميّةَ بالعلياءِ فالسَّنَدِ أقوتْ ،وطال عليها سالفُ الأبدِ

وقفتُ فيها أصيلاً أسائلُها أعيتْ جواباً،وما بالربعِ من أحدِ

أضحتْ قِفاراً ، وأضحى أهلُها احتملُوا

أخنى عليها الذي أخنى على لُبَدِ (٢)

ويعبر ذو الرمة ـ الشاعر الاموي ـ في شعره تعبيراً أشد وأقوى عن هذه الوحشه :

---

١ ـ الزوزني ، شرح المعلقات . ص ٢٠٤ . [منى : موضع ؛ تأبد : توحش ؛ الغول والرجام : جبلان ؛ المدافع : أماكن ينـدفع عنها الماء ؛ الريان : جبـل معروف ؛ الوحي : الكتابة ؛ السلام : الحجارة ؛ الرمام : جمع الرمه وهي قطعة من الحبل خلقة ضعيفة] .

٢ ـ المنازل ، ص ٣١٥ ؛ ديوان النابغة ، ص ، ٣٣ [القاهرة] .

عشية مالي حيلة غير أنني بلقط الحصى والخط في الدار مولعُ
أخطُ وأمحو الخط، ثم أعيده بكفّي، والغربانُ في الدار وُقّعُ

فقد صور نفسه وحيداً في العراء إلى جوار بقايا الاطلال ، تعبث يده بالحصى كأنما هي قطع من الذكريات يلامسها ، فيثيره الحنين ، ولكن إيحاءً قوياً بالكآبة والغربة يأتي من توقيع الغربان ، وهي تنعق في رتابة مذكرة الشاعر بأنه أمام بقايا دارسة لا حياة فيها . فالاغتراب هنا كامن في فقدان الاحباب والاهل وفي دمار الوطن ، أو أنه معادل موضوعي للعقم والجدب والعدم ، وهذه حقيقة كبيرة في بيئة الشاعر القاحلة التي لا تعرف الخصب والعطاء . ومحاولة التخلص الوحيد لديه هي : الرحيل على ناقته ، وكأنه يقابل الغربة باغتراب آخر كما علمته الصحراء[1] .

وربما كان امرؤ القيس ، وعنترة أكثر شعراء المعلقات شوقاً وحنيناً وإحساساً بالغربة . فقد هام امرؤ القيس شريداً يبحث عمن يستعين به في استرداد ملك أبيه ، وللأخذ بثأره حتى وصل بلاد الروم ، وهناك أحس بقرب منيته بعد أن امتلأ جسمه بالقروح . [لقد سبق امرؤ القيس ، إلى أشياء ابتدعها ، واستحسنها العرب . واتبعه عليها الشعراء كاستيقاف صحبه في الديار[2]] .

---

١ ـ المنازل ، ص ، ١٦١ ـ ١٦٢ ؛ ديوان ذي الرمة ، ص ، ٤٣١ .

٢ ـ ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، ص ، ٥٢ (بريل ١٩٠٤) . مع اختلاف في تحديد أول من وقف على الديار ، وبكاها .

وهو في أنقرة رأى قبراً لامرأة من بنـات ملوك الروم هلكت هناك ، فقال وهو يشعر بقرب موته :

أجارتنا إنّ المزار قريبُ وإني مقيم ما أقام عسيب
أجارتنا إنّا غريبان ههنا وكل غريب للغريب نسيب (١)

أما الشاعر الثاني ـ عنترة فهو غريب بين أهله ، إنه عبد أسود ، فاغترأبه نفسي ، حين تنكر له أبوه وعمه ، وقاسى الأمرين من لونـه وعبوديته ، ابه عبد وعبوديته وقفت حائلاً في وجه حبه . إننا عندمـا نسمعه يقول :

العبد عبدكم والمـال مالـكم فهل عذابك عني اليوم مصروف (٢)

ندرك إحساسه بالهوان والضياع ، وكذا الأمر عنـدما يهتف « أنا الهجـين عنترة ... » إن هـذا لون من اغتراب الفرد في البيئة التي يعيش فيها .

أما الأعشى فرغم تطوافه الطويل في البلاد ، واختلاطه إلى الملوك لم يكن لينسى قومه ، ولا يخفي إشتياقه إليهم :

« إنني منهم وإنهم قـو مي وإني إليهم مشتاق (٣)

---

١ ـ ابن قتيبة ، الشعر والشعراء . ص ٤٠ ، ٤٧ ، (بريل،١٩٠٤) .
٢ ـ الاغاني ، حـ . VIII .
٣ ـ ديوان الأعشى ، ص ٢١٣ (طبعة لندن ، ص ١٤٣) .

الغربة والوحشة والحنين كانوا على أشدهم عند ذي الاصبع العدواني الذي فنيت قبيلته بتخاصمها مع بعضها ، فكان فناؤها مصدر ألم وحنين وتغن بماضيها وقوتها وشجاعتها وملكها ، ولقد شاركته في بكاء هذه الفاجعة ابنته أمامة الشاعرة ، التي تحسرت على هؤلاء الفتيان من قومها الذين هلكوا لجهالتهم وطيشهم ، فتساقوا كأسهم بينهم ظلماً ، وتبكي معهم أوطانهم – أوطانها ، التي غدت بعد إبادتهم رسماً مقفراً داثراً[1] .

ولقد ظهر في الشعر التعبير عن محاولة هجر الأرض [أرض الوطن] إلى مكان آخر من أجل البحث عن مصادر الرزق والحياة :

دعيني للغنى أسعى فإنّي رأيتُ الناس شرهم الفقير[2]

وملك هذا البيت الشعري بألفاظه قوة عجيبة حتى إن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب منع معلم ولده من أن يروي لهم القصيدة التي منها هذا البيت ، لأنها تدعوهم إلى الاغتراب عن أوطانهم[3] .

وكانت هذه الدعوة بارزة عند الشعراء الصعاليك قبل الاسلام ، رغم أن هؤلاء الشعراء قد قاسوا الويلات في حياتهم في الغربة . إن كل الذين عاشوا بعيدين عن وطنهم ، عن مساقط رؤوسهم حسبوا وقتها هالكين ، فقراء ، مخلوعين ، خارج نطاق قبائلهم ، هائمين في مختلف

---

١ – الاغاني ، حـ . III ، ص ٨٩ – ١٠٨ (دار الكتب) .
٢ – الأغاني ، حـ . III ، ٧٣ – ٨٨ (دار الكتب) . شعر عروة ابن الورد .
٣ – الأغاني ، حـ . III ص ٧٣ – ٨٨ (دار الكتب) .

أصقاع الأرض . ولهـــذا يحس بتلك المرارة التي تفيض فيها مشاعرهم وأشعارهم . وهم يهيمون على وجوههم في الفلوات ، أحراراً ، فيما يبدو ، لكنهم في الواقع مشردون غرباء . لقد ترك هذا الخلع في نفوســـهم أثراً عظيماً سجلته أشعارهم المشحونة بأشجان الغربة ، ووطأة الوحدة النفسية، وقوة الحرمان من «السكن والأهل والديار » . حتى إن سلوكهم نفسه كان يخفي وراءه الاستهانة بالحياة ، والانطلاق في الفضاء العريض ، والمغامرة الفتاكة المثيرة ، لقد كان هذا سخرية مريرة من الحرية الفردية ، وشعوراً عميقاً بالتمزق والضياع .

ولامية الشنفري تعبق بهذه المشاعر ، مشاعر التمـزق والضياع ، حيث حاول التكيف مع وحش الصحراء بعد أن فقـد الأهـل ، وذاق مراره الغربة عن الديار[1] .

أقيموا بني أمي صدور مطيكم ... فاني إلى القوم سواكم لأميل

أديم مطال الجوع حتى أميته ... وأضرب عنه الذكر صفحاً فأذهل

وأستف الأرض كي لا يرى له ... علي من الطول امرؤ متطوّل

هذا الاحساس بالمرارة طبيعي ، لأن التضامن في سبيل العيش قد جعل العرب يقدسون الحياة القبلية ، والشعور بالوحدة القبلية شعور عميق الجذور في نفوس العرب . فالخلعاء الذين فروا الى الصحراء مشــردين ،

---

١ ـ انظر لامية العرب .

لا بد إلا أن يقاسوا من الاحساس بالغربة، والحنين العارم إلى حياة الجماعة، مهما صقلت حياة الوحدة من شخصياتهم . فناقة أبي الطمحـــان مثلاً قد حنت تذكر أرماماً فذكرته بمعشره :

ألا حنت المرقال واتئب ربها تذكـّر أرماماً وأذكر معشري (١)

والواقع إن هذا الاغتراب بهذه الصورة القاسية ، أو النفي ، كثيراً ما كانا يدفعان المرء إلى اليأس حتى تمني الموت ، فقد وصل الشنفرى إلى مرحلة اللامبالاة : « إذا ما أتتني منيتي لم أبالها » ، وفيم المبـالاة ؟ حتى بموته لن يتفجع الاقرباء عليه ، كما انهم لم يتفجعوا عليه في وحدته « ولم تذر خالاتي الدموع وعمتي . » (٢)

على أن معنى الاغتراب يتطور أيضاً في الجاهلية ، فلا يتوقف عند الشعور بالوحشة في الرحيل ، والبعد المكاني ، بل يتعدى ذلك إلى الشعور بالغربة في البعد عن مجد القبيلة السابق ، ذلك لأن أوقات عظمـة وملك هؤلاء الناس قد غدت بعيدة . فالحياة القبلية كانت مقدسة ، ذلك لأن الانسان الواقع خارج دائرة العلاقات بين الناس ، خارج المجتمع ، كان معرضاً للهلاك ، وكان هذا الوضع سبباً في التألم والخوف ، والحنـــين إلى الحياة السابقة النشيطة في مجتمع الاهل والاقرباء . ولقد ظهرت كل هذه المشاعر عند الشاعر الجاهلي ليس فقط بمشاعر الغربة والوحشة في الرحيل ، أو الاحساس بالضياع في مضارب الوحش بعيداً عن الرابطة القبليـــة ،

---

١ ـ ابن قتيبـــة ، ص ٢٢٩ ؛ الأغاني ، ج . XIII ، ص ١٣ (دار الكتب) .

٢ ـ انظر ، لامية العرب .

أو غير ذلك ، بل تعدت ذلك إلى الشعور بالغربة - عزبة الوحدة ، والانعزال بعد الموت في القبر . وهذه أبعد صور الاغتراب إمعاناً في الرهبة والجزع ، كما ظهر هذا في أشعار : لبيد ، والحارث بن حلزة، والذبياني . لان الانسان ، بنظرهم ، قد يستعين على اغترابه بالرحيل، ينسى به أشجانه، وقد يأنس إلى وحش الصحراء كما أنس الصعاليك ، وقد يتخلص من اغتراب العبودية واللون حين تمنحه الطبيعة قوة وذكاء يصارع بهما حتى يظفر بالخلاص كما فعل عنترة ، لكن غربة الموت لا أنيس فيها ، ولا أمل في الخلاص منها على أية حال . إنها النهاية الحتمية الطبيعية لكل انسان ، التي لا مفر منها : « كفى بالموت نأياً واغتراباً » (١) ، وبهذا المعنى كتب الطمّحان :

ألا عللاني قبل نوح النوائح	وقبل ارتقاء النفس بين الجوانح
وبعد غدٍ ، يالهف نفسي على غدٍ	إذا راح أصحابي ولستُ برائح
إذا راح أصحابي تفيض دموعهم	وغودرت في لحدٍ علي صفائحي
يقولون هل أصلحتم لأخيكم	وما اللحد في الأرض الفضاء بصالح

وهكذا ، فأكثر ما يخشاه الشاعر من الموت وحدته ، إذ بعد فراق الاهل والاصحاب يتركونه وحيداً في العراء .

وللظروف الاجتماعية ، بل للوضع الحضاري الاثر الاكبر في نوعية

---

٢ - ديوان بشر ، ص ٢٤ .

دوافع الاغتراب ومبررات الحنين ، إذ نجد في بيئة ثانية دوافع أخرى للغربة وصوراً للحنين مختلفة ، فالشعراء الذين عاشوا في العراق ، كابن جعفر مثلاً ، نعوا وحنوا إلى قصور (آل محرق) : الخورنق والسدير ، لا إلى الاطلال والرسوم :

ماذا أؤمل بعد آل محرق ... تركوا منازلهم على ميعاد
أهل الخورنق والسدير وبارق ... والقصر ذي الشرفات من سنداد
جرت الرياح على محل ديارهم ... فكأنما كانوا على ميعاد (١)

لقد أشرنا سابقاً إلى أن النزعة العربية (القومية) تظهر إلى جانب النزعة القبلية ـ عندما يكون الصدام مع الاعاجم ، فمثلاً أعشى قيس يفتخر بيوم ذي قار الذي كان لبكر على العجم (على كسرى وجند الفرس) مذكراً بأمجاد بكر الماضية :

أمّا تميم فقد ذاقت عداوتنا ... وقيس عيلان مسّ الخزيُ والأسفُ
وجند كِسرى غداة الجِنو صبّحهم ... منّا غطاريف ترجو الموت وانصرفوا
لو أن كل مَعد كان شاركنا ... في يوم ذي قار ما أخطاهم الشرف (٢)

---

١ ـ الأغاني ، ج . XIII ، ص ١٧ (دار الكتب) .

٢ ـ العقد الفريد ، ج . III ، ص ٨٢ ؛ ديوان الاعشى ، ص ٢١٠ .

وفي هذا المعنى يقول العديل العجلي :

وما يَعُدون من يوم سمعتُ به   للناس أفضل من يوم بذي قار
ما أوقد الناس من نار لمكَرمة   إلاّ اصطلينا وكنا موقدي النار
جئنا بأسلابهم والخيل عابسة   لما استلبنا لكسرى كل إسوار (١)

لكن يتراجع فيما بعد الاساس القبلي العربي للحنين ليحل محله أساس إسلامي عام ، ويتجمع الجند اول الامر ، في معسكرات هناك ثم لا يلبسون أن يستقروا بعد ذلك . وقد يصطحب الوالي معه بعض جماعات من قومه ، للاعتماد عليهم ، أو بدافع القرابة يتشجع بعض أقربائه للسفر إليه ، إلى ولايته ، لالتماس أسباب الرزق والحياة ويختلط ويتمازج هؤلاء القادمون بالسكان الاصليين ، وهكذا أخذت تتكون في البلاد المفتوحة جاليات عربية ، بدأت تتلاءم مع ظروف الحياة الجديدة من الاختلاط والتنوع والاستقرار ، محافظة في البدء على الكثير من عاداتها العربية البدوية . إن الضرورة الملحة دوماً للدفاع أو الهجوم ، وللحفاظ على المناطق المفتوحة ، لم تسمح للعرب أن يحيوا في البداية حياة استقرار وهدوء ، إذ إن العمليات الحربية قد أخذت منهم قوة ووقتاً كبيرين ، وهذا ما أثر أيضاً على بلاد العرب غير المحاربة ـ الجزيرة العربية ومراكز انطلاق الغزوات وجيوش الفتح ، ذلك لانهم كانوا دائماً في قلق واضطراب وتتبع لاخبار النصر والمعارك والفتوحات ـ أخبار جندهم الذين ما هم إلا

---

١ ـ العقد الفريد ، ج III ، ص ٨٢ .

أقرباؤهم وأهلهم . وما يوضح هذا الوضع الحقيقة التالية ، وهي أنه في هذه الظروف العصيبة واللحظات الحاسمة عند العرب ، فان الشعراء ـ لكونهم « المواطنين » الحقيقيين لبلدتهم ـ ، لم يكتبوا قصائد طويلة . لكن شعرهم قد حمل صفة البطولة ـ الملحمية ، والوطنية ، والقصيرة والمختصرة . وكقاعدة ، فان أشعار تلك المرحلة تألفت من عدد من الابيات ، تصف بطولة المحاربين ، أو تعبر عن الحنين إلى الوطن الام ، قيلت هذه الاشعار في تخليد بطولة ، أو في ذكر الاشواق والمواجد إلى الارض الام ،وكانت تعبيراً عن الآلام ، التي تلدغ كبد المحارب ، وهو يشتاق إلى مرابعه الاولى ، ويحن إلى مواطنه التي أقبل منها . في كل من هذه القصائد عبر عن شوق وحنين وألم المقاتل ، الذاهب للغزو والفتوحات ، والذي يقع في بعد عن مواطنه وأهله ، وعبر عن أحلام المقاتل فى أن يكون بقرب أهله . فالغربة والحنين هنا ليسا بسبب البعد عن القبيلة ومضاربها ، لكنها بشكل أقوى ، بعد عن الجزيرة العربية كلها ، عن معالمها وعن الأهل هناك ، وعن نموذج الحياة فيها ، وعن طبيعتها . ونلمح في هذا اللون الجديد من الحنين الضيق الشديد بالغربة ، وبلورة الشعور العاطفي تجاه مسقط الرأس ، فكل شيء في المكان الجديد يذكر الشاعر بوطنه ، بشبه جزيرته : الجمال والنوق ، والحمام ونوحه ، وأسماء الأمكنة، وأشجار النخيل . ولا يزال الشعر المقال في القادسية عن نخلتي حلوان شعراً رطباً مثيراً تقرؤه فتشعر ما لهؤلاء الواجدين من عمق العواطف وقوتها :

أسعداني يا نخلتي حلوان ... وابكيا لي من ريب هذاالزمان

واعلما أن ريبه لم يزل يفـ ... ـرق بين الألاّف والجيران

ولعمري لوذقتما ألم الفر　　قة قد أبكاكما الذي أبكاني
أسعداني وأيقنا أن نحساً　　سوف يلقاكما فتفترقان (١)

إضافة إلى هذا لا بد من الاشارة إلى أن الناس ، الذين بقوا في شبه الجزيرة العربية ، كانوا قد عاشوا أيضاً مشاعر الحنين والشوق إلى أولادهم وأصدقائهم ، المسافرين مع الغزوات في عداد الجيوش الفاتحة . إن هذا الشعور يظهر بوضوح في أشعار ذي البريق الهذلي ، الذي تركه أولاده وهو شيخ هرم ، وبعد الفتوحات في مصر لم يعودوا إليه ، وهو غالباً ما كان يقف على طريق قوافل العائدين من مصر ، مسائلاً عن أبنائه . ومثل هذا النموذج نجده ، عند أبي صخر الهذلي أيضاً ، الذي تركه أبناؤه وذهبوا في الحملات ، مما ولد عنده الشوق الزائد لهم والحنين إليهم . إن شعر الحنين والمواجد هذا ما كان إلا تسامياً لشعر الأطلال ، وبكاء الديار وندب الاحبة ، وتطويراً له . أما شعر البطولة والفتوح فلم يكن إلا تجديداً لشعر الفخر . لكن هذه الاشعار الوطنية البطولية إنما تمتاز عن أشعار الفخر التقليدية ، بالرنين الاجتماعي الذي كانت تطبعه ، وبالنزعة العربية الاوسع ، والمشاعر الاعم . هذا ما يبدو ، مثلاً ، في الاشعار المقالة بعد واقعة القادسية :

فحييت عنا عِكرِمُ بنة خالد　　وماخير زاد بالقليل المصرّد
وحيّتْك عني عصبة نخعية　　حسان الوجوه آمنوا بمحمد

---

١ ـ الأغاني ، ج . XIII ، ص ٣٣١ (دار الكتب) .

أقاموا لكسرى يضربون جنوده بكل رقيق الشفرتين مهنّد

وقول آخر :

وجدنا الاكثرين بني تميم غداة الروع أصبرهم قتالا
بحور للأكاسر من رجال كأسد الغاب تحسبهم جبالا
تركن لهم بقادس عزّ فخر وبالحتفين أيّاماً طوالا (١)

إن ذلك الجيل الذي كان يرى نفسه غريباً ، طارئاً في تلك الديار المفتوحة المغزوة ، قد حل محله جيل ثانٍ ، كان يشعر بأن هذه البلاد التي كانت - مفتوحة - هي وطنه الذي تربط به حياته ورغباته وآماله . إذ كان عليهم كغيرهم الضرب في الحياة والعيش كأبناء البلاد الاصليين . لكن رغم هذا ففي أشعار شعراء البلاد لذلك الوقت لا تزال تتردد الالفاظ عن الجزيرة العربية ، ربما فقط لملاءمة ذوق البلاط في التمسك بالتقاليد العربية ، وبعداً عن التعبير الواقعي .

إن كل الصعوبات التي ظهرت نتيجة سوء العلاقة بين الحجاز والخلافة الاسلامية في سورية قد انعكست في الحياة الثقافية في الحجاز . الاضطهاد ، والتمييز في الدولة الاسلامية بالنسبة للعلاقة مع الحجازيين قادا إلى ظواهر جديدة من الاغتراب والحنين عندهم . فمثلاً كان الاحوض منفياً إلى اليمن،

١ - الطبري ، المجموعة I ، ج . V ، ص ٢٣٦٥ (طبعة أوروبية) .

والعرجي سجيناً في مكة . وبعد سقوط دولة بني أميـــة هرب بعض الشعراء كعبد الرحمن الداخل إلى المغرب ، وبعضهم الآخر كان معتقلاً ، وفريق ثالث أجبر على الغربة والاغتراب . وعلى هذا الاساس سنتتبع التطور التالي لمشاعر الحنين والغربة ، حيث مجالاتها الاطر الثلاثة التالية :

١ ـ الشعراء المسجونون .
٢ ـ الشعراء المنفيون والهاربون .
٣ ـ الشعراء المهاجرون .



رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

١ - الشعراء المسجونون

إن سجن الشعراء كان مستخدماً منذ القدم ، حتى في العصر الجاهلي ، في الامارات العربية ، واستمر في عهد الدولة الاسلامية . ولقد شعر الشاعر وهو في السجن أنه وحيد ، معزول عن الحياة ، وعن أهله وأقربائه . وهو في طلبه السماح والرحمة والعفو من سيده ، كان يمدحه ، ويتوعده ، ويسب ويهجو الوشاة ، ويصف ليالي الارق التي يحياها ، وهو مكبل بالقيود ، ويطلب أحياناً الخلاص عند الاصدقاء ، أو يدركه الموت فيريحه .

ليت أني أخذتُ حتفي بكفي ولم ألق ميتة الأقتال

أحظه في الحياة من سيده سلسلة وقيد ؟ ! ورغم أن حبه قد طال لم يعبأ به سيده ، وترك عياله في فاقه :

فبيتي مقفر إلاّ نساء أرامل قد هلكن من النحيب

ويناقش منطقياً : إن أخطأ فقد نال عقابه ، مطالباً بالافراج عنه ، وإن علم فقد عوقب . ما يرهبه ويحسه هو الموت المخيف ، فان وقع فالندم يصيب السيد الساحن :

وإن أهلك تجد فقدي وتُخْذَلْ إذا التقت العوالي في الحروب

ثم ييأس فيوكل أمره إلى ربه ، لقد أرق فلم يقو على السلام ، حتى كأن الصبح ليس بآتٍ ، موثق شديد الوثاق في الحديد ، وماله إلا أن يستنجد بأخوته لانقاذه من هذه الغربة ، ومن خطر الموت المحدق به(١) . وترتبط بهذا اللون اعتذاريات النابغة من النعمان بذاته ، الذي توعده فغدا لا يقوى على النوم كأنه لديغ أفعى رقطاء ، وهو تائه في الصحاري يرهب سطوة النعمان :

فأنت كالليل الذي هو مدركي ... وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

ونجد الحنين وشعور الوحدة والغربة عند المسجونين الشعراء في أشعار شعراء العصور المتلاحقة ايضاً ، فغربة السجن والحنين للعائلة والاهل هي غربة الحطيئة الذي سجنه ابن الخطاب لهجائه الزبرقان :

ماذا تقول لأفراخ بذي مرخ ... زغب الحواصل لاماء ولاشجر

ألقيت كاسبهم في قعر مظلمة ... فاغفر عليك سلام الله يا عمر

أهلي فداؤك ! كم بيني وبينهم ... من عرض داوية تعمى بها الخُبرُ (٢)

وتظهر وحشة الغربة بشكل أوضح في شعر ضابىء بن الحارث البرجمي

١ ـ الأغاني ، ح . II ، ص ٩٧ ـ ١٥٦ ، شعر عدي بن زيد ، الذي سجنه النعمان بن المنذر في سجن منعزل .

٢ ـ الأغاني ، ح . II ، ص ١٨٦ (دار الكتب) . شعر الحطيئة . [الداوية : الفلاة] .

الذي حبسه عثمان بن عفان فى المدينة ، ولم يزل في حبسه حتى مات . إذ إنه غريب في المدينه رغم كونه فيها :

ومن يك أمسى بالمدينة رحلُه فاني وقيّاراً ، بها لغريب
وماعجلات الطير تدني من الفتى رشاداً ، ولا عن ريثهن يخيب (١)

وهدبة بن خشرم العذري وهو في سجن المدينة أيام معاوية يصور قساوة العيش في السجن ، إذ المنية متوقعة ، ويشتاق لاهله ، متمنياً أن تكون الرياح الواسطة بينه وبينهم :

ألا ليت الرياح مسخرات بحاجتنا تباكرُ أو تؤوب
فتخبرنا الشمال إذا أتتنا وتخبر أهلنا عنّا الجنوب (٢)

ويحس بالالم الشديد في شعر العرجي الذي أمضى فى سجن محمد ابن هشام [خال هشام بن عبد الملك] ، تسع سنوات ، ومات فيه بعد أن تعرض لأبشع أنواع التنكيل والقتل والتعذيب ، ويلمح في أشعاره الضياع الكامل :

أضاعوني وأي فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر
وصبر عند معترك المنايا وقد شرعت أسنتها بنحري

---

١ ـ ابن قتيبه ، ص ٢٠٣ (بريل) .

٢ ـ الحلفي ، أدباء السجون ، ص ، ٦ .

أجرَّرُ في الجوامع كل يوم ... فيا لله مظامتي وصبري
كأني لم أكن فيهم وسيطاً ... ولم تك نسبتي في آل عمرو (١)

حتى إن عبد الله بن علي في حبس المنصور كان يتغنى بهذه الأبيات(٢). والحبس مصدر أرق الشاعر السجين ، الذي يبات يرعى النجوم:

أقول ليحيى ليلةَ الحبسِ سادراً ... ونومي به نوم الأسير المقيّد
أعنّي على رعي النجوم ولحظها ... أعِنك على تحبير شعرٍ مقصَّد (٣)

وتختلف طريقة مناجاة الشاعر السجين باختلاف معتقده ، فأبو العتاهية الزاهد سجين الرشيد إنما يذكر الرشيد بمصيره ومصير الناس أجمعين : بيوم القيامة والحساب ، وبمصير الأمم الغابرة ، وبأن الحكم بينهما سيكون الديان يوم الحساب :

إلى ديّان يوم الدين نمضي ... وعند الله تجتمع الخصوم
تروم الخلد في دار المنايا ... وكم قد رام غيرك ماتروم (٤)

---

١ ـ الأغاني ، ج . I ، ص ٤١٣ (دار الكتب) . [الجوامع : الاغلال ؛ عمرو بن عثمان بن عفان] .
٢ ـ هناك أيضاً : ص ٤١٣ ـ ٤١٦ .
٣ ـ الاغانى ، ج . II ، ص ٤٠٦ . شعر الحكم بن عبدل عندما حبس في الكوفه مع صاحبه الاعمى .
٤ ـ الاغاني ، ج . IV ، ٣١ ، ٦٩ (دار الكتب) .

وإن يوم الحبس الطويل عند بشار ما هو إلا يوم البعث والحساب، الذي منه الخوف لا من محبس في طاول :

كيف يبكي لمحبس في طلول ... سيقضي ليوم حبس طويل
إن في البعث والحساب لشغلاً ... عن وقوف برسم دار محيل (١)

وإن حنين وشوق الشاعر المسجون إنما توقظه الحمامات ، التي تنوح بقرب السجن :

ومما هاجني وازددت شوقاً ... بكاء حمامتين تجاوبان

ولقد قاسى شعراء المراحل اللاحقة أيضاً من مرارة السجن ، وهم في السجن قد حنوا إلى الأهل والأقرباء :

هم في الحشا إن أعرقوا أو أشأموا ... أو يمنوا ، أو أنجدوا ، أو أتهموا
وهم مجال الفكر من قلبي وإن ... بعد المزار فصفو عيشي معهم
أحبابنا ما كان أعظم هجركم ... عندي ، ولكن التفرق أعظم
وغدوت بعد فراقكم وكأنني ... هدف تمر بجانبيه الأسهم (٢)

---

١ ـ ابن قتيبة ، ص ٤٧٦ (بريل) .

٢ ـ محمد ، ك . أدب مصر ، ص ٢٠ شعر القاضي ، الذي نفي إلى اليمن وسجن فيها .

وحنوا أيضاً إلى (الوطن) وهذا ما ظهر في شعر الحنين إلى إربيل عند أبي الفضل الاربيلي الذي سجن عام ٦٢٦ هـ :

قيد أكابده وسجن مغلق ... يارب شاب الهموم المفرق

يا برق إن جئت الديار باربل ... وعلا عليك من الندامى رونق

بلّغ تحية نازح حسراته ... أبداً بأذيال الصبا تتعلق

قل يا حبيب لك الفداء أسيركم ... من كل مشتاق إليكم أشوق

والله ماسرت الصبا نجدية ... إلاّ وكدتُ بدمع عيني أغرق

كيف السبيل إلى اللقاء ودوننا ... شماء شاهقة وباب مغلق (١)

إنه شوق للوطن ، ووصف دقيق للسجن الرتيب الذي أوصدت أبوابه في وجه الشاعر المتحسر السجين .

وشعراء الأندلس ، الذين ألقوا في السجون ، لم يقصروا في الافصاح عن حنينهم وشوقهم إلى وطنهم ومواطنيهم ، فالشاعر عبد الملك الخولاني مثلاً كتب في لياليه الأرقة ، وقد شحط به المزار عن الأحبة والوطن :

ألوى بعزم تجلدي وتصبري ... نأي الأحبة واعتياد تذكّري (٢)

---

١ ـ الحلفي ، ص ٢٣٢ .

٢ ـ الحلفي ، أدباء السجون ، ص ٢١٦ ـ ٢١٧ .

وبهذا المعنى كتب الشاعر أبو الحسن بن نزار - من أعيـان وادي آشن بالأندلس ، والمسجون في مرسية ، كتب شعراً يقطر شوقاً إلى بلاده، طافحاً باللوعة والحسرة :

لقد بلغ الشوق فوق الذي حسبتُ فهل للتلاقي سبيل
فلو أني متُ من شوقكم غراماً لما كان إلاّ القليل
لقللني بالتداني المنى وينشدني الدهر صبر جميل (١)

وسرب القطا قد حرك أشجان المعتمد بن عباد وهـو سجـين في أغمات فقال مناجياً :

هنيئاً لهـا أن لم يفرق جمعهـا ولا ذاق منها البعد عن أهلها أهل (٢)

---

١ - هناك أيضاً ، ص ٢٤٦ .

٢ - هناك أيضاً ، ص ٢٤٦ .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

٢ - الشعراء المنفيون والهاربون

إن غربة النفي والهرب شديدة القسوة على الشاعر نلمحها في القلق الذي يعتري الشاعر فيمنع عنه النوم . وإذا كان النفي تطوراً لمعنى الخلع الذي رأيناه في الجاهلية ، فان الهرب صورة أخرى من صور ترك القبيلة ، والالتحاق بأخرى ، إنما هنا الهرب إجباري من سلطة أو سياسة ، ويكفي لتوضيح هذا مقارنه ترك امرئ القيس قبيلته ، وهرب عبدالرحمن الداخل من السلطة العباسية . الخليع والتارك للقبيلة يرتبان حياتهما على هذا الاساس ، لأن القبيلة تنكرت للأول فلا سبيل له للعودة إليها ، أو لأن الثاني تركها طوعاً واختياراً . واليأس من العودة إلى القبيلة عندهما شبه استقرار على أية حال ، لكن النفي والهرب السياسي شيء آخر ، فالشاعر المنفي أو الهارب سياسياً يبقى على الدوام محافظاً على أمل العودة إلى وطنه حين تتبدل الظروف السياسية ، لكنه لا يدري متى تتبدل هذه الظروف ، وهل يمتد به العمر حتى يشهد هذا التبديل ؟ أم يخترمه الموت قبل أن يرى وطنه مرة أخرى ؟ ، ومن هنا كان الاحساس العميق بالقلق الذي نلمحه مثلاً في شعر أبي قطيفة وهو في الشام منفياً عن المدينة من قبل ابن الزبير بعد وقعة الحرة :

أقرِ مني السلام إن جئت قومي ... وقليل لهم لديّ السلام
أقطع الدهر كله باكتئاب ... وزفير فما أكاد أنام

نحوقومي إذ فرقت بيننا الدار ر وحادت عن قصدها الأحلام

ثم يأخذ بتعداد مواضع وطنه وقصورهم ، حيث يشتاق إليها كثيراً ويحن . إن هذه الحسرة ،وهذا التأثر يحس بهافي قصيدة ثانية أخرى له :

ألا ليت شعري هل تغيّر بعد ناقُبَاءُ وهل زال العقيق وحاضره؟

وهل برحت بطحاءَ قبر محمد أراهطُ غرٌ من قريش تباكره؟

لهم منتهى حبي وصفو مودتي ومحض الهوى مني وللناس سائره (١)

وهذه أبيات لمجهول يأتي بها صاحب الأغاني [ج ، ١ / ٣٠] شبيهة بما أورده لأبي قطيفة ، فيها اللوعة والحنين والشوق :

ألاليت شعري هل تغير بعدنا جيوب المصلي أم كعهدي القرائن؟

وهل أدؤرحول البلاط عوامر من الحي،أم هل بالمدينة ساكن؟

إذا برقت نحو الحجاز سحابةٌ دعا الشوق مني برقها المتيامن

ورغم أن أبا قطيفة في بكائه (أُحُداً) عندما أجلى بنو أمية عنه ، يواسي نفسه بالتطلع إلى الشام ، أهل عشيرته :

بكى أحدٌ لما تحمَّل أهلُه فسلع،فدار المال أمست تصدَّع

وبالشام إخواني وجلُّ عشيرتي فقد جعلت نفسي إليهم تطلَّع

---

١ ـ الاغاني ، ج . ١ ، ص ٢٦ ـ ٣١ (دار الكتب) .

إلا أنه يصرح في مكان آخر ، حيث هو في الشـــام ، بأنه لم يذهب إليها برغبته ، ويحن إلى الحجاز وإلى أهله القاطنين هناك :

وما أُخرجتنا رغبة عن بلادنا ولكنه ما قدر الله كائن

أحِنّ إلى تلك الوجوه صبابة كأني أسير في السلاسل راهن (١)

ونعثر في أشعار عمر بن أبي ربيعة [٢] والأحوص [٣] (المنفيين إلى إلى اليمن من المدينة) على عبارات الحنين والشوق ، والرغبة في العودة إلى الوطن . إذ يكتب ابن ربيعة شعراً على لسان حبيبته ، متوجهاً للثريا قائلاً:

بالله قولي له في غير معتبة ماذا أردتَ بطول المكث في اليمن ؟

إن كنت حاولت دنيا أو ظفرت بها فما أخذت بترك الحج من ثمن

ويلاحظ عند هؤلاء الشعراء بأن الغربة هي الحياة في بعد عن الوطن ، وعن الأهـــل والاخوة والأصدقاء والرفاق . هـذا الحنين إلى الاصدقاء والرفاق ، من شبه المؤكد ، أنه ظاهرة تجديد قد حلت مـكان الحنين الى القبيلة . لكن ، هذا كله لم يعق ظهور العواطف والمشـاعر الدينية عند الشاعر ، والتعلق الطائفي بآل البيت ، وهذا ما يظهر في شعر أبي عدي العبلي الذي كان إلى جانب العلويين .

---

١ ـ هناك أيضاً ، ص ٢٩ ، ٣١ .

٢ ـ هناك أيضاً : ص ١١١ .

٣ ـ الأغاني ، ج . IV ، ص ، ٢٢٤ ـ ٢٦٨ .

ولذا أخذ ينكل به بنو العباس . لقد ذهب إلى الطائف حيث وليها محمد بن عبد الله بن الحسن ، لكنه لم يكد يمضي إليها حتى أحس بهزيمة العلويين فيها ، فخرج هائماً على وجهه إلى اليمن حيث يقول :

هيهات تلك معالم من ذاهب أمسى بحوضى أو بحقل قباب
شطت نواه عن الأليف وساقه لقرى يمانية حمام كتاب

والملاحظ ان الاغتراب هنا عن الاخوان ، والأصحاب، والألاف قبل كل شيء . وأكبر الظن أن تلك هي الرابطة الجديدة التي بدأت تحل محل الروابط القبلية ، وإن كانت الجديدة لم تقو على منع الشاعر من عصبية مذهبية ، دينية لآل البيت . وهكذا فقد ساق التطور الحضاري إلى هذه الرابطة كما ساق المجتمع البدوي القديم شاعرنا الجاهلي إلى الحديث عن رابطة الدم . هذه الروابط لا بد وأن تجد صداها ، لان مجتمع المدينة يختلف عن مجتمع البادية ، حيث تتقلص في المدينة القيم البدوية لتظهر مكانها القيم الحضرية . ولكن يجب ان لا ننسى ان عاصمة الخلافة بغداد خاصة ، والعراق عامة من اكثر المناطق معاناة للصراع بين البداوة والحضارة . فعلى الرغم من قدم التراث الحضاري في العراق فان القيم البدوية الآتية اليه من الصحراء المجاورة ،لها تأثيرها الدائم . على أي حال، منذ أيام الاستقرار ،بدأت القبائل تذوب في مجتمع المدينة ، وتقوم العلاقات الجديدة على أساس روابط الصداقة . ومن هنا يكثر الحديث عنها في كتب ابن المقفع ، وفي شعر بشار ، وعند ابي فراس الحمداني ، وأبي حيان التوحيدي . فالحكماء قالت قديماً : « ربّ أخٍ لك لم تلده أمك » ،ويرى ابو تمام :

فاءذا القرابة لا تقرّب قاطعاً   وإذا المودة أقرب الأنساب (١)

وبهذا المعنى قال المبرد :

ماالقرب إلاّ لمن صحّت مودته،   ولم يخنك، وليس القرب للنسب

كم من قريب دويّ الصدر مضطغن ،

ومن بعيد سليم غير مقترب (٢)

وهذا ما يلاحظ في وقت متأخر من استعمال الحنين ، في المراسلات النثرية ، للاخوان والاصحاب ، كما عند أبي العلاء، والهمذاني(٣) .

ولم يخرج (العبدلي) وحده هائماً على وجهه عقب انتصار العباسيين ، بل هناك غيره كثيرون ، إنما ابرزهم عبد الرحمن الداخل ، الامير الشاعر ، وهو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك . كان له من العمر عشرون عاماً عندما اوقع السفاح ببقايا الامويين ، لكنه فر مع بعض الجند عبر نهر الفرات سباحة . في حياته المخاطرات ، والمغامرات ، إذ سار متنقلا من الشام ، إلى مصر ، إلى شمال افريقيا ، حتى وصل المغرب ، واحتمى بقبيلة « نفرة » ، التي يمت لها بصلة الخؤولة،

---

١ – العقد الفريد ، ج . I ، ص ٢٢٨ (القاهرة ، ١٢٩٣ هـ) .

٢ – العقد الفريد ، ج . I ، ص ٢٢٩ (القاهرة ، ١٢٩٣ هـ) .

٣ – متز ، ادم . الحضارة الاسلامية ، الترجمة العربية ، ص ٣٥٠ ، الترجمة الروسية ، ٢٠٧ .

واستغل الخلاف بين اليمنيين والمضريين في اسبانيا ، فانتهت بذلك قصة عبد الرحمن الشريد ، وبدأت قصة عبد الرحمن الملك الاموي في أقصى المغرب . وكان ينفس عن آلامه من حين إلى آخر بمقطوعات شعرية . رأى ذات يوم نخلة بقصر الرصافة في ضواحي قرطبة ، وتصور المشابهة بينهما ، كلاهما مجلوب الى المغرب ، وبعيد عن بلده فقال :

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة
تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت : شبيهي في التغرب والنوى
وطول التنائي عن بنيّ وعن أهلي
نشأت بأرض أنت فيها غريبة
فمثلك في الاقصاء ، والمنتأى مثلي
سقتك غوادي المزن من صوبها الذي
يسح ويستمري السماكين بالوبل (١)

وله قطعة أخرى رقيقة يصور فيها البعد عن الوطن :

إن جسمي كما تراه بأرضٍ وفؤادي ، وما يكنّ بأرض

١ - راجع صورة أخرى لاغترابه ، واغتراب النخلة في (الشعر الأندلسي) لجارسيا جومس ، ص ٢٧ .

فهو يعيش في بلاد الغربة بجسمه ، أما عواطفه فهناك في الوطن . والملاحظ أن الشاعر يستخدم ضمير الجمع [نا] معبراً عن نفسه . ونجد هذا أكثر وضوحاً عند المتنبي ، حيث نجد الاحساس بالذات قد تضخم . ولا شك فى أن حياة المتنبي الشخصية ، كانت عاملاً من عوامل بروز (الأنا) .

نوع آخر من السجن هو الاسر ، وفيه يظهر الحنين ، وتبرز اللوعة بشكل أوضح ، وأكبر ، وبخاصة إذا كان الاسر في بلاد الاعاجم. ونماذجنا عن شعراء الاسر ثلاثة : ابو الطمحان [جاهلي - اسلامي] ، وأعشى همدان [اموي] ، وابو فراس الحمداني [عباسي] .

ففي حرب الفساد بين جديلة والغوث الطائيتين وقع ابو الطمحان اسيراً ، فقال فى أسره ، واصفاً ارقه وهمومه :

أرقتُ ، وآبتني الهموم الطوارق ... ولم يلق مالاقيت قبلي عاشق (١)

أما أعشى همدان فقد وقع في أسر الديلم مدة عندما أغزاه الحجاج، وله في أسره قصيدة فيها شوق للجزيرة ، وللظعائن تسير في « وادي ذي خشب » بالمدينة ، ولحمولتها التي من نخل يثرب بطلعها ذي الرائحة الذكية، ولمحبوبته . وبعد كل هذا يدعو للتصبر ، والتجمل لما ألم به من أسر في يد الاعداء ، بعد أن كان مقاتلهم الصنديد :

---

١ - الاغاني ، حـ . XIII ، ص ، ١٠ (دار الكتب) .

وإذا تصبك من الحوادث نكبةٌ   فاصبر، فكلُّ مصيبةٍ ستكشَّفُ
ولئن بكيت من الفراق صبابةً   إن الكبير إذا بكى ليعنَّفُ
عجباً من الأيام كيف تصرَّفت   والدار تدنو مرَّةً وتقذَّفُ
أصبحتُ رهناً للعداة مكبلاً   أمسي،وأصبح في الأداهم أرسُفُ
ولقد أراني قبل ذلك ناعماً   جَذْلان آبى أن أضام وآنفُ
واستنكرت ساقي الوثاق وساعدي
وأنا امرؤ بادي الأشاجع أعجفُ (١)

أما أبو فراس الشاعر العربي والفارس ، ابن عم سيف الدولة ، [توفي - ٣٥٧ هـ] ، وواليه على منبج فقد وقع أسيراً بيد الروم ، وقضى في أسره ثلاث سنوات في حصن خرشنة ، وسنة في القسطنطينية ، يكاد يقتله الحزن ، والشوق ، والشكوى الخائبة . لقد أفرد الروم له قصراً يطل على البحر ، لكن في مسمع أبي فراس كانت تكر أمواج البحر ، فتزكي إحساسه بالوحشة ، والغربة ، فيزفر زفرات تقطع القلب. ولعل صورة أسره ما تزال ، بصدقها ، وحرارتها ، وعفويتها ، أثراً خالداً، من أخلد صور الاسر في الادب العربي . فقليل أن نزف الجراح في صدر التجارب الانسانية الحزينة بمثل الحرارة التي نزفت بها جراح أبي

---

١ - الاغاني ، حـ . VI ، ص ٣٦ - (دار الكتب) . [أعجف : قليل اللحم] .

فراس في رومياته . وروميات تشبه أن تكون مذكـراته ، ورسـائله في الأسر ، فقد كان يبكي في بعضها ماضيه الرائع ، ويناجي نفسه ، ويمسح جراحه ، ويحاور في بعضها عظماء الروم ، ويرد عليهم مطاعنهم في العرب، ويراسل سيف الدولة ، فيذكره بالماضي الجميل ، وبيلائه في بناء الامارة ، وبروابط الدم التي تجمعها ، ويعتب عليه فتوره في السعي لخلاصه ، ويراسل أمه الوحيدة المقيمة في منبـج فيوصيها بالصبر ، ويراسل أصدقاءه ، فيصف أسره ، ويغني وده القديم . وأهم ما يستوقفنا عنده : شـكوى الغربة ، والشوق ، والحنين . فاسمعه يقول مناجياً سيف الدولة :

وقد كنتُ أخشى الهجر ، والشمل جامع
وفي كل يوم لقية وخطاب
فكيف وفيما بيننا ملك قيصر
وللبحر حولي زخرة وعباب؟

إذ يشعر هنا بالبعد الرهيب ، لا عن سيف الدولة فقط ، بل عن وطنه ، وأهله ، وعزه الغابر :

بلى أنا مشتاق ، وعندي لوعة ، ولكن مثلي لا يذاع له سرّ

إنها ألفاظ الشوق ، والحنين ، لكنها كبرياء الفارس الـتي تندحر أمام عظمة الشوق . وشكوى الاصدقاء ، وخياناتهم :

كثر الغدر والخيانة في النا
س فما أن ترى صديقاً صدوقاً
قلّ أهل الوفاء،واتّبعَ النا
س ، من الغدر، والجفاءطريقاً .

إنها غربة الأسر ، وغربة الأصدقاء ، حتى وألم البعد عن الأم الوحيدة ، الحزينة ، القابعة بعيدة عنه تسأل الركبان عن حاله :

يا حسرة ما أكاد أحملها آخرها مزعج ، وأولها

عليلة بالشآم ، مفردة بات بأيدي العدا معللها

تسأل عنّا الركبان جاهدة بأدمع ما تكاد تمهلها

يا أيها الراكبان! هلاّ لكما في حمل نجوى ، يخف محملها

قولا لها إن وعت كلامكما وإن ذكري لها ليذهلها :

يا أمتا ! هذي منازلنا نتركها تارة وننزلها(١)

تمر الساعات بأبي فراس وكأنها اعوام :

تطول بي الساعات وهي قصيرة وفي كل شيء لايسرّك طول

وتهب عليه نسمات [منبج] العليلة ، فيستقبلها ، وقد فتح صدره ، وأخذته نشوة الماضي الذي ازهر في ربوعها ، حاناً لها :

قف في ربوع المستجا ب ، وحيّ أكناف المصلّى

تلك المنازل والملا عب ، لا أراها الله محلا

---

١ – ديوان أبي فراس ، ح . II ، ص ٢٢ – ٢٣ ، ٢٠٩ ؛ ح . III ، ص ٣٣٠ – ٣٣١ .

أوطنتها زمن الصبا وجعلت منبج لي محلاّ
حيث التفتّ رأيت ماءً سائحاً، وسكنتَ ظلاّ (١)

وتشتد به الآلام، فيخاطب الحمام شاكياً له القيد، والغربة عن الوطن، والوحشة، والاسر، ثمحا العجمة الكائنة بينها بنغم انساني صافٍ عميق وسيع ؛ ألصق كبده بكبد الحمامة الحزينة فاستشعر حزنها، واستشعرت حزنه، فأنس بها :

أقول وقد ناحت بقربي حمامة أيا جارتا لو تشعرين بحالي
أيا جارتا ما أنصف الدهر بيننا تعالي أقاسمك الهموم تعالي
لقد كنتُ أولى منك بالدمع مقلة ولكن دمعي في الحوادث غالي (٢)

إن في رومياته الغربة الحقيقية، والصدق العاطفي، والشوق للوطن، ولمجده به، والشوق لامارته ومدينته، فكانت رومياته ملونة بهذه المرارة الخصبة، والشوق الزائد.

---

١ ـ المستجاب والمصلى ـ قصرا أبي فراس في منبج.
٢ ـ الحلفي، أدباء السجون، ص ٢١١ ؛ ديوان أبي فراس، ح. III، ص ٣٢٥.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

٣ ـ الشعراء المهاجرون (الشعراء في المهجر)

لقد أشرنا فيما سبق إلى ان بعض المحاربين المسلمين ، وهم يشعرون بثقل الفرقة مع الوطن ، قد عبروا عن حنينهم وشوقهم شعراً ، يفيض حنيناً إلى الحجاز . إن شعور الحنين هذا والشوق ، شوق الشعراء في الغربة ، قد تضاعف بصورة خاصة عندما شعروا بقرب الموت في بعد عن الوطن . وهذا ما يظهر بوضوح في شعر مالك بن الريب وهو بخراسان في جند سعيد بن عثمان بن عفان بعيداً عن مكة والجزيرة :

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة
بجنب الغضا أزجي القلاص النواجيا
فليت الفضا لم يقطع الركب عرضه
وليت الغضا ماشى الركاب لياليا
غداة غدٍ يالهف نفسي على غد … إذا أدلجوا عني وأصبحت ثاويا
تذكرت مَن يبكي علي فلم أجد … سوى السيف والرمح الرديني باكيا
وبالرمل مني نسوة لو شهدنني … بكين وفدّين الطبيب المداويا (١)

---

١ ـ ابن قتيبة ، ص ٢٠٥ .

وها هو عوف بن محلم الخزاعي يخرج من الجزيرة ، ويتنقل مع طاهر بن الحسين ثلاثين عاماً ، ثم مع ولده عبد الله بن طاهر من بعده يشهد معهما الحروب في الري ، وخراسان ، ويقيم حيث يقيمون في ولاياتهم ، ويشتد به الحنين إلى وطنه ، ويرغب في العودة ، لكنه لا يجاب إلى طلبه ، فيتشوق ، في قصائد حزينة ، إلى وطنه ، وإلى أبنائه ، ويزداد إحساسه بالغربة بعد أن دهمته الشيخوخة ، فيتلهف إلى الاستراحة من رحلته الطويلة بالعودة :

أفي كل عام غربة ونزوح ... أما للنوى من ونية فتريح ؟

وأرقني بالري نوح حمامة ... فنحت ،وذو اللب الحزين ينوح

على أنها ناحت فلم تر عبرة ... ونحت وأسراب الدموع سفوح

وناحت وفرخاها بحيث تراهما ... ومن دون أفراخي مهامه فيح

ألا يا حمام الأيك فرخك حاضر ... وغصنك ميّاد ففيم تنوح؟ (١)

ويهتف في مكان آخر : [وهمت بالاوطان وجداً بها] (٢) .

إن مفهوم الوطن يتطور عند الصمة القشيري ، فيصبح كائناً يموج بالحياة ، لا مجرد أرض ، او اسماء أماكن ، او ذكريات شباب (٣) . فكأنه يعيش بجسمه في ارض الغربة ، اما فؤاده فهناك ، في الحمى :

---

١ ـ طبقات ابن المعتز ، ص ٨٧ .

٢ ـ هناك أيضاً ، ص ١٨٨ .

١ ـ انظر الاغاني ، جـ VI ، ص ٣ ـ ٩ [دار الكتب] .

إذا ما أتتنا الريح من نحو أرضكم　　أتتنا بريّا كم فطاب هبوبها

أتتنا بريح المسك خالط عنبراً　　وريح الخزامى با كرتها جنوبها

وهل يسأل عنه الحمى كما يفعل هو ؟ :

وأسأل من لا قيتُ : هل مُطِر الحمى ؟

فهل يسألنْ عني الحمى : كيف حاليا ؟

وابن مياده ، وهو عند الوليد بن يزيد بالشام ، يمدحه ، وينال اعطياته ، يحن إلى أهله ، ووطنه بنجد . لقد قال للوليد ، وهما بأبا بين [موضع كان ينزله الوليد في الربيع] :

لعمرك　إني　نازل　بأ بابين

لصوءَر مشتاق ، وإن كنت مكرما

أبيتُ　كأني　أرقد　الدهر　ساهرٌ

إذا　بات　أصحابي　من　الليل　نوّما

فقال له الوليد : يابن ميادة ! كأنك ضجرت من قربنا ، فأجابه : ما مثلك يا امير المؤمنين يضجر منه ، ولكن :

ألا ليت شعري هل أبيتنّ ليلةً　　بحرّة ليلى حيث ربّتْني أهلي

وهل أسمعنّ الدهر أصوات هجمة تطالع من هجل خصيب إلى هجل ؟

بلاد بها نيطت عليّ تمائمي وقُطِّعن عني حين أدركني عقلي

فان كنتَ عن تلك المواطن حابسي

فأيسرْ علي الرزق ، وأجمع إذن شملي (١)

ولا نترك الحديث عن الجزيرة ، والشوق لها دون ان نشير إلى شاعر تشرد في البوادي اكثر عمره ، وهو قيس بن الملوح - مجنون ليلى - . وقصة حياته معروفة : فهو غريب في ارض بني عامر ، غريب في تشرده ، غريب في وحدته وتجواله . ذكر له صاحب الاغاني (٥) اربع مقطوعات يشكو فيها اغترابه ، ويتشوق إلى الحمى ، فقد [أفرد إفراد الطريد] ، وهو صاحب الامل الضائع : [فليست عشيات الحمى برواجع] ويردد :

أدنياي ! مالي في انقطاعي وغربتي

إليك ثواب : منك دين ، ولا نقد

---

١ - ابن قتيبة ، ص ٤٨٤ - ٤٨٥ [بريل ١٩٠٤] ؛ الاغاني ، ح II ، ص ٣٠٩ - ٣١١ . انظر هنا الرواية الثانية عن معارضة ابن ميادة لقصيدة عبد السلام بن القتال .
[صوءر : اسم مكان ؛ حرة ليلى : مكان قرب المدينة المنورة ؛ الهجمة من الابل : فوق الاربعين ؛ الهجل : المطمئن من الارض] .

٢ - الاغاني ، ح . II ، ص ٢٧ - ٦١ .

عديني - بنفسي أنت - وعداً فربما
جلا كربة المكروب عن قلبه الوعد

يرى بلاداً ينكرها ، وقوماً لا يعرفهم ، فيسألهم عن جبل التوباد ، وارض بني عامر ، فيقولون : « اين انت من ارض بني عامر ؟ ! عليك بنجم كذا » ، فلا يزال كذلك حتى يقع على التوباد ، فاذا رآه قال :

وأجهشتُ للتوباد حين رأيتُه   وكبّر للرحمن حين رآني
وأذريتُ دمع العين لما عرفتُه   ونادى بأعلى صوته فدعاني
فقلتُ له :قد كان حولك جيرةٌ   وعهدي بذاك الصرم منذ زماني
فقال : مضوا ، واستودعوني بلادهم
ومن ذا الذي يبقى على الحدثان (١)

فالغربة عنده ، وإن كانت غربه رحيل ، لكنها تحمـــل دلالات نفسية ، فقد يكون بين اهله ، ولكنه يحس بالغربة ، وليس جبل التوباد اكثر رمز يوحي بمعنى الامومة ، والطمأنينة ، ونفي الاغتراب .

إضافة الى هذا ، ففي العصر الاموي ايضاً يظهر الارتباط بالارض والوطن مقروناً بالمعيشة الحسنة . يفهم هذا من ســؤال عبد الملك بن مروان للحارث بن خالد المخزومي - واليه على مكة : « اي البلاد احب

---

١ - الاغاني ، ج . II ، ص ٢٧ - ٦١ .

إليك ؟ فقال : ما حسنت فيه حالي ، وعرض وجهي ، ثم قال :

لا كوفة أمي ، ولا بصرة أبي
ولستُ كمنْ يثنيه عن وجهه الكسلْ (١)

وعندما اجتمع الاخفاق في الحياة ، وطول المقام في العراق عند ابن المولى [مخضرم الدولتين] ، هتف بصراحة ان الاقامة في العراق ضلال ، وهو بتركه المدينة إنما كالذي ترك البحار ، ويمم الاوشال ، واشتاق ، وحن إلى المدينة :

ذهب الرجال فلا أحس رجالا … وأرى الاقامة بالعراق ضلالا
وطربت إذذكر المدينة ذاكر … يوم الخميس فهاج لي بَلْبالا
طرباً إلى أهل الحجاز ، وتارة … أبكي بدمعٍ مسبلٍ إسبالا
إن الغريب إذاتذكر أوشكت … منه المدافع أن تفيض عِلالا (٢)

لقد حدث تطور في مفهوم الوطن ، وخاصة بعد تمازج الثقافات ايام بني العباس ، فلم يعد الوطن هو الجزيرة العربية وحدها ، ولم يعد

---

١ ـ الأغاني ، حـ . III ، ص ٣٣٤ (دار الكتب) .
٢ ـ الأغاني ، حـ . III ، ص ٢٩١ ـ ٢٩٣ [دار الكتب] ؛ [الأوشال : الماء القليل ؛ البلبال : الهم ؛ علال : مرة بعد مرة] .

الحنين الى الوطن هو الحنين الى هـذه الجزيرة فقط ، إنما غدا الوطن تلك البقعه من الارض التي يعيش عليها الشاعر ، وترتبط بها حياته . بل ظل اولاً ـ هو المدينة .. الخ ... ولقد جمع ياقوت الحموي فصلاً خاصاً في المدن : من فارقها من الشعراء ، ومن حن إليها . ولهذا حل الحنين إلى مدينة الشاعر محل الحنين إلى الجزيرة العربية في أكثر الاحيان ، حيث غدا هذا الحنين وجهاً آخر ـ قد يكون بعيداً نوعا ما ـ من وجـــوه العصبية الاقليمية التي ظهرت أيام بني أمية ، وحلت محل الحنين الى الحجاز ونجد [فشعر ينتصر للعراق ، وآخر للشام ، وكان هذا أساساً للوطنيـة فيما بعد][1] ، فالشاعر محمد بن وهب قصائد كثيرة في الحنين الى البصرة . ويذكر شاعر آخر (الكرخ) وهـــو في مصر ، في رحاب الخصيب ، فتلدغه الغربة ، وتتحرك فيه لواعج الحنين إلى بغداد [ذكر الكرخ نازح الاوطان] . ومطيـع بن إياس يتشوق إلى الري ، ومن بها وهو بحلوان ، [قرب بغداد] ، ويحس بوحشة الغربة في قصيدته المشهورة ، [أسعداني يا نخلتي حلوان ..] . ويحن أبو تمام الى ايامه بحلوان مصـر ، واخوانه بالفسطاط ، ويعجب لتصاريف الدهر التي تبعد المرء عن وطنه ، فيضرب في الارض حتى اذا ما اتخذ وطناً ثانياً ، واستعاض عن الاهـل بالاخوان عادت الايام تعبث به ، وتفرق بينه وبين إخوانه ، وتطرحه مطارح الغربة:

بالشام أهلي ، وبغداد الهوى ، وأنا بالرقتين ، وبالفسطاط إخواني

ولابن الرومي قطعة شعرية في الحنين الى الوطن [أشـرنا اليهـا

---

١ ـ الشابب ، الشعر السياسي . ص ١٧٥ .

سابقاً] ، تتركز قيمتها المعنوية في تعليلها الاغتراب لا برحيل الانسان عن الارض ، بل بالنفس التي فارقت جسدها فهلكت . ويحن القاضي عبـــد الوهاب بن نصر الى بغداد بعد أن رحل عنها إلى مصـر ، لا عن قلىً لها ، بل ضاقت عليـــه بأسرها ، ولم تكن الارزاق فيها تسعف المرء على الحياة :

سلام على بغداد في كل موطن   وحق لها مني السلام المضاعف (١)

أما في منتصف القرن الخامس الهجري ، وبعد النكبة التي حلت بالعرب في شمال افريقيا ، فقد هاجر قسم من شعرائهم إلى الاندلس ، وصقلية ، وقالوا الكثير في ذكر الاوطان ، والحنين اليها ، وأثر الشوق إلى الاوكار ، وإلى مدن معينة بذاتها . فهذا محمـد بن شرف ، اللاجيء الى الاندلس يحن إلى القيروان ، ويتمنى لو كان طائراً ليراها :

ياقيروان وددتُ أني طائر   فأراك رؤية باحث متؤمّل
أبدت مفاتيح الخطوب عجائباً   كانت كوامن تحت عتب مقفل
ياأربعي في القطب منها كيف لي   بمعاد يوم فيك لي، من أين لي؟..

ويصور المهاجر هائماً على وجهه لا يلقاه أينما حـــل إلا المذلة

---

١ ـ حسين . م . أثر الرحلة ، حـ . I ، ص ٣١٧ ـ ٣٣٠ (محاضرات المجمع العلمي العربي بدمشق ، عام ١٩٥٤) .

والهوان ، تنبو به الارض فيتنقل ساكباً الدموع ممزقاً [1] . وهذا تأوه شاعر قيرواني آخر في ارض الغربة وهو عبد الكريم بن الحلواني ممن أم الاندلس أيضاً :

لله منزلة بالقيروان محا أيامها البين لا الأيام والقدم

ويقول مصوراً حال الغرباء ، وكأنهم قد لاقوا عنتاً كثيراً :

يانفس ويحك في التغرب ذلّة فتجرّعي كأسي أذى وهوان
وإذا نزلت بدار قوم دارهم فلهم عليك تعزّز الأوطان [2]

إنه لمن الضروري أن نشير إلى أن عدداً من الكتاب المؤلفين قد خصصوا فصولاً خاصة مستقلة من كتبهم في محاسن ومساوىء حب الوطن ، فمثلاً ، ابن الفقيه (أواخر القرن IX/III) ، الذي أورد الحديث عن حب الوطن [3] وابن حوقل [4] ، والجاحظ [5] ، وابراهيم الحصري القيرواني [6] . ورغم ظلم وقسوة الحمدانيين ، الذين فر وهاجر السكان من

---

١ ـ الخريدة ، قسم شعراء المغرب ، ص ٤٣٥ .
٢ ـ هناك أيضاً .
٣ ـ انظر . ابن الفقيه ، كتاب البلدان .
٤ ـ انظر . ابن حوقل .
٥ ـ الجاحظ ، الحنين إلى الأوطان .
٦ ـ ابراهيم القيرواني ، زهر الآداب .

قسوتهم هذه ، فان كثيراً من السكان الآخرين قد قرروا،وفضلوا البقاء في مواطنهم ، متحملين الظلم بسبب حبهم للوطن ، الذي أمضوا فيه فتوتهم ، رغم انه عليهم أن يعطوا الحاكم نصف المحصول.والحاكم هو الذي يقدر كمية الضرائب ـ حسب رغبته ـ بالذهب أو الفضة [1] .

كما أن المعركتين في ذي قار والقادسية اللتين حصلتا بين العرب وغير العرب كانتا سبباً في نظم الكثير من الشعر ، الذي عبر عن كثير من جوانب الصراع بين المقاتلين ، وربما كانت في هذا الشعر بعض الملامح القومية . كذلك فان وقعة عمورية ، ونصر العرب فيها على البيزنطيين في خلافة المعتصم قد أوحت للشعراء العرب بالشعر الكثير، والشعر الخاص بهذه المناسبة كان قد قاله أبو تمام ، في ملحمته البطولية التي مطلعها :

السيف أصدقُ أنباءً من الكتب   في حده الحد بين الجد واللعب

في هذه الملحمة، وأيضاً في شعر المتنبي،عامة،الذي قيل ضد الشعوبية، تظهر بذور القومية [2] .

ومنذ نهاية القرن الخامس / XI يبدأ النضال ـ نضال العرب ضد الصليبيين والبيزنطيين في الشرق ، ومع النورمانديين في صقلية في الغرب.

---

١ ـ متز ، آ . ، الترجمة العربية ، حـ . I ص ١٨١ ؛ الترجمة الروسية ، ص ١١١ .

Gabrieli F. La poesia di al – Mutanabbi   ٢ ـ

في دراستنا وتحليلنا لأشعار أسامة ، كما أشرنا إلى ذلك سابقاً ، يعثر على مفاهيم : عرب ، عجم (غير عرب) ، مسلمين ، نصارى ، الخ ... لكن ، في نفس ذلك الوقت ، عندما يحن أسامة إلى وطنه ، فانه لا يحن إلى الارض العربية أو الاسلامية كلها ، بل إلى شيزر الصغيرة ، إلى مسقط رأسه ، وأحياناً إلى سورية بشكل عام ، ولقد أشرنا إلى هذا أكثر من مرة فيما سبق . ونظير أسامة في هذا معاصره علي بن يقظان السبتي ، الذي كتب يحن إلى مصر من الوصل :

أحنّ إلى مصر حنين متيمٍ ... بها مستهام القلب محترق الكبد

أراهم بلحظ الشوق في كل بلدة ... كأنهم بالقرب مني أو عندي

ولو أن طعم الصاب جُرّعت فيهم ... لفضلته للحب فيهم على الشهد (١)

وتكثيفاً ، لدراستنا ، فقد وصلنا إلى النتيجة التالية : وهي أن الشعراء الجاهليين والاسلاميين وهم يستعملون في أشعارهم ألفاظ : شعب وقبيلة وبطن وفخذ .. الخ .. ، لم يقصدوا بهذه الألفاظ المعاني المحددة الدقيقة التي يراها فيها العلماء ، وكانت العصبية قد لعبت دوراً بارزاً واضحاً في العلاقات الاجتماعية عند العرب ؛ هذه العلاقات القبلية التي تذكرنا بالظواهر القومية المتعصبة في النظام السياسي الحديث المعاصر .

إن الهزة العنيفة في الحياة الاقتصادية والاجتماعية عند العرب قد سببها ظهور الاسلام ، وفتح المسلمين لمناطق وأقطار جديدة . فاستقرار

---

١ ـ الخريدة ، ص ٣٤٤ .

الفاتحين العرب في هذه المناطق الجديدة قاد ، بالدرجة الاولى ، إلى اختلاط وتمازج القبائل ، حيث ظهر نتيجة لهذا التمازج جيل جـــديد . وظهرت الاحزاب السياسية ، والفرق الدينية ، التي لعبت دوراً ملحوظاً في ظهور علاقات اجتماعية جديدة ، وإلى ظهور مفهوم جديد متطور للوطن .

أما في أوقات الفتوح ، فان حنين المحاربين إلى الأماكن في الوطن (وأحياناً إلى الجزيرة العربية بكاملها) وحزن الذين بقـــوا على أرض الوطن - كل هذا قد وجد انعكاساً خاصاً في الشعر العربي . والحنين إلى الوطن وأماكنه هنا ما هو إلا تسامٍ وتطور للمطالع الغزلية . وإن الاشعار البطولية أيضاً عن الذاهبين في الحملات والغزوات ، وعن أعمالهم ونضالهم، ما هي إلا نموذج جديد ومتطور لشعر الفخر التقليـدي ، لكنها تختلف عنه بأنها تعبر عن الشعور العام الاسلامي .

إن مفهوم « الوطن » يتطور من أماكن النزول والاســـتقرار ، وأماكن تنقل القبيلة ، إلى مفهوم المدينة الجـديدة ، والمـكان الجـديد ، حيث نزل، واستقر العربي ، وأصبـح انساناً مستقراً لا رحالة متنقـلاً . وفي كل مراحل التطور ، كان مفهوم « الوطن » - « مـكان الاستقرار الدائم » - مرتبطاً بحفظ كرامة الانسان ، وتأمين الحياة المرضية اللائقة . وأظهر تطور المجتمع تأثيراً كبيراً على علاقة الفرد بالقبيلة وبالاقرباء . ومن هنا ، في الشعر وفي الرسائل النثرية ، يجد الحنين إلى الاصدقاء والرفاق انعكاساً وتعبيراً واضحين .

إن اغتراب الشعراء - لأسباب عدة مختلفة - وبعدهم عن أماكن السكن الأصلية (الأسر ، النفي) ، كانا مصدراً للتعبير الشعري عن الشوق والحنين إلى الوطن .

لكن ، لا بد من أن نشير إلى أنه يعثر على خط واحد ، وعلى ظل واحد عند معظم الشعراء ، على امتداد العصور والمراحل ، في الاشعار المقالة في الغربة ، والمعبرة عن الحنين إلى الوطن - ان هذا استسلام وتنازل بدون نضال ، انه الشعور التراجيدي للشاعر .

مجموعات الشعراء « السجناء ، والأسرى ، والمنفيين ، والمهاجرين» الذين ذاقوا مرارة البعد عن الوطن ، وعاشوا بظروف عمقت التعلق بأوطانهم ، التي أبعدوا عنها ، أو تباعدوا ، ان هذه المجموعات ، في أشعارها ، قد عبرت عن أسمى معاني الحب ، والشوق الى الوطن ، وعن أعلى درجات التعلق والتمسك به ، رغم أن هذا التعلق لم يتعد، عند بعضهم ، مجال الأمنيات فقط ، لكن بعضهم الآخر قد عاف كل شيء : الحياة المترفة والتقدير والمكانة الاجتماعية ، وحاول جاهداً العودة الى الوطن . إن شعر هذه المجموعات أصدق صورة عن أسمى مشاعر الانسان ، وأطيب صفاته الانسانية ، صورة عن تعلق الانسان بوطنه . أما أسامة فينبض شعره بالحياة والحب والألم والأماني ، ويعبر عن تعلق العربي بوطنه ، رغم أن ظروف الحياة وقتها ، قد ساعدته على التنقل بحرية في مختلف أصقاع الوطن العربي تقريباً .

ومفهوم الوطن في القرن الثاني عشر XII ، قرن أسامة [ونخص بالذكر مرحلة حياته الاولى] لم يعن أكثر من مسقط الرأس [مكان الولادة] ، مدينة ، أو مقاطعة صغيرة ، حيث عاش الشاعر ، أو مكان ملكه وإمارته . مثل هذا المفهوم « للوطن » يظهر كنموذج عند حكام المقاطعات الصغيرة ، مع الأخذ بعين الاعتبار جميع خلافاتهم ، وحروبهم

الاهلية ، وهذا ما كان من أهم الصفات المميزة لعصر الانقسام والتشتت الاقطاعي في سورية وفلسطين في حياة أسامة . وعندما ركزت الجهود على السمو بهذا المفهوم ، كان اللقاء التاريخي بين الاقطار العربية - وقتها - ، وكان اندحار الصليبيين . وهذا ما يؤكد الحقيقة الثابتة : أن في وحدة العرب كل الخير لهم ، وكل التقدم والتطور .



الخاتمة

إن تحليل ودراسة « كتاب المنازل والديار » قد مكنتنا من توضيح ورصد تطور مفهوم المشاعر الوطنية في الشعر العربي ، ومن دراسة شخصية المؤلف بذاته ـ أسامة ـ كممثل ساطع للطبقة الاقطاعية ، المسيطرة في القرن الثاني عشر(IIX)في سورية وفلسطين ، وتبيان انعكاس ذلك المستوى من تطور مفهوم الوطن في مؤلفاته الشعرية ، ذلك المستوى الذي وصل اليه المفهوم حتى القرن الثاني عشر . لقد توصلنا الى النتائج التالية لدراستنا :

في الوسط البدوي ، حيث ظهر الشعر العربي ، على ما يبدو ، لم يوجد مفهوم محدد للوطن . فحياة البدوي كانت مرتبطة بالتنقل والترحال : يولد المرء في مكان ما ، في أغلب الحالات لم يعد اليه ثانية . و « عاش » عند البدوي إنما عنيت « تنقل » ، « ارتحل » . ان الارتباط الدائم بمكان معين محدد عند البدوي كان مدعاة للاحتقار ، ظهر وكأنه بشكل أو بآخر تحديد للحرية ـ حرية الأنسان ، وإنقاص من قيمته . لكن الشاعر البدوي بكل لطف ورقة توجه إلى إماكن النزول المؤقت لقبيلته ، وقبيلة محبوبته . وإعادة زيارة أماكن السكن القديمة أو تذكرها أيقظ عند الشاعر أقوى العواطف وأرقها . وفي الشعر العربي البدوي القديم كانت قد توضحت وثبتت نماذج تصوير المغاني والربوع ، بعناصرها ومكوناتها، بقاياها وآثارها ، تلك التي حملت صفات متكررة .

إنّ بذور مفهوم « الوطن » عند العرب مرتبطة بانتقالهم من حياة البداة والتنقل والترحال ، إلى حياة الاستقرار . فهذا الانتقال الشهير ، مع كل التغييرات الاجتماعية والاقتصادية التي ظهرت على أساسه قد قاد إلى ارتباط حياة العربي ـ المستقر باماكن سكن محدده ، تلك الأماكن التي أمنت له امكانية الوجود والحياة ، ولفظة « عاش » في قاموس المتحضر المستقر أصبحت تعني ـ « استقر » ، « ثبت » (في مكان واحد معين). ولهذا فانّ المفهوم العام لمكان السكن والعيش عند العربي ، بعد الانتقال إلى حياة الاستقرار ، بشكل تدريجي بدأ يعني « الوطن » ، بأبسط معانيه .

وكل المصطلحات التي تعني أماكن السكن المحددة ، في ذات الوقت حملت في طياتها معنى « الوطن » أيضاً . وبسبب هذا ، بصورة خاصة ، فان المطالع الغزلية الطللية للقصائد ، المتضمنة موضوع الوطن ، والتي فيها تتردد أصداء فقدان الأهل والاقرباء والمواطنين ، والحنين للأماكن المهجورة ، بدأت تمتلك معانياً جديدة ، متولدة تحت تأثير الشروط الجديدة للحياة ـ استقرار العرب في أماكن منفصلة متميزة عن الصحاري .

وبغض النظر عن أن هذه المطالع الغزلية قد عبرت عن أشياء تقليدية ؛ فاننا نعثر فيها على عناصر تجديد كثيرة ، تعود بنشأتها إلى مراحل زمنية متأخرة .

إن مفهوم الوطن في القرن XII ، بدون شك ، ما كان إلا نتيجة للتطور الاقتصادي والاجتماعي المستمر . إن الحوادث العاصفة لهذا القرن : اصطدام ثلاث قوى عالمية : العرب المسلمين والبيزنطيين والصليبيين ، هذا

الاصطدام الذي جرى على تلك القطعة من الارض الصغـيرة نسبياً ، في سورية ،هذا الصدام قد ساعد على أن يتحسس العرب بدقة متناهية وجودهم المعاكس المتميز ، كأناس ينتمون إلى تجمع واحد ، بالنسبة للأجانب والغرباء ، بالنسبة للشعوب الاخرى ؛ ووضع هذا الصدام بداية ولادة المشاعر القومية التي توطدت وتدعمت بواسطة النضال العام ضد الغزاة .

من أجل تحليل تطور مفهوم الوطن بالاعتماد على مواد « كتاب المنازل والديار » كان لا بد لنا من أن نصدر عن شخصية مؤلفه أسامة، الذي ، يمكن القول فيه ، أنه كان أول من عبر عن الشعور بالوطن ، ذلك لأنه عمم،على مادة كبيرة عظيمة، علاقة من سبقه بالموضوع الوطني .

إن الكشف عن شخصية أسامة قد ساعدنا على تحـديد مستوى مفهوم الوطن الذي انتهى إليه التطور في القرن XII ، ذلك المفهوم الذي شاع عند الطبقة الاقطاعية ، وعبر عن مفاهـيم ومعتقدات وآراء مفكري ذلك العصر بالنسبة لهذا المفهوم .

مفهوم الوطن كان محدداً بذلك المكان الذي ولد فيه الانسان ، أو بتلك الممتلكات التي ظهرت فيها سيادته . إن مثل هذا المفهوم كان قد ظهر في الأمثال الشعبية ، مثلاً ، (محل ما بترزق الزق) ، (كل ديك على مزبلته صياح) .. الخ ..

والعرب باحساس زائد قد تعلقوا بالأمثلة المطروحة والمشاكل المعروضة عندما كان الأمر يمس استقلالهم وشخصيتهم . فالبوريون في دمشق كانوا مستعدين لعمل كل شيء في سبيل الحفاظ على ممتلكاتهم ، حتى إنهم عقدوا حلفاً مع مملكة القدس الصليبية ضد الزنكي ، وبالمناسبة فان أسامة

ذاته كان قد شارك في عقد مثل هذا الحلف .

إن الحقيقة التالية تعتبر من أهم الدلائل على فهم مستوى مفهوم الوطن : أسامة الذي يمتلك إقطاعا ، بعيداً عن دمشق ، كان قد اعتبر غريباً من قبل أمراء الاقطاعات المنقسمة المتناحرة في دمشق ؛ نعم ، وهو بالفعل قد غدا غريباً وذلك عندما عملت كل الظروف على إجبـــاره على هجر سورية ، والتفتيش عن ملتجأ له في مصر ، حيث قـد تدخـل في مختلف المؤامرات السياسية ، وأجبر نتيجة لذلك أن يترك مصر ويعـود ثانية إلى سورية ، التي كانت في هذه المرحـلة قد توحـدت تحت السلطة القوية للأتابك نور الدين الزنـكي .

إن الحب العارم للوطن ، المتشكل نتيجة للتربية منذ الطفولة،وبعدها الفقدان التراجيدي الحزن لذلك الوطن ، (لشيزر) ، والخبرة الحيـاتية لأسامة - كل هذا كان مصدر إيحاء وإلهام شعريين عند أسامة ، وأساساً عليه كان قد نما وترعرع ، الموضوع الوطني في مؤلفاته وآثاره .

وأسامة بكلمته الادبية ، أراد أن يرفع روح الناس ، أراد تربيتهم على مثال أبطال العرب القدماء . إن هذه الأصداء والعناصر الوطنية يعثر عليها بشكل أو بآخر ، بنسبة أو بأخرى، عند المؤلفين الآخرين المعـاصرين له ، لكن أسامة في هذا المجال يفوقهم جميعهم .

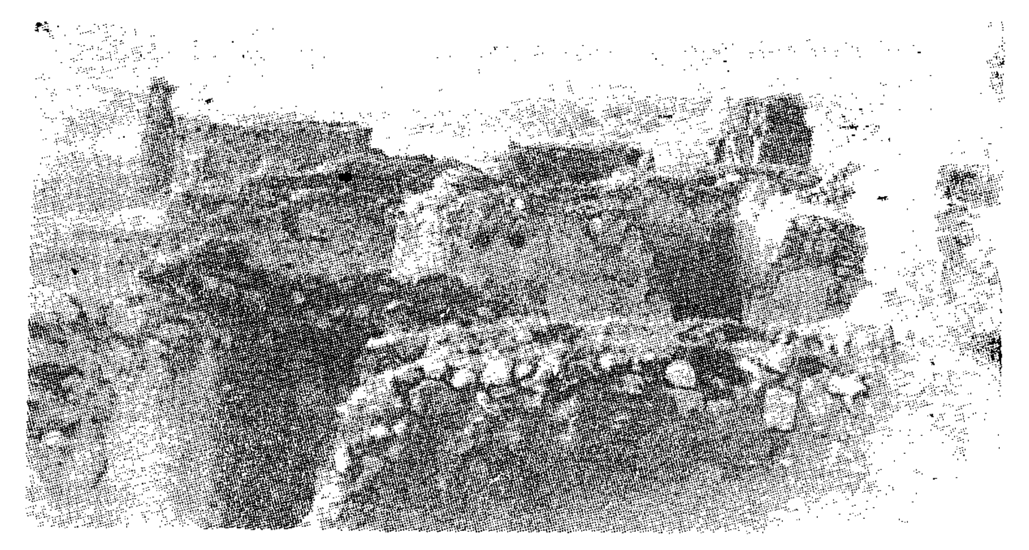
في « كتاب المنازل والديار » كان أسامة قد جمع بصورة خاصة تلك المطالع الشعرية ، التي تنعكس فيها أصداء فقدان الوطن والمواطنين ، وكأنه قد وضع نصب عينيه هدف تركيز اهتمام وانتباه الناس في عصره على ولادة

شعور الحب الأهل والمواطنين ، لأماكن السكن والوطن ، في الانسان منذ القدم .

إن دراسة وتحليل « كتاب المنازل والديار » ، وانعكاس شخصية حياة أسامة فيه ، يعتبر -كما نأمل- أساساً وقاعدة علمية متينة لدراسة تطور الوجوه العديدة لموضوع الوطن في الشعر العربي منذ القرن XII وحتى أيامنا هذه ، وهذا ما نحن عازمون على تحقيقه . إذ إننا نعمل الآن على تحليل ودراسة تطور المشاعر الوطنية في الادب العربي من القرن الثاني عشر الميلادي إلى مطلع القرن العشرين .



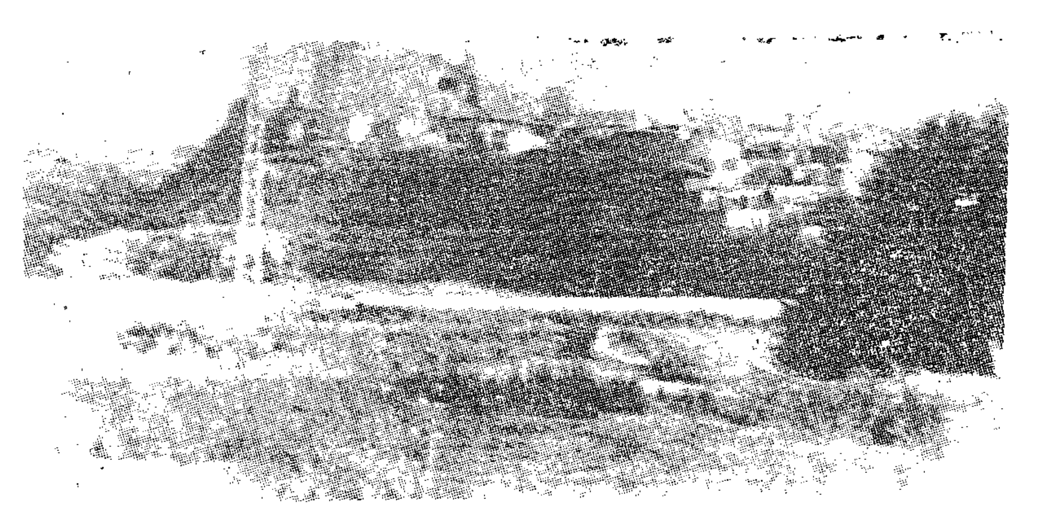




قلعة شيزر عام ١٩٧١ م



المدخل الرئيسي للقلعة



منظر قلعة شيزر مع القرية المجاورة عام ١٩٧١



فهرس المراجع والمصادر

أولاً – مراجع باللغة العربية

١ – ابن الأثير :

Ibn–el–Athiri Chronicon quod perfectissimum imscribitur, ed. G. J. Tornberg, Vol, I–XIV, Upsalise et Lugduni Batavorum, 1851–1876.

٢ – ابن إياس . تاريخ مصر :

ابن إياس . تاريخ مصر المشهور [بدائع الزهـــور في وقائع الدهور] ، المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق المحمية ، ١٣١١ / ١٨٩٣ – ٩٤ .

٣ – ابن تغري بردي . النجوم :

ابن تغري بردي . النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقـاهرة ، / القاهرة / ، طبع دار الكتب المصرية ، ١٩٣٥ .

٤ – ابن جبير . الرحلة :

The Travels of Ibn Jubair ed. from a MS in the University Library of Leydon by W. Wright, 2d ed. revised by M. J. Gocje, Leyden–London, 1907 (GMS, V).

٥ – ابن الجوزي . صيد الخاطر :

صيد الخاطر ، ٣ أجزاء ، راجعه وحققـه علي الطنطـاوي ، دمشق ، دار الفكر ، ١٩٦٠ .

٦ - ابن الجوزي . مرآة الزمان :

ابن الجوزي . مرآة الزمان ، طبع حيدر آباد ، ١٩٥١ .

٧ - ابن حزم . جمهرة :

ابن حزم الاندلسي ، علي بن سعيد . جمهرة أنساب العرب ، تحقيق ليفي بروفنسال ، القاهرة ، ١٩٤٨ .

٨ - ابن حوقل :

Viae et regna, Descriptio ditionis moslemicae autore Abul-Kasim Ibn Haukal. Ed. M. J. de Goeje, Lugduni Batavorum, 1873 (BGA, II).

٩ - ابن خلدون . المقدمة :

عبد الرحمن بن خلدون المتوفي ٨٠٨ هـ . الجزء الاول من كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر ، بيروت ، المطبعة الادبية ، ١٨٧٩ .

١٠ - ابن خلكان . وفيات :

ابن خلكان . وفيات الاعيان ، القاهرة ، دار الطباعة الميرية المصرية ، ١٢٧٥ / ١٨٥٨ - ٥٩ .

١١ - ابن دحية . النبراس :

ابن دحية / عمر ذو النسبين / أبو الخطاب المتوفى سنة ٦٣٣هـ. النبراس في تاريخ بني العباس ، نشره عباس العزاوي المحامي ، بغداد ، مطبعة المعارف ، ١٩٤٦ .

١٢ - ابن رشيق . العمدة :

ابن رشيق القيرواني ، أبو علي . العمدة في محاسن الشعر وآدابه ، جزءان ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، القاهرة ، ١٩٣٤ .

١٣ - ابن الساعي . الجامع :

ابن الساعي . الجامع المختصر لعنوان التواريخ وعيون السير ، بغداد ، المطبعة السريانية الكاثوليكية ، ١٩٣٤ .

١٤ - ابن السبكي . طبقات الشافعية :

طبقات الشافعية الكبرى ، لعبد الوهاب بن علي بن السبكي المتوفي سنة ٧٧١هـ ، المطبعة الحسينية ، ١٣٢٤ / ١٩٠٦ - ٧ .

١٥ - ابن شاكر . فوات :

ابن شاكر ، فوات الوفيات ، القاهرة ، مطبعة بولاق ، ١٨٨١ .

١٦ - ابن شداد . النوادر :

ابن شداد . النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، طبع مطبعة صبيح بالقاهرة ، ١٣٤٢ / ١٩٢٧ - ٢٨ .

١٧ - ابن الصابوني . تكملة :

ابن الصابوني . تكملة الاكمال في الانساب والاسماء والالقاب ، حققة وعلق عليه الدكتور مصطفى جواد ، [بغداد] ، مطبعه المجمع العلمي العراقي ، ١٩٥٧ .

١٨ - ابن عبد ربه . العقد الفريد :

ابن عبدربه العقد الفريد ، ٣ أجزاء ، القاهرة ، ١٢٩٣/١٨٧٦ .

- القاهرة ، لجنة التأليف ، ١٩٤٠ .

١٩ ـ ابن الفقيه . كتاب البلدان :

Compendium Libri Kitab al Boldan auctore Ibn-al-Fakih al-Hamadhani, quod edidit, indicibus et glossario irstruxit M. J. de Goeji, Lugduni-Batavorum, 1885 (BGA,V)

٢٠ ـ ابن قتيبة . الشعر :

Ibn Qotaiba, Liber poësis et poëtarum. ed. M. J. de Goeje, Brill, 1904.

٢١ ـ ابن القلانسي . ذيل :

حمزة بن القلانسي المتوفي سنة ٥٥٥ هـ . ذيل تاريخ دمشق ، بيروت ، ١٩٠٨ .

٢٢ ـ ابن المعتز . طبقات :

طبقات الشعراء المحدثين ، لابن المعتز ، بتحقيق الاستاذ عبدالستار فراج ، [ذخائر العرب ، طبعة دار المعارف] ، ١٩٥٦ .

٢٣ ـ ابن منظور . لسان العرب :

ابن منظور أو ابن مكرم . لسان العرب ، عشرون جزءاً ، الطبعة الكبرى الميرية ببولاق مصر المحمية ، ١٣٠٠ - ١٣٠٨/ ١٨٨٢ - ١٨٩١ .

٢٤ ـ ابن ميسر . أخبار مصر :

ابن ميسر . أخبار مصر ، نشره هنري ماسيه ، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي ، ١٩١٩ .

٢٥ ـ ابن واصل . مفرج :

ابن واصل . مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، جزءان ، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال ، القاهرة ، ١٩٥٣-١٩٥٧.

٢٦ ـ أبو شامة . الروضتان :
أبو شامة . كتاب الروضتين في أخبار الدولتين ، تأليف الشيخ شهاب الدين أبي محمد عبدالرحمن بن اسمعيل بن ابراهيم المقدسي، الطبعة الأولى ، القاهرة ، مطبعة وادي النيل بمصر ، ١٢٨٧ / ١٨٧٠ - ١٨٧١ / .
٢٧ ـ أبو العلاء . اللزوميات :
اللزوميات لأبي العلاء أحمد بن سليمان المعري ، جزءان ، طبعة بيروت ، (بدون تاريخ) .
ـ اللزوميات ، أو لزوم مالا يلزم لأبي العلاء المعـــري ، ٤ أجزاء ، تحقيق وشرح ابراهيم الأعرابي ، بيروت ، (بدون تاريخ) .
٢٨ ـ أسامة . الاعتبار ، إصدار حتي :
Usamah's memoirs entitled Kitab al I'tibar, by Usama ibn Munqidh, Arabic text, princeton, 1930.
٢٩ ـ أسامة . الاعتبار ، إصدار درنبورغ :
Ousama ibn Mounkidh, 2-eme partie, texte arabe de l'autobiographie d'Ousama, Paris, 1886.
٣٠ ـ أسامة . البديع :
أسامة بن منقذ . البديع في نقد الشعر ، حققه الدكتور أحمد أحمد بدوي ، والدكتور حامد عبدالمجيد ، القاهرة ، نشرة وزارة الثقافة والارشاد القومي ، ١٩٦٠ .
٣١ ـ أسامة ـ الديوان :
ديوان أسامة بن منقذ ، تحقيق الدكتور أحمد أحمـد بدوي ، وحامد عبدالمجيد ، القاهرة ، المطبعة الأميرية ، ١٩٥٣ .

٣٢ ـ أسامة . لباب الآداب :

أسامة بن منقذ . لباب الآداب ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، طبعة المطبعة الرحمانية بالقاهرة ، ١٩٥٣ .

٣٣ ـ أسامة . المنازل [محققة] :

أسامة بن منقذ . كتاب المنازل والديار ، تحقيق الأستاذ مصطفى حجازي ، القاهرة ، ١٩٦٨ .

٣٤ ـ أسامة . المنازل [مخطوطة] :

كتاب المنازل والديار لأسامة بن منقذ ، مخطوطة ،معهد الدراسات الشرقية بلينينغراد ، رقم [C35] .

٣٥ ـ أسامة . المنازل [مصورة] :

كتاب المنازل والديار ، مخطوطة مصورة ، مع مقدمة وفهارس . أ . ب . خالدوف ، موسكو ، ١٩٦١ .

٣٦ ـ الاصفهاني . الاغاني . (بولاق) :

كتاب الاغاني للامام أبي الفرج الاصفهاني ١٢ ـ ٢٠ جزءاً ، طبعة بولاق ، ١٢٨٥ (١٨٦٨ ـ ٦٩) .

٣٧ ـ الاصفهاني . الاغاني [التقدم] :

كتاب الاغاني للامام أبي الفرج الاصفهاني [علي بن الحسين بن محمد الاصفهاني] ، ١ ـ ٢١ جزءاً ، التزم طبعه الحاج محمد أفندي ساسي المغربي ، قوبل على نسخة قديمة بالكتبخانه الخديوية بتصحيح أحمد الشنقيطي ، مطبعة التقدم بمصر ، ١٣٢٣ / ١٩٠٥ ـ ١٩٠٦ / .

٣٨ ـ الاصفهاني . الاغاني (دار الكتب) :
كتاب الاغاني للامام أبي الفرج الاصفهاني ، ١ - ١٦ جزءاً ، القاهرة ، دار الكتب ، ١٩٢٧ - ١٩٥٤ .

٣٩ ـ البلاذري :

Liber Expugnationis Regionum, Auctore Imamo Ahmed ibn Jahja ibn Djabir al-Beladsori, quem e codice Leidensi et codice Musei Brittannici edidit M. J. de Goeje, Lugduni Batavorum, E. J. Brill 1866.

٤٠ ـ البيهقي المحاسن :

Ibrahim ibn Mohammed al-Beihaqi, Kitab al - Mahasin va-l-masavi--Giessen, 1902 Schwally. F.

٤١ ـ التبريزي . التنوير بشرح سقط الزند :
التنوير بشرح سقط الزند للتبريزي ، طبعة السعادة بمصر ، الطبعة الاولى (بدون تاريخ) .

٤٢ ـ الجاحظ . البيان :
الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر) . البيان والتبيين ، ٤ أجزاء الطبعة الثالثة ، القاهرة ، مكتبة الخانجي ، مكتبة الهلال في بيروت ، المكتب العربي بالكويت ، ١٩٦٨ .

٤٣ ـ الجاحظ . الحنين :
أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ . الحنين إلى الاوطان ، تصحيح الشيخ طاهر الجزائري ، مصر ، مطبعة المنار ، ١٣٣٣ (١٩١٤ - ١٩١٥) .

٤٤ ـ الجرجاني . الوساطة :

الوساطة بين المتنبي وخصومه ، للقاضي علي بن عبـــدالعزيز الجرجاني . (توفي ٣٦٦ هـ) ، تحقيق علي محمد وأبي الفضل ابراهيم ، القاهرة ، (مكتبة عيسى البابي الحلبي) ، ١٩٤٥ .

٤٥ ـ جرير والاخطل . نقائض :

Naqa'id de Garir et de Ahtal, texte arabe, annoté par A. Salhani, Beyrouth, Impr. Catholique, 1922.

٤٦ ـ حاجي خليفة . كشف الظنون :

Haji Khalifae, Lexicon Bibliographicumet encyclopaedicum Instruxit G. Fluegel, Leipzig, 1835.

٤٧ ـ الحصري . زهر الآداب :

الحصري ، أبو اسحق ابراهيم بن علي المعروف بالحصري القيرواني المالكي ، زهر الآداب وثمر الالباب ، على هامش العقد الفريد لابن عبد ربه ، طبعة ١٢٩٣ / ١٨٧٦ .

٤٨ ـ الدمشقي . نخبة :

Cosmographi de Chems ed-Din Abou Abdallah Mohammed ed-Dimishqui, texte arabe, publ. A. F. Mehran, st.-F. 1866.

٤٩ ـ ابن أبي ربيعة [بيروت] :

ديوان عمر بن أبي ربيعة ، جمع وتصحيح بشير يموت ، بيروت ، طبعة الاهلية ، ١٩٣٤ .

٥٠ ـ ديوان ابن أبي ربيعة [ليبزيج] :

Der Diwan des Umar ibn Abi Rafie, hrsg. von P. Schwarz, Leipzig, 1901.

٥١ ـ ديوان ابن الجهم :

ديوان على بن الجهم ، عني بتحقيقه ونشره وجمع تكملته خليل مردم ، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق ١٩٤٩ .

٥٢ ـ ديوان ابن الخطيم . [بغداد] :

ديوان قيس بن الخطيم . حققه الدكتور ابراهيم السامرائي ، بغداد ، مطبعة العاني ، ١٩٦٢ .

٥٣ ـ ديوان ابن الخطيم . [القاهرة] :

ديوان قيس بن الخطيم . تحقيق ناصر الدين الأسد ، [القاهرة] ، طبعة دار العروبة بمصر ، ١٩٦٢ .

٥٤ ـ ديوان ابن ذريح :

ديوان قيس بن ذريح [قيس ولبنى] ، شعر ودراسة ، جمع وتحقيق الدكتور حسين نصار ، القاهرة ، مكتبة مصر ، دار مصر للطباعة ، ١٩٦٠ .

٥٥ ـ ديوان ابن الرومي :

ابن الرومي . الديوان ، تصنيف كامل كيلاني ، طبعة التوفيق الادبية ، [بدون تاريخ] .

٥٦ ـ ديوان ابن قيس الرقيات :

ديوان عبد الله بن قيس الرقيات ، تحقيق الدكتور محمد يوسف نجم ، بيروت ، دار صياد ، ١٩٥٨ .

٥٧ ـ ديوان ابن المعتز :

ديوان أمير المؤمنين ابن المعتز العباسي ، جزءان ، القـاهرة ، ١٨٩١ . ـ طبعة إقبال بيروت ، ١٣٣٢/١٩١٣ - ١٩١٤/ .

Der Diwan des Abdallah ibn al Mutazz, hrsg. von B. Lewin, teil III, Istanbul, 1950, teil IV, Istanbul' 1945 (Bibbliotheca Islamica, Bd. 17 c. d).

٥٨ ـ ديوان ابن هانيء :

ديوان ابن هانيء الأندلسي ، طبعة الأمـيرية بولاق ، ١٢٧٤ / ١٨٥٧ - ٥٨ / .

٥٩ ـ ديوان أبي تمام :

ديوان أبي تمام ، جزءان ، شرح الخطيب التـــبريزي ، تحقيق محمد عبده عزام ، طبعـــة ذخائر العـرب ، دار المعارف ، ١٩٥١ - ١٩٦٤ .

٦٠ ـ ديوان أبي العتاهية :

الأنوار الزاهية في ديوان أبي العتاهية ، جمـع لويس شيخو ، المطبعة الـكاثوليكية بيروت ، ١٩١٤ .

٦١ ـ ديوان أبي فراس الحمداني :

Semi Dahan. Le Diwan d'Adu Firas al-Hamdani, t. I-III, Beyrouth, (Institut Français de Damas).

٦٢ ـ ديوان أبي نواس :

ديوان أبي نواس . حققه وطبعه وشرحه أحمد عبد المجيد الغزالي [القاهرة] ، طبعة مطبعة مصر ، ١٩٥٣ - ١٩٥٤ .

٦٣ ـ ديوان الأخطل :

Disman al-Ahtal, texte arabe,publié et annoté par Salhani, Vol. I – IV, Beyrouth, Impr. Catholique, 1891 – 1892.

٦٤ ـ ديوان الأعشى :

Gedichte von Abu Basir Maimum ibn Qaisal-'A'sa. Nebst Sammlungen Von Stucken anderer Dichter des gleichen Beinamens. Und Von al-Mussayyab ibn'Alsa, arabisch hrsg Von Gayer R., London, 1928.

٦٥ ـ ديوان امرىء القيس :

ديوان امرىء القيس . تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، [ذخائر العرب] ، دار المعارف ، ١٩٥٨ .

٦٦ ـ ديوان البحتري :

ديوان البحتري ، طبعة بيروت ، بتصحيح رشيد عطية ، ١٩١٠.

ـ طبعة هندية ، بتصحيح البرقوقي ، ١٩١١ .

ـ طبعة دار المعارف ، بتحقيق حسن كامل الصيرفي ، ١٩٦٥ – ١٩٦٧ .

٦٧ ـ ديوان بشر :

ديوان بشر بن خازم الأسدي ، عني بتحقيقه الدكتور عزت حسن ، (دمشق) ، طبعة وزارة الثقافة والارشاد القومي في الاقليم السوري ، مديرية إحياء التراث القديم ، ١٩٦٠ .

٦٨ ـ ديوان جرير :

ديوان جرير بن عطية . تحقيق محمد اسماعيل الصاوي ، (القاهرة) ، طبعة مصر ، ١٩٣٥ .

٦٩ ـ ديوان جميل :

ديوان جميل بثينة / شعر الحب العذري / ، جمع وتحقيق وشرح الدكتور حسين نصار ، طبع مكتبة مصر ، دار مصر للطباعة ، سنة أولى ، (بدون تاريخ) .

٧٠ ـ ديوان الحادرة :

Al-Hadirac Diwanus Cum al – Yesidel Schoilis e codicems. Arabice edidit; Varsiene Latin et annotetioneil,

٧١ ـ ديوان حاتم الطائي :

Diwan Hatim at – Ta'i, London, 1872.

ـ ديوان حاتم الطائي ، برواية الكلبي ، طبعة الوهبية بالقاهرة ، ١٢٩٣ / ١٨٧٦ .

٧٢ ـ ديوان حسان بن ثابت (لندن) :

The Diwan of Hassan b. Thabit, ed. by H, Hirschfeld, ph. I. Leyden 1910 (GMS, XIII),

٧٣ ـ ديوان حسان بن ثابت (البرقوقي) :

ديوان حسان بن ثابت ، تحقيق وشرح عبد الرحمن البرقوقي ، جزء واحد ، القاهرة ، ١٩٢٩ .

٧٤ ـ ديوان الحطيئة :

ديوان الحطيئة بشرح السكري وتصحيح الشنقيطي ، طبعة التقدم بمصر ، / بدون تاريخ / .

٧٥ ـ ديوان الخنساء :

ديوان الخنساء / أنيس الجلساء / ، نشر لويس شيخو ، بيروت، ١٨٩٦ .

٧٦ ـ ديوان ديك الجن :

ديوان ديك الجن الحمصي ، جمع وشرح عبد المعين الملوحي ، وزميله ، حمص ، طبعة الفجر ، ١٩٦٠ .

٧٧ ـ ديوان ذي الرمة :

The Diwan of Ghailan ibn Uqbah Known as Dhu'r-Rummah, ed. Machartney, Cambridge, 1919.

٧٨ ـ ديوان زهير :

شرح ديوان زهير بن أبي سلمى ، صنعة الامام أبي العباس أحمد ابن يحيى زيد الشيباني /ثعلب/ ، القاهرة ، دار الكتب، ١٩٤٤ .

٧٩ ـ ديوان الشريف الرضي :

ديوان الشريف الرضي ، بتحقيق الاستاذين حسن كامل الصيرفي، وابراهيم الابياري ، نشر وزارة الثقافة ، طبعة الحلبي ، ١٩٦٢ .

٨٠ ـ ديوان طرفة :

Diwan Tarafa ibn al-'Abd al -Bakri, accompagné du commentaire de Yousouf al-A'lam de Santa-Maria publié, Truduit et annoté par M. Selibsehn, Paris, Libraire E. Bouillon, 1961.

٨١ ـ ديوان الفرزدق :

Divan de Farazdak, Recita de Mohamed ben Habib d'epres ibn-el-arab, publié par R. Boucher, Paris, 1870,

٨٢ ـ ديوان كثير :

Kotayyir-azea, Diwan, accompagué d'un commentaire arabe ed. par H. peres, Alger-Paris, 1930.

٨٣ - ديوان لبيد :

ديوان لبيد ، تحقيق الدكتور إحساس عباس ، الكويت ١٩٦٢.

٨٤ - ديوان المجنون :

ديوان قيس بن الملوح العامري / مجنون ليلى / ، جمع وتحقيق الاستاذ عبد الستار فراج ، الطبعة الاولى ، مكتبة مصر ، / بدون تاريخ / .

٨٥ - ديوان المتنبي :

ديوان المتنبي بشرح البرقوقي ، طبعة الرحمانية ، بمصر ، ١٩٣٠.

٨٦ - ديوان المرتضى :

ديوان الشريف المرتضى ، ٣ أجزاء ، حققه ورتب قوافيه ونشر ألفاظه رشيد الصفار ، راجعه وترجم أعيانه الدكتور مصطفى جواد ، قدم له الاستاذ محمد رضا السنبسي ، طبع دار إحياء الكتب العربية ، وطبعة الحلبي ، ١٩٥٨ - ١٩٥٩ .

٨٧ - ديوان مزاحم :

The Poetical Remains of Myzahim al-'Uqaili, id.and transl. by F. Krenkow, Brill, Leyden, 1920.

٨٨ - ديوان مهيار :

ديوان مهيار الديلمي ، ٤ أجزاء ، (القاهرة) ، دار الكتب ، ١٩٢٥ - ١٩٢٦ .

٨٩ - ديوان النابغة الجعدي (شعر الجعدي) ، جمع مارينا نيلينز ، طبعة المكتب الاسلامي بدمشق ، ١٩٦٤ .

٩٠ ـ ديوان : النابغة الذبياني:
ديوان النابغة الذبياني ، (التوضيح والبيان من شعر نابغه بني ذبيان) ، بيروت ، ١٩٥٣ .
٩١ ـ ديوان النقائض :

The Naka'id of Jarir and al-Farazdak, ed, by Boran, Vol. I – III, Late E. J. Brill publischers and printers, Leyden 1905 – 1913.

٩٢ ـ ديوان الهذليين :
ديوان الهـــذليين ، طبعة دار الكتب ، (القاهرة) ، ١٩٤٨ – ١٩٥٠ .
٩٣ ـ الذهبي . سير . مصورة .
الذهبي . سير أعلام النبلاء . مصورة مخطوطة موجودة في المجمع العلمي العربي ، دمشق ، رقم ٢٠٩ .
٩٤ ـ الذهبي . سير . مطبوعة :
الذهبي . سير أعلام النبلاء . القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٥٧ .
٩٥ ـ الزبيدي . تاج العروس :
محمد مرتضى الزبيدي . تاج العروس ، عشرة أجزاء ، مصر ، المطبعة الخيرية المنشأة بجمالية مصر ، ١٣٠٦ / ١٨٨٨ – ٨٩ .
٩٦ ـ الزوزني . شرح المعلقات :
شرح المعلقات السبع للامام الاديب القاضي المحقق أبي عبدالله ابن أحمد بن الحسين الزوزني ، المتوفي ٤٨٦ هـ . ضبطه وكتب مقدمته وتراجمه وتعليقاته محمد علي حمد الله ، نشر وتوزيع المكتبة الاموية بدمشق ، ١٩٦٣ .

٩٧ ـ السبكي . معيد النعم :

السبكي . معيد النعم ومبيد النقم ، القاهرة ، دار الكاتب العربي ، ١٩٤٨ .

٩٨ ـ السكري . شرح أشعار الهذليين :

شرح أشعار الهذليين ، للسكري ، بتحقيق الأستاذ عبدالستار فراج ، طبعة دار العروبة بمصر ، ١٩٦٣ - ١٩٦٥ .

٩٩ ـ الطباخ . أعلام النبلاء :

الطباخ ، محمد راغب . أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء . حلب ، المطبعة العلمية ، ١٣٤٢ - ١٣٤٥ / ١٩٢٣ - ١٩٢٧.

١٠٠ ـ الطبري :

Annales quos scripsit Abu Dja'far Mohammed ibn Djarir at-Tabari. Ed. M. J. de Geoje, series I–III, Lugduni-Batavorum, 1879–1901.

١٠١ ـ العاملي . أعيان الشيعة :

العاملي . أعيان الشيعة ، بيروت ، مطبعة الانصاف ، ١٩٥٨ .

١٠٢ ـ العماد الاصفهاني . إصدار درنبورغ :

Des Publications de l'Ecole des Langues Orientales vivants par H. Derenbourg, vol XIV Paris 1886.

١٠٣ ـ العماد الاصفهاني . بداية قسم شعراء الشام :

العماد الاصفهاني الكاتب . خريدة القصر وجريدة العصر ، بداية قسم شعراء الشام ، شعراء دمشق ، والشعراء الامراء من بني أيوب ، عني بتحقيقه الدكتور شكري فيصل ، (دمشق) ، المطبعة الهاشمية ، ١٩٦٨ .

١٠٤ ـ العماد الاصفهاني . قسم شعراء المغرب :
العماد الاصفهاني الكاتب . خريدة القصر وجريدة العصر ، قسم شعراء المغرب ، جزء أول ، تحقيق محمد المرزوقي ، محمد العروسي المطوي ، الجيلاني بن الحاج يحيى ، (تونس) ، الدار التونسية للنشر ، ١٩٦٦ .

١٠٥ ـ الفيروز أبادي . المحيط :
الفيروز أبادي ، مجد الدين . القاموس المحيط ، ٤ أجزاء، القاهرة، طبعة البابي ، ١٩٥٢ .

١٠٦ ـ القلقشندي . نهاية الأرب :
القلقشندي ، شهاب الدين . نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب . جزءان ، تحقيق الأبياري ، ١٩٥٩ .

١٠٧ ـ الكميت . الهاشميات :
الهاشميات ، للكاميت بن زيد الأسدي ، طبعة ليدن ، ١٩٠٤.

١٠٨ ـ اللاميتان :
اللاميتان، لامية العرب للشنفري، ولامية العجم للطغراني من شروح الزمخشري الصفدي ، أعدهما وعلق عليهما عبدالمعين الملوحي ، دمشق، وزارة الثقافة والارشاد القومي ، ١٩٦٦ ، (إحياء التراث القديم ، ٣١) .

١٠٩ ـ المبرد . الكامل :

The Ka mil of el Mubarrad, ed by W. Wright Leipzig, 1864.

١١٠ المسعودي . التنبيه :

Kitab at-Tanbih wa-l-ischraf auctore al-Masudi, Lugduni Batevorum,1893-1894, (BGA, VIII).

١١١ – المعلقات :

المعلقات السبع مع ذكر رواياتها ، وأنساب قائليها ، ويليها لامية العرب ، تصحيح محمد محمود الشنقيطي ، إطبعة ثانية ، (القاهرة) ، مطبعة السعادة ، (بدون تاريخ) .

١١٢ – المقريزي :

المقريزي . إغاثة الامة بكشف الغمة . تحقيق الاستاذين محمد مصطفى زيادة ، وجمال الدين محمد الشيال ، القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٣٥٩ / ١٩٤٠ .

١١٣ – نشوان . منتخبات :

نشوان ، ابن سعيد الحميري . منتخبات في أخبار اليمن . تحقيق عظيم الدين أحمد ، ليدن ، ١٩١٦ .

١١٤ – النعيمي . الدارس :

النعيمي . الدارس في تاريخ المدارس ، تحقيق جعفر الحسني ، دمشق ، ١٩٤٨ .

١١٥ – النمري . الانباه :

النمري ، ابن عبدالبر ، يسف . الانباه على قبائل الرواة . في مجلد واحد مع كتاب القصة والامم ، القاهرة ، ١٣٥٠ / ١٩٣١ – ٣٢ .

١١٦ ـ النويري . نهاية الارب :

النويري . نهاية الأرب في فنون الأدب . عشرة أجزاء، القاهرة،
مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٢٣ .

١١٧ ـ الهمذاني . صفة :

Müller Dt H., al Hamadani's geographie der arabischen Halbinsel, Leyden, 1884.

١١٨ ـ ياقوت . معجم الادباء :

The Irshad al arib ila marifat al-adib or Dictionary of Learned men of Yakut. ed. Margoliouth, Leyden, London 1909 (GMS VI).

١١٩ ـ ياقوت . معجم البلدان :

Yacut's geographisches wör terbuch, hreg. von F· Wüstenfeld, Bd. X-VX, Leipzig, 1866-1873.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

ثانياً : مصادر مترجمة

آ ـ إلى اللغة العربية

١٢٠ ـ بروكلمان . تاريخ الادب :

بروكلمان ، كارل . تاريخ الادب العربي . ٣ أجزاء . نقله إلى العربية الدكتور عبدالحليم النجار ، القاهرة ، دار المعارف بمصر ، ١٩٥٩ ـ ١٩٦٢ .

١٢١ ـ خالدوف (مقالة عن كتاب المنازل) :

خالدوف ، أ . ب . مقاله ، مقدمة لكتاب المنازل والديار لأسامة بن منقذ ، تحقيق الاستاذ مصطفى حجازي ، القاهرة، ١٩٦٨ .

١٢٢ ـ خسرو طوى . سفرنامة :

خسرو طوى ، ناصر . سفر نامة . نقله إلى العربية ، وقدم له، وعلق عليه الدكتور يحيى الخشاب ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٤٥ .

١٢٣ ـ زامباور . معجم الانساب :

زامباور . معجم الانساب والسلالات الحاكمة . ترجمة الدكتور زكي حسن ، طبعة جامعة القاهرة ، ١٩٥١ .

١٢٤ ـ كراتشوفسكي . مع المخطوطات :

كراتشكوفسكي . إ . ي . مع المخطوطات العربية . موسكو ، طبعة دار التقدم ، ١٩٦٣ .

١٢٥ - ميتز . الحضارة الاسلامية :

متيز ، آدم . الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري . نقله إلى العربية محمد عبدالهادي أبو ريدة ، الطبعة الثانية ، منقحة ومهذبة ، القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٤٧ .

ب. إلى اللغة الروسية

126. Босворт К. Э. Мусульманские Династии, справочник по хронологии и Генеалогии. Пер. С англ. и примеч. Грязневича П. А. М., "Наука", 1971.

127. Гибб. Х. А. Р. Арабская литература (Классический период) Пер. с англ. А. Б. Халидова и П. А. Грязневича. М., изд. Вост лит. 196 .

128. Мец А. Мусульманский ренессанс перс. с нем., предисл., библиогр и указатель Д. Е. Бертельсо М., изд "Наука", 1966, 2-е изд 1973

129. Усама, ал-и тибар, Русс. Пер

Усама Ибн Мункиза, Книга назидания Пер. С араб. М. А Салье, М., Изд Вост Лит 1922, 2-е изд. 1958

جـ - إلى اللغات الأوروبية

130 - Ad-Dimishki , Mohammad , Manuel de cosmographie du moyen âge Trad . de l'arabe . Ed. A.F . Mehran , St.-P., 1866 .
Trad . de l'arabe , par A.F. Mehran , Copenhague , 1874 .

131 - Derenbourg H. " Souvenirs historiques et récits de chasse par un émir syrien du douzième siécle . Autobiographie d'Ousema Ibn Mounkidh . Traduction française " , 1895.

132 - Hitti , Ph.K., An Arab-Syrian gentleman and warrior in the period of the Crusades . Memoirs of Usamah Ibn Munqidh (Kitab al - i'tibar). Transl , New York , 1929.

133 - Potter G.R., Autobiography of Ousama Ibn Mounkidh . London , 1929 .

134 - Schuman G., Usama Ibn Mounkidh . Memoiren eines syrischen Emirs aus der Zeit der Kreuzzüge , aus dem Arabischen übersetzt. Innsbruck, 1905.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

ثالثاً - دراسات

آ - باللغة العربية

١٣٥ - أمين ، أ . فجر الاسلام :

أمين ، أحمد . فجر الاسلام . القاهرة ، ١٩٥٠ .

١٣٦ - أمين ، أ . فارس كنانة :

أمين ، أحمد . فارس كنانة . فيض الخاطر ، الجزء الرابع ، (القاهرة) ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة ، (بدون تاريخ) .

١٣٧ - الاشتر ، ع . نصوص :

الاشتر ، عبدالكريم . نصوص مختارة من الادب العباسي ، دمشق ، المكتبة الحديثة ، ١٩٦٥ .

١٣٨ - باشا ، ع . م . ابن نباته :

باشا ، ع . م . ابن نباته المصري ، أمير شعراء المشرق ، القاهرة ، دار المعارف ١٩٦٣ .

١٣٩ - باشا ، ع . م . أدب الدول :

باشا ، ع . م . أدب الدول المتتابعة ، لبنان ، (بيروت) ، دار الفكر الحديث ، ١٩٦٧ .

١٤٠ - بدوي ، أ . الحياة الادبية :

بدوي ، أحمد . الحياة الادبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ، القاهرة ، مكتبة نهضة مصر ، ١٩٥٤ .

١٤١ ـ بدوي ، أ . الحياة العقلية :

بدوي ، أحمد . الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ، القاهرة ، مكتبة نهضة مصر ، ١٩٥٥ .

١٤٢ ـ البستاني ، ب . أدباء العرب :

البستاني ، بطرس . أدباء العرب في الجاهلية وصدر الاسلام والاعصر العباسية ، جزءان ، بيروت ، مطبعة دار صادر ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٢ .

ـ أدباء العرب ، حـ ١ ، ٢ ، ٣ ، بيروت ، دار المكشوف والثقافة ، طبعة جديدة ومنقحة ، ١٩٦٨ .

١٤٣ ـ البستاني ، ب . الشعراء الفرسان :

البستاني ، بطرس . الشعراء الفرسان ، بيروت ، ١٩٤٤ .

١٤٤ ـ بول كولار ، وآخرون . سورية :

سورية ، قضايا حفظ المواقع الأثرية والاستفادة منها ، تقرير لجنة اليونيسكو المرسلة إلى سورية سنة ١٩٥٣ ، والمؤلفة من السيد بول كولار رئيساً ، وسليم عبدالحق ، وأرماندو ويللون عضوين ، اليونيسكو ، مديرية الآثار العامة فى سوريه .

١٤٥ ـ بيلي ، أ . حياة صلاح الدين :

بيلي ، أحمد . حياة صلاح الدين . القاهرة ، المطبعة الرحمانية، ١٣٤٥ / ١٩٢٦ ـ ٢٧ .

١٤٦ ـ حبش ، ح . الحرب الصليبية :

حبش ، حسن . الحرب الصليبية الأولى . الطبعة الثانية ، القاهرة ، دار الفكر العربي ، ١٩٥٨ .

١٤٧ - حتي . ف . وآخرون ، تاريخ :

حتي ، فيليب ، جرجي ادوار ، جبور جبرائيل . تاريخ الأدب العربي ، مطول ، ٣ أجزاء ، بيروت ، ١٩٤٩ .

١٤٨ - حجازي . م . مقدمة :

حجازي ، مصطفى . مقدمة لكتاب المنازل والديار لأسامة بن منقذ ، القاهرة ، ١٩٦٨ .

١٤٩ - حسن ، إ . ح . تاريخ :

حسن ، إبراهيم حسن . تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وبلاد العرب ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، طبعة ثانية ، ١٩٥٨ .

١٥٠ - حسين ، م . أ . أسامة :

حسين ، محمد أحمد . أسامة بن منقذ ، مصر ، [القاهرة] ، ١٩٤٦ .

١٥١ - حسين ، م . خ . أثر الرحلة :

حسين ، محمد الخضر ، أثر الرحلة في الحياة الأدبية ، مقاله في محاضرات المجمع العلمي العربي بدمشق ، الجزء الثالث ، عام ١٩٥٤ ، صفحة ٢١٧ - ٢٣٠ .

١٥٢ - حسين ، م . ك . في أدب مصر الفاطمية :

حسين ، محمد كامل . في أدب مصر الفاطمية . طبع دار الفكر العربي . [بدون تاريخ] .

١٥٣ ـ الحلفي ، ع. أدباء السجون :

الحلفي ، عبدالعزيز . أدباء السجون . دار الكاتب العربي . [فقط] .

١٥٤ ـ حمدي ، ح . الشرق :

حمدي ، حافظ ، الشرق الاسلامي قبل الغزو المغولي ، مصر ، (القاهرة) ، مطبعة الاعتماد ، ١٩٥٠ .

١٥٥ ـ الخوري ، خ . خرابات سورية :

الخوري ، خليل . خرابات سورية . (خطاب تلاه على محفل العمدة الادبية في بيروت ، ١٥ آذار ١٨٥٩) ، بيروت ، ١٩٦٠ .

١٥٦ ـ رستم ، أ . :

رستم ، أسعد . باب التقريظ والانتقاد ، (ترجمة كتاب الاعتبار) ، مقالة في مجلة الكاتب ، السنة الثانية ، المجلد الثالث ، الجزء الثالث ، القاهرة ، يناير ، ١٩٤٧ .

١٥٧ ـ زكي ، أ . أسامة :

زكي ، أحمد كامل . أسامة بن منقذ . سلسلة أعلام العرب ، مصر ، (القاهرة) ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، ١٩٦٨ .

١٥٨ ـ زكي ، أ . صلاح الدين :

زكي ، أحمد كامل . صلاح الدين بين شعراء عصره ، القاهرة ، ١٩٦٠ .

١٥٩ ـ زيدان ، ج . تاريخ آداب اللغة :
زيدان ، جرجي . تاريخ آداب اللغة العربية . ٤ أجزاء ، القاهرة ، دار الهلال ، طبعة جديدة ومنقحة ، راجعها وعلق عليها الدكتور شوقي ضيف ، ١٩١٣ .

١٦٠ ـ سلام ، م . ز . الأدب :
سلام ، محمد زغلول . الأدب في العصر الأيوبي . مصر ، (القاهرة) ، دار المعارف ، ١٩٦٨ .

١٦١ ـ السيد ، ع :
السيد ، عبدالملك . رسائل القراء . مقالة في مجلة الكلية ، مجلة الجامعة الاميركية ، بيروت ، الجزء الأول ، المجلد السادس عشر ، ١٩٢٩ .

١٦٢ ـ الشايب ، أ . تاريخ الشعر السياسي :
الشايب ، أحمد . تاريخ الشعر السياسي إلى منتصف القرن الثاني ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ، مطبعة السعادة ، ١٩٦٢ .

١٦٣ ـ الدهان ، س . الناصر :
الدهان ، محمد سامي: الناصر صلاح الدين. القاهرة، دار المعارف ، ١٩٦٠.

١٦٤ ـ ضيف ، ش . الترجمة الشخصية :
ضيف ، شوقي . الترجمة الشخصية . بيروت ، دار المعارف ، ١٩٥٦ .

١٦٥ ـ ضيف ، ش . التطور :
ضيف ، شوقي . التطور والتجديد في الشعر الاموي . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٢ .
ـ مصر ، مطبعة دار المعارف ، ١٩٥٩ .

١٦٦ ـ الطاهر ، ع ، ج . الشعر :

الطاهر ، علي جواد . الشعر العربي في العراق وبلاد العجم في العصر السلجوقي ، جزءان ، بغداد ،مطبعةالمعارف،١٩٥٨ .

١٦٧ ـ عاشور ، س . أضواء على الحروب الصليبية :

عاشور ، سعيد عبدالفتاح . أضواء على الحروب الصليبية . (القاهرة) ، ١٩٦٤ .

١٦٨ ـ العلوجي ، ع . :

العلوجي ، عبدالحميد . مؤلفات ابن الجوزي . بغداد ، شركة دار الجمهورية للطباعة والنشر ، ١٩٦٥ .

١٦٩ ـ فهرس التيمورية :

فهرس الخزانة التمورية ، ١ ـ ٤ ، (القاهرة) ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٤٨ ـ ١٩٥٠ .

١٧٠ ـ فهمي ، م . ح . الحنين :

فهمي ، ماهر حسن . الحنين والغربة في الشعر العربي الحديث . القاهرة ، معهد الدراسات العربية ، ١٩٧٠ .

١٧١ ـ فيصل ، ش . المجتمعات :

فيصل ، شكري . المجتمعات الاسلامية في القرن الأول . بيروت ، دار العلم الملايين ، ١٩٦٦ .

١٧٢ ـ كحالة ، ع ، ر . معجم المؤلفين :

كحالة ، عمر رضا . معجم المؤلفين . خمسة عشر جزءاً ، دمشق ، مطبعة الترقي ، ١٩٥٧ .

١٧٣ ـ الكفراوي ، م . ع . الشعر بين الجمود والتطور :

الكفراوي ، محمد عبدالعزيز . الشعر العربي بين الجمودوالتطور . طبعة ثانية ، مكتبة نهضة مصر بالفجالة ، ١٩٥٨ .

١٧٤ ـ مجلة المجمع :

مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، ١٩٣٠ ، الجزء الخامس والسادس من المجلد العاشر .

ـ الجزء الثالث ، صفحة ٣١٧ ـ ٣٣٠ ، عام ١٩٥٤ .

١٧٥ ـ المرصفي ، ح . الكلام الثمان :

المرصفي ، حسين . الكلام الثمان في الامة والوطن والحكومة والعدل والظلم والحرية والتربية ، القاهرة ، ١٨٨٠ .

١٧٦ ـ المنجد ، ص . فهرس المخطوطات العربية :

فهرس المخطوطات العربية في الامبروزيانا ، الجزء الثاني ، القسم الاول ، من رقم ٢٢٠ ـ ٤٤٠ ، وضعه الدكتور صلاح المنجد ، القاهرة ، ١٩٦٠ .

١٧٧ ـ الميهمي ، أ . وآخرون ، فهرس الكتب العربية :

فهرس الكتب العربية المحفوظة بالكتبخانة الخديوية المصرية . جمعه ورتبه أحمد الميهمي ومحمد البيلاوي ، طبعة أولى ، المطبعة العثمانية بمصر ، ١٣٠٧ / ١٨٨٩ ـ ٩٠ .

١٧٨ ـ النعساني ، ط . أسامة :

النعساني ، طاهر . أسامة بن منقذ ، أو شيزر وآل منقذ . هي المحاضرة التي القاها في ردهة المجمع العلمي العربي بدمشق في ١٨ تشرين ثاني ١٩٢٩ ، حماه ، طبع المكتبة الوطنية .

١٧٩ ـ النص ، إ . العصبية :
النص ، إحسان . العصبية القبلية وأثرها في الشعر الاموي .
دار اليقظة ، لبنان ، (بيروت) ، ١٩٦٣ .
١٨٠ ـ النقاش ، ز . العلاقات :
النقاش ، زكي . العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية
بين العرب والافرنج خلال الحروب الصليبية ، بيروت ،
١٩٥٨ .

* * *

ب. باللغة الروسية

181. К. Маркс и Ф. Энгельс. Избранные произведения Т. II, М., Госполит-издат, 1955.

182. В. И. Ленин Полное собрание сочинений. Изд. 5-е, Т. III, М., Госполитиздат, 1958.

183 Абрамович Г. Л., Введение в литературоведение. Изд 5-е, М., изд. "Просвещение", 1970.

184. Большаков О. Г., и др., Средневековый город Средней Азии, Л., "Наука", 1973.

185. Богданов А. Н., Методика литературоведческого анализа. М., изд "Просвещение", 1969.

186. Барев Ю. Б., Эльсберг Я. Е. — Основнные проблемы в историческом асвещении — в Кн.: "Теория литературы", T. I, M., АН СССР, 1962.

187. Виноградов В. В., Сюжет и стиль. М., изд. АНСССР, 1963.

188. Всемирная история в 10-ти Т. М., Гостполитиздат, 1955.

189. Заборов М. А., Крестовые походы, М., изд. АНСССР, 1956.

190. Заборов М. А., Введение в историографию крестовых походов. М., 1966.

191. Заборов М. А., историография Крестовых походов (литература

XI – XIX вв.), М., "Наука", 1971.

192. Каган М.С., Лекции по марксистско-ленинской эстетике. Л., ЛГУ, 1971

193. Крачковский И.Ю., Избранные сочинения, Т. I – VI, М.,-Л., АН, 1955-57.

194. Крачковский И.Ю., Неизвестное сочинение - автограф Сирийского эмира Усамы, ЗКВ, Т.I, Л., 1925, С. 1-18

195. Островский А.П. - Собрание сочинение. Т. XIII, М., Госполитиздат. 1952

196. Розен В.Р. - Рец. на: Ousama ibn Mounkidh. Un emir Syrien au

premier siecle des croisades(1095-1188), par H Derenbourg, Deuxieme partio, paris, 1886 - ЗВОРАО, Т. П, СПб., 1887, С. 175-178.

197. Теория литературы, Т.-III, М., АН. 1962-1965.

198. Фильштинский И. М., Арабская Классическая литература, М., "Наука", 1965.

199. Фильштинский И. М., Шидфар Б Я., Очерк арабо-мусульманской культуры (VII - XII ВВ) М, изд-во Вост. лит., 1971.

200. Френ Х. Д. Письма Древних руссов. СПб., 1936 (Биб-ка для чтения, XIII)

جـ - باللغات الأوروبية

201 - Ameer Ali , A Short History of the Saracens, London , 1900

202 - Breasted J.H. Ancient Records of Egypt, vol. II, Chikago . 1906 .

203 - Browne E. , A Literary History of Persia , /vol.I-2/, London 1902-1906.

204 - Brockelman C. , Geschichte der arabischen Litteratur, I-III Leyden , Brill,1937-1942.

205 - Barker E. The Crusades , London , Oxford Univ. Press, 1936.

206 - Cahen C. , Indigenes et croises , - Syria , XV,1934.

207 - Cahen C. , La Syrie du nord à l'époque de croisades et la principauté franque d'Antioche , Paris ,1940 .

208 - / K. Leyden /. Catalogues codicum arabicorum bibliothecae academiae Lugduno-Batavee, auctoribus M.X. de Goeje et M.Th.Houtsma, I, Lugdini Batavorum, 1888.

209 - Derenbourg H., " Ousama poète. Notice inédite tirée de la Kharidat al-Kasr, par Imad ad-Din al-Katib" ("Nouveaux mélanges orientaux"), Paris , 1886.

210 - Derenbourg H., la vie d'Ousama , un emir syrien au première siécle des Croisades, (1095-1188), Paris , 1889.

211 - Dorn B. , Das Asiatische Museum der Kaiserlichen Akademie der Wissenschaften zu St. Petersburg , St. Petersburg , 1846.

212 - Elisseeff N. , Nur ad-Din un grand prince musulman de Syrie au temps des Croisades (511-569)/1118-1174), vol. I-III, Damas , 1967.

213 - EI-The Encyclopaedia of Islam . T.I.-IV, Leyden - London , 1913-1934 .

214 - Frähn Ch.D., Vorlaüfiger Bericht über eine neue bedeutende Bereicnerung des orientalischen Menuscripten -Apparats des Kais. Akademie der Wissenschaften - B KH. Dorn B. Das Asiatische Museum , c. 279-294.

215 - Frähm Ch.D. Vorläufiger Bericht über eine bedeutende Bereicherung an arabischen , persischen und türkischen Handschriften, die das Asiatische Museum der Kaiserlichen Akademie der Wissenschaften zu St. Petersburg in diesem Jahre erhalten hat , nebst einigen Schätzen desselben . B KH. Dorn B. Das Asiatische Museum, c. 201-216.

216 - Hitti Ph.K., History of the Arabs , third edition, revised, London , 1946.

217 - Lane-poole S., History of Egypt in Middle Ages. London ,1913.

218 - Lane-poole S., Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem, London , 1893.

219 - Michaud J.F., Histoire des Croisades , 5 vol., Paris , 1812-1822.

220 - Ousema ibn Munkidh, " Le livre de Beton " . Derenbourg H., Paris , 1889.

221 - Ringgren H., Studies in Arabian fatalism, Uppsala, 1955.

222 - Schen L., Usema ibn Munqidh's memoirs: Some further light on Muslim Middle Arabic (pt .I), "journal of Semitic Studies". Vol. XVII,N 2. Half-yearly . Manchester univ. press, 1972.

223 - Robertson Smith , Kinship and marriage in Early Arabia ,I.London, 1903.

224 - /Verz. Ahlwardt/. Verzeichnis der arabischen Handschriften der Königlichen Bibliothek zu Berlin . Von W. Ahlwardt, Bd.VI, Berlin , 1894.

225 - /ZDMG/ - Zeitschrift der Deutschen Morgenlandischen Gesellschaft. Bd. 69-73.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

تصويب

ص	س	الصواب
٣	١٣	لتقييمها
١٤	١١	بين
١٥	٦	فرّقت
٢٠	١٧	شيزر
٢١	٢٠	سيرة
٢٣	٦	الاساسي
٢٣	١٢	الخريدة
٢٤	١٠	ابنه
٢٤	١٢	عادات
٢٥	١٤	الجاهليين
٢٦	١	الرقيّات
٢٧	١٣	نسوة
٣٧	٥	كابن
٤٠	١١	يازيد !
٤٢	٧	البيزنطيين
٤٥	١٢	صبور
٥٩	١٨	انتقاله
٦٣	١٥	١٤ آب
٦٤	١٤	ابن أخت
٦٦	١٢	فهذا
٦٩	٦	للآساد
٧١	١٤	أبو
٧١	١٥	١١٣٧/٥٣١
٧٣	١٠	بهاء
٧٤	٥	نازحٍ
٧٤	١٠	فيَّ
٧٦	٥	بمساعدة
٧٧	١١	انتصارات
٧٩	١٦	بوري
٨٣	٥	تعبّدني
٨٣	١٥	عندما
٨٤	٥	وصعبت
٨٧	٧	إليَّ
٨٨	٨	ومالٍ
٨٨	١١	اتجاهها
٩٢	٣	بجميع
٩٢	٥	نور الدين
٩٢	١٥	وخال صلاح
٩٤	٧	بتحريضه
٩٧	٣	يؤيد رأي
١٠٠	٢	ابنه
١٠٠	٨	بين
١٠٢	٢	كانت
١٠٢	٤	تحذف [ولود].

ص	س	الصواب
١٠٤	٧	يأخذ له
١٠٧	١	أخطرها
١٠٧	١٢	الزلزال
١٠٩	١٠	لم يسؤه
١١٥	١١	ارتاع
١١٦	٢	لم يعاجله
١١٦	١٠	بعشاره
١١٨	٨	جديده، شديده،
١٣١	٨	أغرقهم
١٣١	٩	«كنت
١٣٤	٧	عصره
١٣٥	٧	مجراها
١٣٨	٣	والطعن
١٣٨	٦	الأمواه
١٣٩	١٢	أوطالية
١٤٢	٢	أ. بدوي
١٤٢	١٦	مضمنه
١٤٤	٢	في (ليدن)
١٤٤	١٦	GAL,
١٤٥	٦	بيلايف
١٤٧	٤	فيه
١٤٨	٢	إلزامي
١٤٨	٥	كراتشكوفسكي
١٥٤	٥	لذنوب
١٥٤	١٢	إلى تعفيتها
١٥٦	١٥	الكتاب محرّفاً
١٥٩	١٩	(P) بدلاً من (C)
١٦٢	٦	٥٧٩ بدلاً من ٩٧٤
١٦٧	٢٠	أول سيرة
١٦٩	٨	كما يرى
١٧٠	٧	على المقابلة
١٧٣	٩	لكن حتى
١٧٤	١٠	مؤكداً
١٧٧		بعد السطر العاشر سقط سهواً مايلي : (١٧). مختصر مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب:
١٧٩	٨	الوزراء
١٨١	١٣	بأشعاره
١٨٤	١٣	هذه الاتساعات
١٩٣	٢	لأجيالهم
١٩٥	٥	آخر السطر يوضع رقم (١)
١٩٧	٩	فانه
١٩٨	١	لقد...المطالع
١٩٩	٨	الخيمة .
١٩٩	١٨	أبي دؤاد
٢٠٠	٢	ضعيف
٢٠١	١٢	حجزاتهم

ص	س	الصواب
٢٠٢	١٠	فالسري الرّقّاء
٢٠٢	١٥	[١٥٠٠٠٠ دينار]
٢٠٢	١٨	ابن القاشي
٢٠٣	١	صبحاً... لا يغور
٢٠٣	٦	حاشا لا طلالك
٢٠٥	٧	ضمّ رحالك
٢٠٦	١	فان أعمى
٢٠٦	٣	من مدر كأنه
٢٠٦	٤	شتوت فمن
٢٠٦	٨	حتى إنه
٢٠٦	١٠	ـ رغم ضعفها ـ
٢٠٧	٦	بيتي ستور
٢٠٨	١٠	١ ـ الزوزني
٢٠٨	١٧	ديوان امرىء القيس
٢٠٩	٧	للامتناع
٢١٦	٧	إثم؟
٢١٧	٧	شعراء العصر
٢١٩	١	الدار ..
٢١٩	٥	أبت ألاّ
٢٢١	١	ولم أرَ
٢٢٣	١٣	ديوان الحطيئة
٢٢٤	٦	في البكاء
٢٢٥	٦	إذا ما أدبرتْ
٢٢٨	١١	قد ابتعدوا
٢٢٩	٢	نلهو ونجذل
٢٢٩	٨	وشبهش وقهم
٢٣٦	٨	عيش موفق
٢٣٧	١١	أن يسلى
٢٣٧	١٤	في نفسه
٢٤٣	٥	أن تلك الدمن
٢٤٦	١٠	ناظريه
٢٥١	١٥	أصابها القدر
٢٦٠	١٢	وفاء لمن
٢٦٥	٨	أمرٌ بربع
٢٦٧	٦	حتى أتى
٢٧٠	١	في الفلوات
٢٧١	١٥	فعفتها
٢٧٣	٦	على الدمنتين
٢٧٣	١٠	دمن تكاثرت
٢٨٣	٥	فتحملت
٢٨٣	١٥	وقيل للمتحير
٢٨٤	٧	من مكان إلى
٢٨٤	١١	تناسب... نيابه المقام
٢٨٥	١٠	وإن عاش
٢٨٥	١٠	بآرب
٢٨٨	٣	فلا
٢٨٨	١٢	إلاّ وطنٌ كالقديم
٢٩٠	٧	أو يعيش

ص	س	الصواب
٢٩٠	١٢	وعن الزيارة
٢٩٢	٣	فكأنّها
٢٩٣	٦	إذا ألحّ
٢٩٤	١٢	قد امتلات
٢٩٨	٤	أنّ الارض
٣٠٠	٦	وفي طعن
٣٠٠	١١	قلب
٣٠١	١	رؤوسهم
٣٠١	٩	تزاحمت... لا حسداً
٣٠٤	٦	التي تعني المعنى
٣٠٤	١٩	الحالات
٣٠٥	١٤	الشعر العربي م ٢٠
٣٠٧	٩	وتأهل
٣٠٧	١٤	أو أحدهما
٣٠٧	١٦	في الاصدقاء
٣٠٨	٤	«والاخوّة»
٣٠٩	٥	كعهده بها
٣٠٩	١٦	(ربعه الاقرب
٣١١	١١	أصرم
٣١١	١٣	وتوبة
٣١١	١٥	يبكيان
٣١١	١٦	الشمردل، ونهار بن توسعة
٣١١	١٧	قصائد
٣١٢	٢	المعنى العام
٣١٢	٣	أو تقديم
٣١٢	٤	ذهبوا
٣١٢	٦	علاوة على
٣١٢	١٠	الاعمى
٣١٢	١٣	الخوارج
٣١٣	١٢	دحمان
٣١٤	٧	وندب... القزاز
٣١٤	١٤	التيمي
٣١٤	١٥	عُباب
٣١٥	٧	ويتجول الناس
٣١٥	١١	فلم يستطع
٣١٥	١٤	(الفت) بدلاً من (تركيز)
٣١٦	٦	دار يَ ي..ويسار
٣١٦	١٠	حيلة
٣١٧	٢	بضرورة الحياة
٣١٧	١٢	شكا إليّ
٣١٨	١	لنصيبي
٣١٨	١٢	أن أزورها
٣١٨	١٣	بادرت...عليّ
٣١٩	١١	على الموتى
٣٢٣	١٠	P·46
٣٢٨	١	المصادر التي
٣٢٨	١٠	بالروح الفاتحة
٣٣٠	١٤	عن دين أهلهم

ص	س	الصـــواب
٣٣٢	٤	قبلي يسخر
٣٣٢	١٣	فالقطبيات
٣٣٣	١	وتقطعت
٣٢٣	١	مولَعٌ
٣٣٥	٦	فاغترابه نفسي
٣٣٥	٧	إنه عبد
٣٣٥	١٣	واختلافه إلى
٣٣٧	٩	(الشنفرى) أينما وجدت
٣٤٢	٢٠	هذا الزمان
٣٤٦	١٤	وإنّ ظلم
٣٤٦	١٥	الساجن
٣٥٠	٥	توقظه
٣٥١	٥	بلّغ
٣٥٢	٧	تعالي بالتداني
٣٥٤	١	بيننا الدا
٣٥٤	١١	نحو الحجاز
٣٦٠	١٥	تنزف
٣٦٤	١٠	الغضا
٣٦٥	١٢	ففيم تنوح
٣٦٨	٤	أرض بني
٣٦٨	١٣	أكثر من رمز
٣٩٢	٢٣	Rabia
٣٩٤	١٨	Abu
٣٩٥	٢	Diwan
٤٠١	١٣	للكميت
٤٠٢	١٩	يوسف
٤٠٤	١٨	كراتشكوفسكي

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المحتوى

	الصفحة
إهداء	٣
تقديم	٤ - ٨
المدخل : سورية وفلسطين منذ نهاية القرن الحادي عشر إلى نهاية القرن الثاني عشر [XII - XI] . « مميزات العصر الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية » .	٩ - ١٨
الجزء الاول	
حياة أسامة وآثاره الأدبية ٤٨٨-٥٨٤/١٠٩٤-١١٨٨	١٩ - ١٨١
الفصل الأول	
حياة أسامة بن منقذ .	١٩ - ١٣٢
- أسامة ونسبه .	٢٣ - ٢٤
- شيزر وبنو منقذ .	٢٥ - ٣١
- امتلاك آل منقذ لشيزر .	٣٢ - ٤٦
- أسامة بن منقذ : أيام طفولته وصباه .	٤٧ - ٦١
- حياة أسامة في شيزر (٤٨٨-٥٣٣/١٩٠٥-١١٣٨) .	٦٢ - ٧٧

- أسامة في دمشق (٥٣٣-٥٣٩/١١٣٨-١١٤٤). ٧٨-٨٥
- أسامة في مصر (٥٣٩-٥٤٩/١١٤٤-١١٥٤). ٨٦-١٠٢
- إقامة أسامة الثانية في دمشق (أسامة ونور الدين). (٥٤٩-٥٥٩/١١٥٤-١١٦٤). ١٠٣-١١٨
- أسامة في حصن كيفا (٥٥٩-٥٧٠/١١٦٤-١١٧٤). ١١٩-١٢٤
- إقامة أسامة الثالثة بدمشق (أسامة وصلاح الدين). (٥٧٠-٥٨٤/١١٧٤-١١٨٨). ١٢٥-١٣٢

الفصل الثاني

الآثار الأدبية لأسامة ١٣٣-١٨١
أولاً - المؤلفات ذات الطابع الأدبي ١٣٤-١٦٤
(ديوان أسامة، كتاب البديع، كتاب الغريبين، كتاب المنازل والديار، كتاب العصا، لباب الآداب التأسي والتسلي، ذيل يتيمة الدهر، الشيب والشباب).
ثانياً - مؤلفات تحمل طابع السيرة، والطابع التاريخي. ١٦٤-١٧٦
(الاعتبار، كتاب أخبار أهله، كتاب تاريخ أيامه، تاريخ القلاع والحصون، أخبار النساء، أخبار البلدان في مدة عمره).
ثالثاً - المؤلفات ذات الطابع التاريخي - البيوغرافي ١٧٦-١٧٩
(التعريف بالأعلام). (التاريخ البدري، مختصر مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، مختصر مناقب أمير المؤمنين عمر بن عبد عبدالعزيز، فضائل الخلفاء الراشدين).

رابعاً - المؤلفات ذات الطابع الوعظي الارشادي ، وبعض المؤلفات الأخرى . (نصيحة الرعاة ، النوم والأحلام ، أزهار الانهار ، التجائر المربحة والمساعي المنجحة) . ١٧٩-١٨١

الجزء الثاني

موضوع الوطن في الشعر العربي. ١٨٢-٣٧٧

الفصل الأول

الوطن في الشعر العربي . ١٨٥-٣٠٥

١ - أماكن السكن . [الخيمة ، القصور ، الوقوف على الاطلال ، وصف الحالة الراهنة للمنازل: (تحديد أماكن السكن ، جهل الديار وعدم معرفتها، المنازل معفاة ، الديار بلا سكان فقراء خالية ، مكان عيش الحيوانات ، المنازل صماء بكماء ، تشبيه آثار الديار، عوامل تهديم المنازل ، وصف الماضي ،شعور الشاعر وسلوكه) ، أماكن السكن عند العذريين ، عناصر جديدة في التوجه إلى موضوع المنازل والديار » ومعاملتها ، العناصر الفلسفية والوعظية ، أماكن السكن في شعر القرن الثاني عشر، وبخاصة في شعر أسامة وأهله .

٢ - المعنى الاوسع لمكان السكن (المغاني والربوع) . [المغاني ، الربوع ، العناصر التقليديه ، عناصر التجديد] .

٣ ـ بقايا أماكن السكن : [المعاني اللغوية ، بقايا آثار أماكن السكن عند أسامة] .
٤ ـ معنى الوطن الواسع .

الفصل الثاني

الاهل والاخوان (المواطنون) . ٣٠٦-٣١٩

الفصل الثالث

الحنين إلى الوطن والمواطنين . ٣٢٠-٣٧٧
(الشعراء المسجونون ، الشعراء المنفيون والهاربون ، الشعراء المهاجرون) .

الخاتمة : ٢٧٨-٣٨٤
فهرس المراجع والمصادر : ٣٨٥-٤٢١
تصويب : ٤٢٢-٤٢٦
المحتوى : ٤٢٧-٤٣٠

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com